الأدب في العصر المملوكي

١

الدكتور محمد زغلول سلاّم



دار المعارف بمصر

الأدبُ في العصرِ المملوكي

الأدب في العصر المملوكي

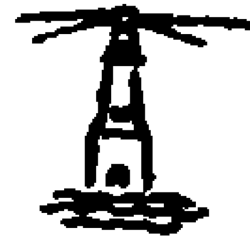
الدولة الأولى – (٦٤٨ هـ – ٧٨٣ هـ)

١

تأليف

الدكتور محمد زغلول سلام

أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها
بجامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

تقديم

يدور موضوع هذا الكتاب حول الأدب فى عصر شابه كثير من الغموض، لقلة الدراسات المنهجية التى أجريت عن الأدب المملوكى، ولأن الفكرة العامة التى غلبت على الباحثين فى العصور الأدبية عن هذا العصر كانت تصمه بالتخلف والضعف .

وكلا الأمرين ، أى قلة الدرس ، والإهمال ، وجور الأحكام أو عدم انطباقها تماماً على الواقع جعلت المثقفين وطلاب الأدب ينطبعون على أحكام ناقصة وتصورات غير واضحة عن هذا العصر وأدبه .

هذا من جانب ، ومن الجانب الآخر أن الأدب فى هذا العصر ، بل الحركة الفنية والفكرية العربية الإسلامية عامة كانت مركزة فى مصر والشام ، وكان غيرهما من البلاد العربية إما قد انفصل عن العالم العربى والإسلامى لظروف سياسية مثل الأندلس ، وبعض بلاد المشرق فيما وراء دجلة ، أو ضعفت الثقافة العربية بها لضعف الروافد التى تمدها ، واضطراب ظروفها الداخلية ، وانقطاع الأواصر بينها وبين منابع الثقافة العربية الإسلامية ومراكزها الحيوية فى مصر والشام فى فترات متعددة طويلة .

وقد حظى الأدب فى العصور الجاهلية ، والإسلامية ، والأموية باهتمام جمهرة الباحثين إلى يومنا ، ولم توجه جهود مماثلة إلى الأدب العربى فى مصر والشام فى عصور ما بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، اعتقاداً بأن ذلك التاريخ كان حدّاً فاصلا بين قوة الدولة العربية الإسلامية ممثلة فى الدولة العباسية ، وبين ضعفها وانحلالها فى عصور المماليك والعثمانيين . ومن ثم كان كذلك الحد الفاصل فى زعم الكثيرين بين أدب القوة وأدب الضعف والانحلال .

ومهما يكن من أمر الأدب فى هذه العصور ، فإنا لا نستطيع أن نضرب

عنه صفحاً أو نهمله ، وإلا فإنا بذلك نهمل جانباً من حياتنا ، ونقتطع حلقة من حلقات تطورنا الفكرى والفنى ؛ بل الاجتماعى أيضاً ، ذلك أن حياتنا المعاصرة متصلة دون شك بآصرة شديدة بحياتنا فى عصر المماليك ، بل ربما خلف عصر المماليك والعثمانيين الذى امتد لأكثر من ستة قرون فى حياتنا المعاصرة ما لم تخلفه العصور العربية والإسلامية السابقة مجتمعة . وعلى هذا فلا ينبغى لنا حين نعرض لآدابنا المعاصرة فصيحة أو شعبية أن نهمل عصور المماليك والعثمانيين ، بل ينبغى أن نعيها وعياً صحيحاً ، وأن ندرسها درساً منهجيًّا ، نحلل عناصرها ونبرز جوهرها ، ونعرض عن خبثها ، إذا كان ثمة جوهر وخبث فى الحياة والأدب .

وربما كان هذا العامل هو الحافز لى على الشروع فى دراسة الأدب فى العصر المملوكى ، بالإضافة إلى رغبتى فى إتمام الحلقات التى بدأتها فى دراسة الأدب بمصر والشام فى كتاب « الأدب فى العصر الأيوبى » .

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب لأعترف بالفضل لمن سبقنى إلى الكتابة فى موضوعه أمثال الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور عبد اللطيف حمزة ، والأستاذ محمود رزق سليم ، تلك الدراسات كانت فى رأيى رائدة لكنها لم تف ، ولم تشبع لأنها تجمع على اختلافها ثلاثة عناصر هى الجزئية فى بعض دراسات الدكتور محمد كامل حسين المتصلة ببعض الأعلام ، والمقصورة على نصوص محدودة ، أو البساطة وسرعة التناول كما هو الشأن فى دراسات الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أو الجمع دون استيفاء لعناصر الدرس الأدبى كما هو الحال فى موسوعة الأستاذ محمود رزق سليم .

وأردت أن أبذل جهداً فى هذا الميدان ، وأن أجرى مع السابقين ، مستعيناً ما استطعت بنهج دراسى يتدرج من العرض العام لأحوال الدولة والناس ، وحياتهم وعقائدهم وطبائعهم إلى الأحوال الثقافية والفكرية عامة ، ثم أختم بالأدب والفن فى صورهما المختلفة بين الفصيح والعامى ، أو أدب الخاصة وأدب العوام .

وكان لا بد من أن أمزج فى هذه الدراسة بين الأدبين العامى والفصيح ،

لأن المادة نفسها فرضت هذا المزج ، فلم يعد الفاصل كبيراً بين الأدب العامى والفصيح ، بل إنهما اختلطا وتمازجا ، حتى إن أدباء الفصحى كانوا يكتبون بالعامية ، وأدباء العوام كانوا يكتبون بالفصحى أو بالعامية المفصحة ، إذا صح هذا التعبير .

حتى الأدب الفصيح نفسه اتخذ صور الأدب العامى وأشكاله ، بل تعداها إلى أسلوبه وتعبيراته .

وقد بدأ هذا المزج حقاً فى الموشح على يد ابن قزمان فى الأندلس ثم تبعه غيره من شعراء الأندلس والمغرب فى القرنين الخامس والسادس الهجريين وما بعدهما ثم شعراء مصر والشام والعراق من القرن السادس وما بعده .

ولم يقتصر الأمر على الموشح بل استعان الأدب الفصيح بالدوبيت ، وخاصة فى المشرق ، فنظموا فيه ومزجوه بالشكل التقليدى المألوف للموشح ، فنتجت أشكال جديدة للمنظوم عرضنا لها تفصيلا فى هذا العصر .

ونتيجة لهذا التمازج بين العامى والفصيح ، أصبح الأدب قريباً إلى الشعب ، ملتحماً بحياته وظروفه ، لا مرتفعاً عنه مترفعاً عن همومه وأفراحه وأحزانه وأشجانه ، أو قل إن الأدباء لم يعد لهم مجال بين الملوك والخاصة ، فنزلوا إلى الشعب يستمدونه مادة أدبهم فكانت هذه الظاهرة فى أدب المماليك ، وقد نبغ بين طبقات العوام ، وأصحاب الحرف الصغيرة كثير من الشعراء والأدباء ، أمثال الجزار ، والوراق ، والحمّامى ، والصائغ ، والخياط ، والعطار ، والكحّال .

ولم يكن الأدب كله شعراً ، بل إن الأدب المنثور كان غزيراً على تنوعه بين الكتب المؤلفة فى الموضوعات العلمية ، أو الاجتماعية ، أو الأدبية . والرسائل الديوانية والإخوانية ، وذات الموضوعات المختلفة ، والمقامات ، والقصص القصيرة الخيالية ، والواقعية ، والتمثيليات التى كتبت للعب خيال الظل .

ولأدب هذا العصر مراجع عديدة ، كثير منها لا يزال خطياً فى

مكتبات مصر وبعضها ، مصور بمعهد مخطوطات الجامعة العربية ، فمادته غزيرة متوفرة ، والبحث فيه لا يستهدف الجودة أو الرداءة ، بقدر ما يستهدف نبضات الحياة ، والفن ، وتذوق الحياة والفن ، ومدى ما ينعكس فيهما من مشاعر الناس وأحاسيسهم ، وطبائعهم ، وعاداتهم ، وتقبلهم للحياة ، أو رفضهم ، وترحيبهم بها أو نفورهم منها . وليس أقدر من الأدب على تصوير حياة الناس وأمزجتهم ، ومدى اغتباطهم أو ابتئاسهم .

وقد تنفر طباعنا اليوم أو لا ترتضى عن بعض صور الأدب فى ذاك الزمان ، ولا بعض موضوعاته ومعانيه ، ولكننا مع ذلك سنجد متعة كبيرة فى أن نعيش كما عاش أولئك القوم من أسلافنا وآبائنا وأجدادنا ، وأن نقرأ ونستمع إلى ما كانوا ينشدون ، وما كان يفرحهم ويبكيهم ويضحكهم ويشجيهم ، وأن نقارن بين ذلك كله وبين ما يفعل الشئ نفسه فى نفوسنا اليوم .

لقد أسرف القوم فى صور البديع معنوية وحسية ، وتنوعت ضروبه وهيئاته ، وكانت تلذهم تلك الصور وتطربهم ، ويحق لنا أن ننظر فيما كانوا يطربون له من تلك الصور ، وإن كنا لا نستسيغها ولكننا لا نتركها أو نهملها بحجة الضعف ، أو التعقيد أو السخف ، أو ما إلى ذلك من تلك النعوت التى كانت تطلق ، ولا تزال ، على كثير من تلك الصور البديعية فى دراساتنا الأدبية الحديثة .

كذا قد لا نرتاح لبعض موضوعات ذلك الأدب ومعانيه من مديح ذليل ، أو نزول بالشعر إلى موضوعات هينة فى دنيا الناس ، والاهتمام بأشياء ليست مما يصلح للشعر الذى شغل طوال عصور الأدب بمهام الأمور وعظيمها . كذا يمكن أن يقال إن كثرة القول فى الغزل بالغلمان والإسراف فى المجون والموضوعات الجنسية مما يصدم أذواقنا الآن ، وليس ذلك بالمبرر الكافى للإعراض عن هذا الأدب ، بل يمكن أن نستقصى أسباب هذا الاتجاه .

ومهما يكن ، فإنا لم نتخلص مع ذلك من مقتضيات الذوق المعاصر ، ومحاولة التحرر من أحكامه على العصر المملوكى وأدبه ، لكنا حاولنا أن نعايشه ما أمكن ، فكانت هذه الدراسة .

محمد زغلول سلام

القاهرة فى ٢٨ / ٣ / ١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

البيئة العامة لدولة المماليك

الجو السياسى

فى سنة ٦٤٨ هـ والقرن السابع الهجرى يقترب من نصفه الثانى انتهت فى مصردولةالأيوبيين ، وقامت دولة المماليك التى بدأت بجارية للسلطان الأيوبى الملك الصالح نجم الدين هى شجرة الدر التى صارت زوجة للسلطان الأيوبى الراحل ، ثم تولت السلطنة بعد موته ، وتزوجت بأحد أمراء المماليك وهو عز الدين أيبك .

وكان انتهاء دولة الأيوبيين نتيجة حتمية لعدة عوامل تضافرت عليها ، منها تكالب الأعداء من الخارج فى صورة صليبيين وأعوانهم من دول أوربا ، وعناصر داخلية أسرعت فى القضاء عليها ، منها تورط الأيوبيين أنفسهم فى نزاع مرير فيما بينهم ، ومنها استكثارهم من اقتناء المماليك للاعتماد عليهم فى نصرتهم . وقد أسرف فى ذلك آخر سلاطينهم الصالح نجم الدين . ومنها إهمالهم لشئون الرعية ، وسوء معاملة مماليكهم للناس ، وتدهور الأحوال الاقتصادية بزيادة نفقات الحروب والأعمال العسكرية ، ورواتب العسكر ، مما أدى إلى تدهور مالى واجتماعى . وأدى هذا بدوره أو ساعد على تفشى النكبات والجوائح كالطواعين والأوبئة التى حصدت من النفوس العدد الوفير وأنهكت ما تبقى من الناس ، والمجاعات المتتابعة والزلازل ، وثورات العربان والخارجين فى مصر وغيرها من البلدان الشامية والفراتية .

وهكذا سقطت دولة الأيوبيين فى مصر باستيلاء شجرة الدر على الملك ، ومقتل ابن زوجها السلطان تورانشاه على يد جماعة من أمراء المماليك بعد موقعة المنصورة ، وقد خطب لشجرة الدر أم خليل على المنابر ، وتمكنت

بدهائها أن تحكم فترة غير طويلة ، قامت عليها المعارضة فيها واشتدت ، وخاصة من الخلافة العباسية التى كانت تلفظ آخر أنفاسها ، ولكن بقى لها النفوذ الأدبى والدينى ، فلم يسغ الخليفة العباسى تولى امرأة شئون مصر ، وبعث إلى أمرائها برسالة شديدة يقرعهم فيها ، قائلا لهم كيف تولون عليكم امرأة ، إذا لم يكن بينكم رجال بعثنا إليكم بواحد من عندنا .

وكانت قوة المماليك قد ظهرت منذ أن استكثر منهم نجم الدين . قال ابن تغرى بردى : « والملك الصالح هذا هو الذى أنشأ المماليك الأتراك ، وأمّرهم بديار مصر . وفى هذا المعنى يقول بعضهم :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... ترك بدولته ياشر مجلوب
قد آخذ الله أيوباً بفعلته ... فالناس كلهم فى ضر أيوب[١]

وبنى نجم الدين هـذا لمماليكه الأتراك مساكن بجزيرة الروضة ، ولذلك عرفوا بالمماليك البحرية . قال المقريزى : « والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر ، وذلك أنه لما مر به ما مر ذكره فى الليلة التى زال عنه ملكه بتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه ، رعى لهم ذلك ، فلما استولى على ملك مصر أكثر من المماليك وجعلهم معظم عسكره . . . فصاروا بطانته المحيطين بدهليزه ، وسماهم البحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل[٢] » . وقال فى موضع آخر : « وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك ، وقيل ثمانمائة ، سماهم البحرية »[٣] .

وكان شراء المماليك يتم من الأمم التركية التى فرت مذعورة من أوطانها حول بحر قزوين ، وبلاد القوقاز أمام زحف التتار الذى اكتسح أمامه تلك الأصقاع بعد أن قضى على الدولة الخوارزمية وآخر ملوكها جلال الدين منكبرتى .

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٣١٩

(٢) السلوك ١/٣٣٩

(٣) المصدر نفسه ١/٣٤١

وأعتاد أولئك الملعون الفارون أن يبيعوا أبناءهم وبناتهم للنخاسين ، وكان هؤلاء يختارون أجملهم وأقواهم ، كما كانوا يختطفون كثيراً منهم فيعرضونهم فى أسواق النخاسة بالقاهرة ودمشق وغيرهما من حواضر العالم العربى والإسلامى .

وكانت هناك مصادر أخرى لشراء المماليك من بلاد أوربا وأصقاعها الشمالية ، فقد وجد بين المماليك من ينتمون إلى أصل رومى ، أو صقلبى ، كذلك وجد بينهم من كانوا من أصل تترى نتيجة الحروب ووقوع كثير من أسرى التتار فى أيدى المصريين ، أو وفود جماعات من التتار انفصلت عن أصلها وهاجرت إلى مصر بتأييد سلاطينها أمثال جماعة الأويراتية .

وكانت عادة السلطان وكبار أمراء المماليك أن يختاروا جماعات منهم لشرائهم . وجاراهم فى ذلك كبار رجال الدولة ، فكانوا يضمون الذكور للجيش أو الخدمة بالقصور ، والركوب بين أيديهم فى المواكب ، ويضمون الإناث للحريم .

ودربت أعداد كبيرة منهم على الفنون العسكرية ، والفروسية خاصة ، فبرعوا فيها وصاروا فرساناً مقاتلين من الطراز الأول ، وتكونت منهم مقاتلة الجيش المصرى وقوته الضاربة التى أبلت فى كثير من المعارك الضارية ضد الصليبيين والفرنجة والمغول ، فأحرزوا انتصارات رائعة كبيرة سجلها التاريخ لهم وشهدت بمهارتهم الفائقة فى القتال ، ولهذا لا نجد ذكراً لفتى من فتيان الأتراك فى الأدب العربى فى تلك العصور ، إلا ويقترن وصف محاسنه بذكر سلاحه كقول ابن نباتة فى غلام تركى يرمى بقوس :[1]

فديتك أيها الرامى بقوس ... ولحظ يا ضنى جسدى عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب ... وشبه الشىء منجذب إليه

وقال آخر فى غلام تركى يلبس لامة الحرب :[2]

---

(١) مطالع البدور . للغزولى ١/٢٤٨

(٢) المصدر نفسه ١/٢٥١

ما لاح فى درع يصول بسيفه والوجه منه يضئ تحت المغفر
إلا حسبت البحر مد بجدول والشمس تحت سحائب من عنبر

واستظل المماليك فى دولتهم بظل الإسلام ، واستندوا إلى القوة فى تدعيمها ، وفى الوصول إلى السلطان . وقد سوى الإسلام بين المسلمين جميعاً، سادة وعبيداً ، وساد هذا المفهوم الدولة العباسية حتى استطاعت العناصر غير العربية أن تتغلب على العنصر العربى ، واتخذت ذلك ذريعة للوثوب على السلطة والحكم ، فكان ماكان فى الدولة العباسية من تسلط الخدم الأتراك والروم على الخلفاء ، والإمساك بأزمة الأمور حتى صاروا الحكام الحقيقيين ، وصار الخلفاء والسلاطين الحقيقيون لعباً فى أيديهم يحركونها كما شاءوا .

ولما كان سندهم الشرعى هو الإسلام فقد حرصوا على التمسك به ظاهراً ، وإبراز الاهتمام بالدفاع عنه وعن مقدساته ، وبدت مظاهر هذا الاهتمام فى الرعاية للخلافة ، والاهتمام بها شكلا ، ومن ثم سعى الظاهر بيبرس رابع سلاطين المماليك لإحضار أحد أبناء خلفاء العباسيين ليقيمه خليفة فى مصر يمثل السلطة الدينية ، ويجمع شمل العالم الإسلامى العربى حول ملوك مصر الذين آلت إليهم تبعة الدفاع عن الإسلام بعد سقوط بغداد ومقتل آخر خلفائها سنة ٦٥٦ هـ على أيدى التتار بقيادة هولاكو .

ومن ثم اهتم سلاطين المماليك بالحفاظ مظهراً على أمور الدين ورعاية أوامره ونواهيه أمام الناس ، وجماعة العلماء والفقهاء ، فأظهروا التشدد فى تطبيق حدود الشرع ، ومحاربة الخارجين بصورة لا يقرها الشرع نفسه ، كما اهتموا اهتماماً بالغاً ببناء المساجد ودور الحديث والمدارس التى تدرس بها العلوم الإسلامية إلى جانب غيرها من العلوم المساعدة . وأسرفوا فى تشييدها وصرفوا عليها ببذخ وأوقفوا عليها الأوقاف الطائلة ، وتنافسوا فى ذلك ، على حساب الرعية غير مبالين بزيادة الضرائب والمكوس ، وارتكاب كثير من المظالم فى سبيل تحصيل الأموال . وأظهر مثل لذلك مدرسة الناصر حسن الأكبر . كما اهتموا بتأكيد سلطة الدين عن طريق جماعة العلماء والفقهاء

الذين ساندوهم ووالوهم بالرعاية والاحترام ، كما حرصوا على مشورتهم فى كثير من الأمور .

أما استنادهم إلى القوة فى الحفاظ على كيانهم فقد كان سياسة مرسومة يأخذ بها كل من يتولى منهم أمر السلطنة ، أو من يصبو بهمته إليها . والقوة هى أساس الحكم المملوكى ، وقانونها هو الأعلى ، فمن يملك القوة يستطيع أن يلى السلطنة حتى لو كان عبداً ، وعلى الناس بعد السمع والطاعة . قال الأفرم نائب السلطنة بدمشق مخاطباً أمراء الشام عند سقوط أحد سلاطين المماليك بالقاهرة وقيام آخر : « اعلموا أن هذا الأمر انقضى ، ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال ، وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسى مصر كان هو السلطان ، ولو كان عبداً حبشياً ، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر » .

وتولى على هذا الأساس جماعة من أجناس شتى ، منهم من هو من أصل رومى أو إفرنجى أو مغولى ، ولكن يسلكهم جميعاً سلك واحد ، هو أنهم استطاعوا يوماً أن يملكوا أسباب القوة ، وأن يدبروا فى الخفاء الاغتيال والوثوب فى الظلام على كرسى السلطنة بالقلعة ، وأن يقتلوا السلطان القائم ليقعدوا مكانه ، وكان أحدهم يأتى إلى مصر غلاماً لينضم إلى مماليك أحد السلاطين أو أحد الأمراء ، فيتلقى بعض العلم من قراءة وكتابة وتلاوة آيات من القرآن الكريم وحفظها مع حفظ بعض الأحديث النبوية ثم يدرب على حمل السلاح وفنون الفروسية والقتال ، وبعد أن يبرع فيها ويسلك فى صفوف الفرسان المقاتلة من خاصة السلطان ، أو الأمير تراوده تطلعات السلطنة والحكم ، والجلوس على كرسى القلعة فيكرس جهده لذلك ، فنهم من ينجح ، ومنهم من يفشل ، وهى مغامرة على أية حال ، كمغامرة الحرب فيها احتمالان متعادلان .

وأما الناس والشعب فى مصر والشام وغيرهما من البلاد الأخرى التى تقع تحت نفوذهم ، فكانوا مغلوبين على أمرهم ، لتوالى الإرهاق، والكبت ، والظلم ، وكل العناصر التى سلبته إمكاناته ، وحيويته ، ومبادرته إلى العمل بفعالية

فى تسيير مجرى الأحداث ، وخاصة فيما يتعلق بمصيره وتقرير أمر حكامه، فما أكثر من توالى عليه من الحكام الغرباء ، الذين حكموه رغماً واستنزفوا طاقاته ، ومع ذلك فقد استلهم ظروفه ، وتلاءم مع قدره ، وتعارن مع أولئك الغرباء ، لأن قوى أكبر وأخطر كانت تحدق به ، وكان يتذرع بأولئك الغرباء للحفاظ على نفسه وتراثه من الضياع تحت أقدام تلك القوى الغاشمة من الصليبيين والتتار ، لأن أولئك الغرباء من الأكراد والأتراك كانوا يملكون أسباب القوة والمقدرة على صد المعتدين والغزاة ، لهذا تعاون الشعب معهم ، وأدرك أولئك الغرباء حاجة الشعب إليهم للبقاء ، وتمسكه بهم للذود عن النفس والدين فازدادوا جوراً وعسفاً ، واستنزفوا دمه للتمتع بالخيرات والنعم كلها دونه ، وتركوه يشقى لينعموا ، ويزرع ليحصدوا .

وهكذا قامت دولة المماليك فى مصر وعاشت طوال تلك القرون الثلاثة ترتع وتمرع . فقد تأسست الدولة الأولى المسماة بالمماليك البحرية باستيلاء شجرة الدر أم خليل على السلطنة سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م . وانتهت بموت السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى سنة ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م . وقامت الدولة الثانية بتولى السلطان الظاهر برقوق وانتهت بآخر سلاطينهم .

وكان عصر الدولة الأولى ما يقرب من قرن ونصف ، تولى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطاناً[1] منهم من لم يتول السلطنة إلا بضعة أيام ،

ترتيب سلاطين المماليك كما يلى :

١ — شجرة الدر ٦٤٨ — ٦٤٨ هـ   ٢ — عز الدين أيبك ٦٤٨ وقتل ٦٥٥ هـ .
٣ — ابنه المنصور على (٦٥٥ — وقتل ٦٥٧ هـ)   ٤ — قطز (٦٥٧ وقتل ٦٥٨ هـ)
٥ — الظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ وتوفى ٦٧٦ هـ)   ٦ — بركة خان (٦٧٦ هـ — ٦٧٨ هـ)
٧ — سلامش بن بيبرس ٦٧٨ — ٦٧٨ هـ)   ٨ — المنصور قلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ).
٩ — الأشرف خليل (٦٨٩ وقتل ٦٩٣ هـ)   ١٠ — الناصر محمد — الأولى (٦٩٣ هـ)
١١ — العادل كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ)   ١٢ — المنصور لاجين ٦٩٦ — ٦٩٨ هـ)
ثم عاد السلطان الناصر ثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ)   ١٣ — بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) =

أو بضعة شهور ، ومنهم من طالت مدة سلطنته واستقرت سنوات طوالاً ، ومنهم من تولى الحكم صبياً ، أو طفلا لم يبلغ الحلم ، وكان يقوم بأمرهم أتابك أو نائب السلطنة ، أو كبير الأمراء ، أو قائد الجيش «أميرسلاح» .

وغلبت على دولة المماليك الأولى أسرتا بيبرس البندقدارى ، والمنصور قلاوون ، وحكمت أسرة قلاوون معظم هذه الدولة فيما عدا فترات قليلة خرج فيها الحكم من أبنائها إلى غيرهم من كبار أمراء المماليك ، وخاصة فى أول حكمها بعد وفاة مؤسسها المنصور قلاوون ، ومقتل خليفته الأشرف خليل ، فقد تولى بعده العادل كتبغا سنة ٦٩٣ ﻫ ، بعد أن تغلب على قاتل الأشرف الأمير بيدرا بحجة الدفاع عن بيت قلاوون وحقه فى السلطنة ، فاغتصبها لنفسه .

اغتصبها من ابن قلاوون الثانى الصبى محمد الناصر ونفاه إلى الكرك . ثم المنصور لاجين ، من خارج الأسرة ، الذى قتل فعاد السلطان الناصر مرة أخرى لتولى الحكم ، ولكن غلب عليه اثنان آخران من كبار أمراء المماليك هما بيبرس الجاشنكير ، والسلار نائب السلطنة . ولم يجد الناصر مناصاً من الهروب مرة أخرى إلى الكرك بحجة رغبته فى الحج .

وهكذا خرج السلطان مرة أخرى من أسرة قلاوون ليتولاه هذه المرة بيبرس الجاشنكير ، الذى لم يدم ملكه طويلا فسرعان ما تحرك السلطان الناصر مرة ثالثة ومعه أمراء الشام للعودة إلى سلطنته بالقاهرة .

وتميزت الدولة الأولى بطول مدة حكم كثير من سلاطينها مما وفر لها الاستقرار النسبى بعد أدوار من الانقلابات والفتن ، فتحققت فى سنوات حكمها

= ثم عاد الناصر للمرة الثالثة (٧١٩–٧٤١ ﻫ) ١٤– المنصور أبو بكر (٧٤١–٧٤٢ﻫ)
١٥– الأشرف كجك ٧٤٢ ١٦– الناصر أحمد ٧٤٢
١٧– الصالح عماد الدين إسماعيل (٧٤٣–٧٤٦ﻫ) ١٨– الكامل شعبان (٧٤٦–٧٤٧ ﻫ)
١٩– المظفر حاجى (٧٤٧–٧٤٨ﻫ) ٢٠– الناصر حسن – الأولى (٧٤٨ – ٧٥٢ ﻫ) والثانية (٧٥٥–٧٦٢ ﻫ)
٢١ – الصالح (٧٥٢ ﻫ)
٢٢ – المنصور (٧٦٢ ﻫ) ٢٣– الأشرف (٧٦٤ ﻫ)
٢٤ – المنصور علاء الدين (٧٧٨ ﻫ) ٢٥– الصالح حاجى (٧٨٣ ﻫ)

بعض الانتصارات العسكرية الكبرى ضد العدوين الكبيرين ، الصليبيين والتتار ، فقد هزم قطز التتار فى الوقعة الفاصلة بعين جالوت (سنة ٦٥٩ هـ) وهزمهم بيبرس مرة أخرى وخاض وراءهم الفرات سنة ٦٦٦ هـ . كما صفى سلاطينها تباعاً من قطز إلى الأشرف خليل جيوب الصليبيين الباقية فى المشرق، وكان آخرها الاستيلاء على عكا (سنة ٦٩٠هـ) .

كذلك تم كثير من الإصلاحات الداخلية ، وتمتع الناس بالهدوء سنوات ، كان يعم فيها الرخاء والسلام . ويقبل الناس على الحياة .

ومن أشهر سلاطين الدولة الأولى وأقواهم وأبعدهم أثراً فى الحياة والأدب. السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى الذى ظل حكمه اثنين وعشرين عاماً قام فى أثنائها بكثير من الحروب والحملات ضد التتار والصليبيين فى الشام والعراق وأرمينيا ، وجنوباً فى النوبة وشمال السودان .

كان من نتيجتها كسر حدة الموجات التترية ، وتصفية الجيوب الصليبية ، وتأمين الحدود الجنوبية لمصر ، واستعادة النفوذ على النوبة من أيدى مملكة النوبة المسيحية .

وقوى الظاهر بيبرس الجيش المصرى للنهوض بتلك الأعباء الضخمة ، قال ابن شاكر « وكانت العساكر فى الديار المصرية فى أيام غيره عشرة آلاف فارس فضاعفها أربعة أضعاف »[1] .

ومدح الشعراء بيبرس بشجاعته ، وانتصاراته الحربية ، ودارت فى مدائحهم ما كان يختلج فى صدور الناس من المعانى من حيث إنهم يفدون كل من يدفع عنهم غائلة التتار والصليبيين ، وكل الغزاة والمغيرين بالنفس والمال .. يقول شاعرهم :

المَلِكُ الظاهِرُ سلْطانُنا ... نفْدِيه بالأمْوالِ والأهْلِ
اقْتحمَ الماءَ ليُطفِى به ... حرارةَ القلْبِ من المُغْلِ

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٦٠ .

وقال ابن النقيب يصف وقعة الفرات (٦٥٨ هـ)[١] وملؤه الفخر ونشوة الانتصار :

ولما تراميْنا الفُراتَ بخيلنا ... شجرْناهُ منا بالقوى والقوائم
فأوقفتْ التَّيار عن جريانه ... إلى حيث عُدْنا بالغنى والغنائم

وقال محمد بن يوسف المهمندار [٢] :

لو عاينت عيناك يومَ نزالنا ... والخيل تطْفحُ فى العجاج الأكْدرِ
وسنا الأسنَّة والضّياء من الظبا ... كشفا لأعْيننا قَتامَ العثيرِ
وقد اطرخم الأمر واحتدم الوغى ... ووهى الجبان وساء ظنّ المجترى
لرأيت سدًّا من حديد سائداً ... فوقَ الفُرات وفوقه نارٌ تَرى
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزُّبى ... ومن الفوارس أبحراً فى أبحر
لما سبقْنا أسهماً طاشت لنا ... فيهم إلينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرمى منهم أعيناً ... حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هرباً ولكن ردهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر
ما كان أجرى خيْلنا فى أثرهم ... لو أنها برءوسهم لم تعثر
وجرت وجوههم على وجه الثرى ... حتى جرى منهم مجارى الأنهر
والظاهر السلطان فى آثارهم ... يروى الرءوس بكلّ عضْب أسمر
ذهب العجاج مع النجيع بصقله ... فكأنه فى غمده لم يُشهَرِ

وتوالى اهتمام الظاهر بتدعيم القوة العسكرية لدولته ، والوقوف فى وجوه الأعداء المحدقين بمصر والشام ، وإرغامهم على الفرار أو الاستسلام ، واهتم بالجانب الدينى فى عصره ، وأراد أن يدعم سلطنته القائمة على قوة السيف ، بالقوة الفكرية والدينية، ولكى يمكن لمصر من تزعم الدول الإسلامية بعد بغداد استدعى أحد الخلفاء العباسيين وولاه الخلافة بالقاهرة ، ووكل إليه كل ما يتعلق بأمور الدين من تولية القضاة ، ومبايعة السلاطين ، وتعيين خطباء المساجد وشيوخ المدارس الدينية ودور الحديث والقرآن .

(١) وقعة الفرات خاضها بيبرس بفرسانه المماليك مع التتار فهزمهم وتتبعهم شرقاً وعبر وراءهم الفرات بخيله وقتل منهم مقتلة عظيمة .
(٢) مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى ١/٢٢٧ .

كذلك اهتم بالتمسك بأوامر الدين ونواهيه ، ومراعاة مظاهره ومحاربة البدع والمفاسد وتطبيق الحدود والتشدد فيها إلى درجة الإضرار بالناس أحياناً بالخروج بها عن كل مشروع .

قال ابن الوردى فى تاريخه[١] : «كان السلطان الظاهر على قدر من الديانة ، وكان ملازماً للخمس فى أوقاتها ، وألزم حاشيته بها، وحكى أنه ما شرب خمراً قط ، ومنع كل منكر . وكان يحصل من المنكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله ، ولما حج رؤى بباب الكعبة محرماً ، يأخذ بأيدى ضعفاء الرعية ليصعدوا ، وعمل الستور الديباج للكعبة وللحجرة النبوية»

وكان للظاهر بيبرس موقف غريب من أحد شيوخ الصوفية ، له دلالته على مدى اعتقاد سلاطين المماليك فى شيوخ الدين من الصوفية خاصة ، هذا الرجل اسمه الشيخ خضر ، التقى ببيبرس قبل توليه السلطنة فبشره بها ، فلما تولاها اعتقد فيه اعتقاداً راسخاً وقربه ، وكان ينفذ له كثيراً من رغباته، واستمرأ الشيخ المرعى ، فمد نفوذه واستشرى حوله وطوله ،وارتكب أعمالا ضج منها الناس . يقول ابن شاكر[٢] : «وكان صاحب حال ونفس قوية ، وكان له حال كاهنى ، أخبر الظاهر بسلطنته قبل وقوعها ، فلهذا كان يعظمه وينزل إلى زيارته ، ويطلعه على غوامض أسراره ، ويستصحبه فى أسفاره ، حتى قال أحد الشعراء :

لما رأينا الخضر يقدم جيشه   أبداً علمنا أنه الإسكندر

وقد غضب عليه السلطان وحبسه لأمور كان يأتى بها مخالفة للدين ، ولكنه مع ذلك كان يكرمه فى سجنه .

وقصة الشيخ خضر هذا مع بيبرس تذكرنا بقصة قريبة فى هذا العصر ذاع أمرها هى قصة الراهب راسبوتين مع قيصر روسيا قبيل الثورة الشيوعية .

---

(١) تاريخ مصر لابن الوردى ٢/٢٢٥ .

(٢) فوات الوفيات ١/٢٩٩ .

وواصل الظاهر سياسة الأيوبيين فى بناء المدارس لأهل السنة ، وكان أهم ما بناه بالقاهرة مسجده ومدرسته الظاهرية سنة ٦٦٤ هـ فى بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية « وكان لها أربعة إيوانات ، وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب وسائر العلوم »[١] ولما تمت احتفل بافتتاحها احتفالا عظيماً ، وأنشد شعراء العصر فى تلك المناسبة ومن بينهم السراج الوراق ، وأبو الحسين الجزار ، وابن الخشاب . ولما فرغ الثلاثة من إنشادهم أفيضت عليهم الخلع ، وكان يوماً مشهوداً[٢] .

وأعقب بيبرس خلفاؤه من أبنائه الصغار الذين لم يعمروا فى السلطنة كثيراً ، وسرعان ما انتقلت هذه السلطنة من بيته إلى المنصور قلاوون مؤسس الأسرة القلاوونية الشهيرة فى عصر الدولةالأولى . والتى تولت أكثر زمن تلك الدولة ، وكان من أبنائها جماعة من كبار السلاطين الذين خلفوا آثاراً خالدة فى التاريخ المصرى ، والتاريخ الإسلامى والعربى عامة ، أمثال الأشرف خليل ،الناصر محمد، والناصرحسن .

وكان المنصور قلاوون من المماليك الذين اشتروا كباراً ، ولهذا لم يتقن اللغة العربية ، فكان أعجمياً فى حديثه ، لايفهم كلام الناس العربى إلا بصعوبة ، وخاصة فصيح الكلام والشعر ، ولكنه قام مع ذلك بأعمال كبيرة عسكرية وإصلاحية فى مصر والشام ، فشن غارات ناجحة على الصليبيين وصفى كثيراً من جيوبهم بساحل الشام ، ووقف صامداً أمام هجمات التتار .

وأهم ما خلفه فى دنيا الفكر والحضارة القبة المنصورية التى اتخذت مدفناً له ولبعض أبنائه ومكاناً لتعلم القرآن وتلاوته ، وسماع الحديث ، وبعض العلوم الدينية الأخرى . كما بنى المارستان المنصورى الكبير ، التى

---

(١) النجوم الزاهرة ١٢٠/٢ .

(٢) خطط المقريزى ٣٧٩/٢ .

ظلت داراً للشفاء يقصده الناس من كل الطبقات يستشفون ، فيجدون به العلاج والراحة والخدمة الطبية ، وكان من أشهر من استشفى به من أدباء العصر الشاعر الكبير ابن نباتة المصرى الذى دخله فى أخريات أيامه .

وإذا كان الأشرف خليل قد حقق انتصارات عسكرية عظيمة ، أهمها فتح عكا والاستيلاء عليها ، وبذلك قضى نهائياً على الصليبيين ، واقتلع جذورهم التى تشبثت بالأرض العربية الإسلامية قريباً من الثلاثة قرون . فإن السلطان الملك الناصر محمد يعد أكبر وأهم سلاطين أسرة قلاوون على الإطلاق ، وأطولهم عصراً ، وعهده أكثر عهودهم استقراراً وازدهاراً . فقد بلغت سنوات حكمه فى الفترات الثلاث التى تولى فيها السلطنة نصف قرن ونيفاً ، وإن كانت الفترة الأولى أكثرها اضطراباً ومؤامرات ، لصغر سنه مما أطمع فيه كبار أمراء المماليك أمثال السلار ، والجاشنكير . وقد تولى الأخير السلطنة حقبة ثم عاد الناصر محمد واستردها منه .

وفى نهاية العام التاسع من القرن الثامن (سنة ٧٠٩ هـ) استقر فى ملكه وكان قد بلغ من الشباب والحنكة مبلغاً جعلاه أهلاً للحفاظ على ملكه .

وحفلت عدة حكمه ببعض الأحداث الكبار ، منها استيلاء التتار على دمشق بعد هزيمته فى وقعة وادى الخازندار سنة ٦٩٩ هـ ، أمام غازان ، واضطر بعدها إلى الهروب هو وفرقة من جنده جنوباً فى الطريق إلى مصر. وقطعت الخطبة باسمه فى دمشق بعد استيلاء التتار ، ثم أعيدت بعد استعادتها من أيديهم .

كذلك كان للمصريين نشاط ملحوظ فى البحر المتوسط إذ تم فى عهده فتح جزيرة أرواد من بلاد الإفرنج سنة ٧٠٢ هـ .

ثم كانت وقعة شقحب سنة ٧٠٢ هـ كذلك بين الناصر والتتار ، وقد ثبت فيها مع جماعة من مماليكه ، وكان لشجاعته وثبوته أثره فى صمود المسلمين ثم كسب النصر .

ووقعت فى هذه السنة نفسها (٧٠٢ هـ) الزلزلة العظيمة بمصر والشام

والإسكندرية فى ذى الحجة ، فهدمت البيوت ، وذهب تحت الردم مالا يحصى ، وغرق من المراكب العدد العظيم ، وهدمت كثير من الجوامع والمزارات : وساد الهدوء النسبي ، واستقرت أحوال البلاد بقية عهده ، وخاصة بعد هدوء الجبهة الشرقية ، وانقطاع تهديد التتار ، ثم استقرار الهدنة والمصالحة بين ملك التتار والسلطان الناصر . كذلك استقرت الحال مع الفرنج فى البحر المتوسط وعقدت المصالحات بين ملوكهم وبينه .

وفى داخل البلاد أخمدت ثورات العربان بصعيد مصر ، وأخضع ملوك النوبة المسيحية بشمال السودان .

ومهدت هذه الفترة الطويلة من الاستقرار أمامه الطريق لكثير من الأعمال الداخلية ، وشعر الناس بالهدوء نسبياً وبالرخاء بعد فترات عصيبة من الضنك والغلاء ، والاضطراب والفوضى .

وقد أقام كثيراً من المنشآت والعمائر منها المساجد ودور الصوفية والمدارس، ومن أشهرها الخانقاه السرياقوسية الكبرى التى أتم تشييدها سنة ٧٢٥ هـ بسرياقوس شمالى القاهرة .

ووصف ابن حجر فترةالهدوء والازدهار التى سادت معظمعصرالناصر محمد فقال : « ولم ير أحد مثل سعادة ملكه ، وعدم حركة الأعادى عليه براً وبحراً مع طولالمدة ، فمنذ وقعة شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد » .

واستكثر الناصر محمد من شراء المماليك ، وبالغ فى ذلك ، وفاق غيره من سلاطين المماليك، وكان شخصاً شجاعاً مهيباً، ذا دهاء، وكان مطاعاً ، قديراً على إدارة ملكه العريض ، عارفاً بسياسة الدول ، يعظم أهل العلم والمناصب الشرعية ، لايقرر فيها إلا من يكون أهلاً لها ، ويتحرى لذلك ، ويبحث عنه ويبالغ . وكان ذا حزم وعزم ، طويل الصبر على ما يكره ، إذا حاول أمراً لا يسرع فيه ، بل يحتاط غاية الاحتياط ، وكان يتهور أحياناً

إذا ما غضب ، فقد هم بأن يقتل أحد الفقهاء ، وهو ابن مكى بسيفه فى مجلسه ، لأنه استثاره ووجه إليه كلمات أغضبته لولا شفاعة بعض الحضور من القضاة ممن يجلهم ويحترم مشورتهم ، كذلك يروى أنه ضرب ناظر الجيش فخر الدين بالحذاء .

واتهم الناصر محمد فى سلطنته بتقريب النصارى من أقباط مصر، وتمكينهم من رقاب الرعية ، وتحكيمهم فى أمورهم ، إذ اتخذ منهم الوزراء ونظار الخاص السلطانى . وثار عليه الشعب ، وخاصة أهل القاهرة وندّدوا بعض فعاله ، وحرض الفقهاء أحياناً الناس عليه .

وأبدى تشدده فى مناسبات ضد بعض الطوائف الدينية ، فأمر بأن يلبس اليهود العمائم الصفراء ، وقيل إن سببه تآمرهم عليه وخيانتهم له مع غازان قائد التتار حين استولى على دمشق ، فلم يجد من يتعاون معه سوى اليهود . .

وأبدى الناصر تشدده كذلك فى حدود الدين فى مناسبات كثيرة ، فقد تتبع المنكرات بالقاهرة وغيرها من عواصم ملكه ، وعاقب مرتكبيها فى صرامة وقوة .

وتوفى الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ وتولى السلطنة من بعده ثمانية من أولاده ، وأهم من كان منهم وأطولهم حكماً السلطان الناصر حسن ، فقد بلغت مدة حكمه فى حقبتين أحد عشر عاماً ، ولكنه كان سلطاناً ظالماً للرعية ، أكثر من المصادرات ، وجمع الأموال من الناس بحق وبغير حق ، قال عنه ابن كثير : « لما كثر طمعه وتزايد شرهه ، ساءت سيرته فى الرعية وضيق عليهم فى معايشهم وأكسابهم ، وبنى البنايات الجبارة التى لا يحتاج إلى كثير منها ، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، واشترى منه قرى كثيرة ، ومدناً ورساتيق، وشق ذلك على الناس جداً ، ولم يتجاسر أحد من القضاة ، ولا الولاة ، ولا العلماء ، ولا الصلحاء على الإنكار عليه ، ولا الهجوم عليه ، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين ، وانتقم

الله منه فلسط عليه جنده ، وقلب قلوب رعيته من الخاصة والعامة عليه ، لما قطع من أرزاقهم ومعاليمهم وجوامكهم وأخبازهم ، وأضاف ذلك جميعه إلى خاصته ، فقلّت الأمراء والأجناد والمقدمون والكتاب والموقعون ، ومس الناس الضر ، وتعدى على جوامكهم وأولادهم ، ومن يلوذ بهم ،.فعند ذلك قدر الله تعالى هلاكه على يد أحد خواصه ، وهو الأمير الكبير يلبغا الخاصكى »[1] وهكذا قتل سنة ٧٦٢ هـ .

وأهم آثاره تلك المدرسة الضخمة الرائعة بناء وهندسة ، والمعروفة الآن بمسجد السلطان حسن بحى القلعة بالقاهرة ، وتعد آية من آيات الفن المعمارى فى عصر المماليك عامة ، كذلك ظلت بعد بنائها كعبة للعلم والمعرفة ، وعروساً بين مدارس القاهرة ، بل بين مدارس السلطنة كلها .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٧٨ .

النشاط العسكرى والسياسة الخارجية

كان أهم مجالات نشاط المماليك العسكرى مجالين : الأول تصفية جيوب الصليبيين فى الشام والشرق العربى عامة ، والوقوف بصلابة ضد محاولات الممالك الأوربية لتعضيد إمارات الصليبيين ومساندتها ، أو الهجوم على مصر لإضعافها برًّا وبحراً ، ومناوأة نفوذها فى البحر المتوسط وتعقب نشاطها البحرى عسكريًّا وتجاريًّا .

والمجال الثانى : سد الطريق أمام الطوفان المغولى ، وتحطيم موجات التتار موجة إثر الأخرى ، وإنقاذ الشرق العربى والإسلام من هذا الزحف المدمر ، والخطر الرهيب الآتى من الشرق عبر دجلة والفرات .

وفى مجال تصفية جيوب الصليبيين فقد قام بيبرس وقلاوون وخليل ولاجين بحملات متتالية لتحطيم حصون الصليبيين وقلاعهم القوية والاستيلاء عليها ، ثم الاستيلاء فى النهاية على قلعتهم العاتية « عكا » فلم تقم لهم بعدها قائمة .

وبدأ بيبرس سلسلة حملاته فى السنوات الأولى من حكمه ، وخاصة إثر ما علم من تآمر الصليبيين مع التتار ضده بعد تحول بعضهم إلى المسيحية ، وتحالفهم مع ملوك الروم فى بيزنطة ضد مصر . واستولى بيبرس فى أولى حملاته ضدهم على قيسارية ، ثم قلعة أرسوس البحرية جنوبى قيسارية ، برغم دفاع فرسان الاسبتارية المستميت والذى استمر أربعين يوماً . وهاجم بعدها صفد ، فاستولى عليها ، وخلد له النصر ، ووصفه أحد المؤرخين بقوله « إسكندر زمانه ، وعماد الدين الذى حول الكنائس إلى مساجد ، ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين ، وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن » .

واستولى على أنطاكية ، وسار فى طريقه متقدماً شمالا نحو طرابلس ، وأرسل إلى بوموند أميرها رسالة يتهدده ويقول فيها : « إن رايتنا الصفراء قد

سادت بدلا من رايتكم الحمراء ، والله أكبر قد أخرست نواقيس كنائسكم » .

ولم يستول عليها عنوة ، بل اكتفى بعقد معاهدات بينه وبين صاحبها وانضم إليها ما تبقى من المدن الساحلية التى ظلت تحت نفوذهم مثل صُور وعكّا .

وداهم الأجل بيبرس قبل أن يتم آماله العسكرية ، فواصل بعده قلاوون حملاته على المدن الساحلية ، فاستولى على اللاذقية ثم على طرابلس مقر كبرى الإمارات الصليبية الباقية ، وقاعدة أميرها بوموند ، مع تشبث الصليبيين بها ودفاعهم عنها دفاعاً مستميتاً يعضدهم مسيحيو أوربا وخاصة قبرص التى دفعت إليهم بمساعدات كثيرة فى أثناء حصارها .

وواصل الأشرف خليل حملات والده قلاوون ليستولى على آخر مراكز الصليبيين « عكا » التى تم له فتحها سنة ٦٩٠هـ ١٢٩١م ، وبذلك طهر الأرض العربية الإسلامية من آخر المغيرين المغتصبين من الصليبيين ، وقد فر عدد كبير منهم بعد سقوط المدينة فى السفن التى دفعت بها الممالك الأوربية لتعاون على الحصار من البحر وعادت عكا عربية بعد أن ظلت مغتصبة أكثر من مائة عام . وعاد الأشرف خليل بعد هذا النصر المؤزر إلى القاهرة يحمل جنده الأعلام الصليبية منكسة يعلوها عار الهزيمة ، بعد أن كانت تخفق فى سماء الشرق العربى متباهية مختالة . فامتدحه الشعراء الذين لهجوا بخواطر الناس وعبروا عن أحاسيسهم بانفراج الغمة ، فقال منهم شهاب الدين محمود[1] :

الحمدُ لله ذلَّتْ دولةُ الصُّلُبِ ... وعزَّ بالتُّركِ دينُ المصْطَفى العربى

هذا الَّذى كانتْ الآمالُ لو طَلَبت ... رؤْياهُ فى النَّومِ لاستَحْيتْ من الطلبِ

ما بعدَ عكّا وقد هُدَّت قواعِدُها ... فى البَحرِ للشِّركِ فيها كفٌّ مغتصِبِ

لم يبق من بعدها للكُفْرِ مذ خربت ... فى البرِّ والبَحْرِ ما يُنجى سوى الهرب

كانت تخَيِّلُنا آمالُنا فنَرى ... أن التَّفكُّر فيها غَايةُ العَجبِ

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٣٠٥/١

أما الحروب فكم قد أنشأت فِتَناً شابَ الوليدُ بها هولاً ولم تَشِبِ
سوران ، برٌّ وبحرٌ حول ساحتِها دارا وأدناهُما أنأى من العَطَبِ
مصفَّحٌ بصفاح حولَها أكمٌ من الرماح وأبراجٌ من اليَلَبِ
مثلُ الغمائم تَهْدِى من صواعِقها بالنَّبْل أضعافَ ما تَهْدى من السُحبِ
كأنَّما كلٌّ برجٍ حَوْله فلكٌ من المَجانيق تَرْمى الأرض بالشُّهُبِ
ففاجأتَها جُنُودُ الله يقدُمُها عِقْبانُ لِله لا لِلْملك والنشبِ
كم رامهـــا ورَماها قبله ملك جم الجيوش فلم يظفر ولم يجب
لم ترض همته إلا الذى قعدت للعجز عنه ملوك العجم والعرب
ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم يدعون رب العلا سبحانه بأب
لم يلهه ملكه ، بل فى أوائله نال الذى لم تنله الناس فى الحقب
فأصبحت وهى فى بحرين مائلة ما بين مضطرم ناراً ومضطرب
جيش من الترك تَرْك الحرب عندهم عار وراحتهم ضرب من الضرب

وتؤكد هذه القصيدة جملة معان كانت تسود مجتمع العصر ، وتحكم وجدان الناس، منها أن الشعور بالضياع ، والخوف على الدين من الأعداء المتكالبين من الشرق والغرب كان مسيطراً على النفوس ، وأن الرغبة فى الذود عن الحياض كانت غاية كل نفس ، لايضن أحد بشيء فى سبيلها ، وأن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها كانوا سواء فى دعوة الجهاد وفريضة الجهاد للذود عن دين الله الذى بات مهدداً لأن الناس انصرفوا عنه ، فاستنلهم الله وسلط عليهم شرار خلقه ، وأنه ينبغى لكى يستعيد المسلمون مكانتهم أن يستعيدوا أولا رضى الله عنهم ، ويستبعدوا نقمته ، واستعادة الرضى بالتمسك بأمر الدين ، والابتعاد عن نواهيه ، واتباع هدى النبى وسنته .

وقد وجد المسلمون فى فتوة الأتراك وفروسيتهم وشجاعتهم ، سبباً إلى النصر

وسيلة لبلوغ الغاية من الجهاد . وربما كان التخلص من الصليبيين باعتبارهم مغتصبين للأرض ومهددين للحياة والدين والتراث والقومية كان على رأس هموم الإنسان العربى المسلم فى مصر والشام فى هذا العصر . لهذا نجد الشهاب محموداً فى هذه الأبيات يعتبر النصر فى عكا حلماً قد تحقق وطالما راود المسلمين ، وسعوا إليه فلم تمكنهم ظروفهم ولكنهم لم يفتروا ، بل تواصوا وحمل الرغبة والتصميم جيل بعد جيل حتى تحقق الحلم آخر الأمر .

وهكذا انتهت الحروب الصليبية ، وكتب الاستيلاء على عكا آخر سطر فى قصتها الدامية ، التى وصمت الغرب الأوربى بالبربرية والوحشية التى لم ترع وازعاً من دين أو أخلاق ، فى انتزاع أوطان الناس ، وقتلهم وتشريدهم فى أبشع مأساة شهدها تاريخ العصور الوسطى باسم الدين .

وقال جيبون ، معلقاً على فتح عكا : « وساد السكون على امتداد ذلك الساحل الذى ظل أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقعة سيوف النضال بين الأمم »[١] .

وكانت حروب المماليك متصلة مع بعض جزر وممالك ودول البحر المتوسط ، مما كانت تربطها بالشام وأوربا صلات قوية ، ولكن هذه الحروب كانت تهدأ أحياناً فيسود الهدوء والسلام وتقوم العلاقات التجارية ، فيجنى الطرفان ثمار السلام بعد توقيع معاهدات الصلح والنفع المتبادل .

وأقرب جزر البحر المتوسط صلة بالمماليك صقلية ، وكان إمبراطورها « منْفرِدْ » يحب المسلمين ، وغضب عليه من أجل ذلك بابا روما . وملك فرنسا وحارباه ، وابنه حتى عزل الابن عن عرش أبيه ، ومن بعدها صارت صقلية مصدراً للمتاعب لمصر والشام ، فقد أغار منها الإفرنج على الإسكندرية سنة ٧٦٨ وخربوها[٢] .

وكانت علاقة المماليك بقبرص وردس علاقة عداوة فى الغالب لأنهما

---

(١) وليم موير « تاريخ دولة المماليك » ص ٦٣ .

(٢) تاريخ ابن إياس ص ٢٤ – ٢٥ .

كانتا تمدان الصليبيين بالرجال والعتاد للوقوف فى وجه المسلمين بمصر والشام ، كما كانتا نقط ارتكاز وحشد وتموين لجيوش الصليبيين الزاحفة من أوربا .

وقد أرسلت قبرص سنة ٧٦٦ هـ (١٢٦٥ م) مع البندقية ورودس حملة صليبية إلى مصر حيث رسا أسطول المغيرين بالإسكندرية وضرب المدينة ، واستولى عليها لمدة ثلاثة أيام نهبوا خلالها كل خيراتها حتى سمعوا بتحرك المدد إليها من القاهرة ففروا هاربين حاملين معهم فى سفنهم كل ما استطاعوا مع خمسة آلاف أسير من أبناء الإسكندرية .

واتصل البابا بيلبغا نائب السلطنة بمصر محاولا أن يسوى معه أمر تلك الغارة ، لكنه أبى إلا الانتقام ، فأمسك برسل البابا ، فأذن البابا لقبرص بمهاجمة الساحل المصرى عند الإسكندرية مرة أخرى فهاجم أسطولها الإسكندرية وعدة ثغور مصرية أخرى على طول الساحل الشمالى ، وبعض النقط على ساحل الشام .

وبعد هذه المناوشات البحرية عقد الصلح بين الفريقين وقامت قبرص ورودس بدفع تعويضات للمماليك ، وأعادت الأسرى المصريين فى مقابل السماح للمسيحيين بزيارة كنيسة القيامة ببيت المقدس .

وعلى ذكر المعاهدات مع بلاد أوربا فقد عقد المنصور قلاوون معاهدة بينه وبين إمبراطور بيزنطة وصقلية وقشتالة تسمح بتبادل التجارة بينهم ، وتعطى تسهيلات للتجار .

وواصل المماليك هذه السياسة من بعده ، فكانت للناصر محمد علاقات ودية مع بيزنطة وبعض دول البحر المتوسط ، ومع البابا فى روما فقد أرسل البابا رسالة إلى الناصر يطلب معاملة المسيحيين نزلاء دولته بالإحسان والعدل مقابل معاملة المسلمين فى البلاد المسيحية بالمثل . فأجابه الناصر إلى طلبه .

وكانت القوة الأخرى التى أزعجت المماليك طوال الدولة الأولى هى قوة المغول الرهيبة والذين كانت جحافلهم قد بدأت زحفها من الشرق ،

واجتاحت فى طريقها كل الممالك الإسلامية بدءاً بالدولة الخوارزمية وانتهاء بالدولة العباسية فى بغداد التى سقطت فى أيديهم سنة ٦٥٦ هـ ، وتوغلوا شرقاً لاجتياح ما تبقى لولا وقوف قوة المماليك العسكرية تؤيدها القوى المعنوية الصلبة لشعب مصر والشام ، وكان أن صدمهم الجيش المصرى صدمة قوية عنيفة خلخلت كيانهم وهدمت بناءهم ، وقلبت أطماعهم ومشروعاتهم رأساً على عقب فى موقعة «عين جالوت» الفاصلة بقيادة السلطان قطز ، وفروسية بيبرس وشجاعته .

وكان لكارثة سقوط بغداد فى أيدى التتار وقع عنيف فى نفوس المسلمين ، والعالم العربى عامة ومصر والشام خاصة . قال ابن تغرى بردى : « وخربت بغداد الخراب العظيم ، وأحرقت كتب العلم التى كانت بها فى سائر العلوم والفنون التى ما كانت فى الدنيا . قيل إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر »(١) .

ويقول « ثم عمل الشعراء والعلماء قصائد فى مراثى بغداد وأهلها ، وعمل الشيخ تقى الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبى اليسر قصيدته المشهورة :

لسائلِ الدَّمع عن بغدادَ أخبارُ　　فما وقوفك والأحبابُ قد ساروا
يا زائرينَ إلى الزَّوْراءِ لاتفِدُوا　　فما بذاك الحمى والدَّارِ ديَّارُ
تاجُ الخلافة والربع الذى شرفتْ　　به المعالم قد عفَّاهُ إقْفارُ
أضحى لعطْف البِلى فى رَبْعه أثرٌ　　وللدُّموعِ على الآثار آثارُ

وفى ظل هذا الرعب الذى أوقعه المغول فى نفوس العرب والمسلمين واصلوا زحفهم غرباً على بلاد الشام ، يسبقهم جيش من الهول ، يدعم كثافة جيوشهم وعنف لقائهم .

وفى سنة ٦٥٨ هـ بعث هولاكو برسالة شديدة اللهجة إلى قطز سلطان مصر يتهدده ويدعوه إلى التسليم ، لأنه لا قبل له به وبجيوشه ، فما كان من

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٥

قطز إلا أن مزق الرسالة وقتل الرسل ، وجند جيشاً كثيفاً لملاقاة هولاكو وجنوده فى زحفهم على مصر ، والتقى الجيشان فى « عين جالوت » فهزم المغول، وتبعهم قطز حتى بيسان فنكل بالفارين منهم . قال ابن إياس : «فقتل من التتار نحو النصف ، وغنم عسكر السلطان منهم غنيمة عظيمة من خيول وسلاح وغير ذلك(١) » .

وفى طريق العودة من هذا النصر المؤزر . وقرب الصالحية بمديرية الشرقية قتل السلطان قطز على يد بيبرس وجماعة من أمراء المماليك .

وتولى بيبرس البندقدارى ، فواصل كفاحه ضد المغول ، وانتصر عليهم فى عدة معارك أشهرها معركة الفرات التى خاض فيها وراءهم وهم مدبرون مياه ذلك النهر ، وترنم بهذه المطاردة شعراء العصر وكتابه .

وتوفى هولاكو طاغية المغول سنة ٦٦٤ هـ وتولى مكانه طاغية آخر هو « أبغا » أثناء ملك الظاهر بيبرس . وثار الخلاف بين عشائر التتار ، فانفصلت منهم جماعة من الجند جاءوا إلى مصر ، يبلغ عددها ثلاثة آلاف فارس ، فاستقبلهم بيبرس ، وجعل منهم فرساناً وقادة وأمراء لجيشه واستعان بهم فى حربه مع التتار ، وعين بعضاً منهم كما يروى المؤرخون سقاة وسلحدارية وجمدارية .

وتولى السلطان قلاوون والصراع مع التتار قائم ، فقد اجتاحت جيوشهم فى عهده بلاد الشام مرة أخرى ، وفر أمامها أهل البلاد هاربين ، ووفدوا إلى مصر طلباً للأمان، وجهز قلاوون للقائهم جيشاً قوياً ،والتقى معهم فى معركة غير فاصلة ، فقد انهزموا أمامه ولكنه لم يتعقبهم ليشتت شملهم ويوقع بهم أكبر الخسائر . فعاودوا الكرة مرة أخرى فى العام التالى وأغاروا على الشام ، والتقى بهم قلاوون مرة ثانية قرب حمص ، ودارت بين الفريقين حرب ضروس ، انتصر المغول فى أولها ، ولم يحسنوا استغلال النصر ، لاهتمامهم بالنهب والسلب ، فحمل عليهم قلاوون وجنده

(١) تاريخ ابن إياس ، فى حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

حملة صادقة شتتت شملهم ، وفرقت صفهم ، وكبا جواد قائد التتار « منكوتمر » فى المعركة فجرح ثم مات غماً . وتعد هذه المعركة قرب حمص من المعارك الفاصلة فى الصراع العسكرى بين المصريين والتتار بعد معركة « عين جالوت » ، ذلك أن المغول كانوا قد تحالفوا مع الصليبيين ومسيحي أوربا للإيقاع بالمصريين ، والاستيلاء على مصر ، وكانت قاعة النضال ضد الاثنين ، وكان « أبغا » قد اعتنق المسيحية ، فكان نصر قلاوون عليه ضربة قاصمة لأطماع المغول والصليبيين معاً .

ومات « أبغا » عقب معركة حمص بقليل ، وخلفه أخوه ، فأسلم وتسمى باسم أحمد، وراسل قلاوون للاتفاق على الصلح ، لكن أرغون ابن أخيه قتله واستولى على زعامة التتار، فحول اتجاههم من جديد ناحية أوربا ، وراسل البابا يعرض عليه أن يضع تحت تصرفه جميع أرزاق دولته مقابل أن يمنحه ملك سوريا ومصر إذا تم فتحهما ، ووعد البابا كذلك بأنه إذا ساعده على هزيمة المماليك ، وفتح بيت المقدس فإنه سيعتنق المسيحية هو وقومه ،ولكن لم يتم الاتفاق بين الطرفين لانشغال البابا بمشكلات كثيرة فى أوربا حينئذ .

ومات « أرغون » فعادت العلاقات من جديد إلى التحسن بين التتار والمماليك فقد اعتنق سلاطينهم الإسلام ، واستمر الهدوء سائداً بين الجانبين حتى انتهى عهد قلاوون ، وتولى ابنه السلطان الأشرف خليل فاستعد لمواجهتهم من جديد ، ولكنه لم يلبث أن جدد عقد المهادنة وفى عهد السلطان التترى الأصل «كتبغا » وفدت إلى مصر طائفة منهم عرفوا باسم « الأويراتية » بلغ عددهم ألفين وثمانمائة ، وصلوا إلى القاهرة فأحسن كتبغا استقبالهم وأنزلهم بحى الحسينية .

ولم يكن صراع المصريين ضد المغول بعد إسلامهم بأقل من صراعهم فى عهد الوثنية أيام هولاكو ، أو بعد اعتناقهم المسيحية على عهدى « أبغا » و« أرغون » ، فقد زحف غازان سلطانهم المسلم على رأس جيش كثيف عبر الفرات سنة٦٩٨ هـ فى بداية سلطنة الناصر محمد الثانية ، وهو

حينئذ شاب صغير ، وكان جيش غازان يبلغ ثلاثة أضعاف جيش الناصر ، ووقعت معركة غير متكافئة العدد بين الفريقين قرب سلمية بجوار حمص ، وأبلى المصريون بقيادة سلطانهم الشاب بلاء حسناً ، لكنهم غلبوا على أمرهم وأحيط بهم ، وفتح الطريق بعد الهزيمة إلى دمشق واستولى غازان عليها حقبة من الزمن ، ولكنه لم يصبر على البقاء ، لمقاومة أهلها فلم يلبث أن عاد وعاد المصريون إلى دمشق ، والتأم شقا الدولة من جديد ليعاودا الكفاح ، وبعث غازان إلى السلطان الناصر رسالة يقول فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : ننهى بعد السلام إليك أن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة ، وشرفنا بدين الإسلام ، وأيدنا ، وندبنا لإقامة مناره ، وشد أزرنا ، وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره ، وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم ، وما الله بظلام للعبيد . . . إلخ »[1] ويطلب فيها عقد الهدنة بينهما ، فرد عليه الناصر برسالة مماثلة شديدة اللهجة ، غضب لها غازان ، ودبر غزو أرض الشام من جديد .

وفزع أهل الشام لمعاودة غازان تهديداته بالزحف بعد ما لاقوه على يده في العام السابق من أهوال . وقال ابن الزملكاني العالم القاضي الفقيه الدمشقي[2] :

لهفي على جلق يا سوء ما لقيت ... من كل علج له في كفره فن
بالطم والرم جاءوا لا عديد لهم ... فالجن بعضهم والحن والبن

وقال ابن قاضي شهبة المؤرخ الشافعي[3] :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة ... فما أحد منا من السبع سالم
غلاء ، وغازان ، وغزو ، وغارة ... وغدر ، وإغبان ، وغم ملازم

---

(١) أورد الرسالة ابن تغري بردي بتمامها في النجوم الزاهرة ٨/٦٩٨ .
(٢) السلوك للمقريزي ١/٨٩٤
(٣) المصدر نفسه ص ٨٩٤

وكتب للناصر النصر فى وقعة دمشق الثانية عند مرج الصفر سنة ٧٠١ هـ ، وكان لثباته مع فرسان خاصة مماليكه سبباً مباشراً لهذا النصر ، فقدا كتسحت خاصته صفوف التتار ، وأعقبهم بقية الجيش فبددوا جحافلهم ، ولم تغرب شمس اليوم ، إلا ورايات الناصر تعود مظفرة إلى أبواب دمشق ثم تدخل القاهرة ويلقاها الناس بالأفراح والتهليل . وحضر هذه الوقعة ووصفها وصف عيان اثنان من كبار مؤرخى العصر هما أبو الفداء والنويرى .

وبعد النصر كتب الناصر إلى غازان رسالة أخرى ملؤها التيه والاعتداد ، يتهدده فيها هو هذه المرة باجتياح بلاده إن لم يخلد إلى السكينة ويكف عن غاراته على الشام .

وحاول خليفة غازان أن ينتقم لكسرة المغول الثانية على أبواب دمشق ، وأراد أن يستظهر على قوة المماليك بحلفاء التتار التقليديين من فرنجة أوربا ، فراسل ملوكهم ، وكان سلطان التتار هذه المرة شيعيًّا ، وكانت أمه مسيحية فكتب إلى ملك فرنسا وملك إنجلترا رسائل ، وبعث إليهما بعوثاً فى سنوات ١٣٠٥ م ، ١٣٠٧م ، كما راسل البابا ولكنه لم يصل إلى غرضه من تلك الرسائل والبعوث ، فلم يحصل على التأييد المطلوب .

ثم ولى الخان أبو سعيد أمر التتار وكان مسلماً سنياً فتقرب إلى سلطان مصر لتأييده ضد بعض قبائل التتار التى ثارت عليه ، وكاتب الناصر فى ذلك فرحب الناصر بحلفه وتأييده ، ومده بما يطلب من العون . وظل السلام قائمًا بين مصر والتتار منذ سنة ٧٢٣ هـ . قال ابن الدوادار « وكان للتاجر مجد الدين السلامى أثر كبير فى إقناع جوبان كبير دولة المغول ، وكان مسلماً حسن الإسلام ، واستطاع هذا أن يقنع الملك أبا سعيد بالصلح[1] » .

وهكذا ساد السلام والمودة بعد الحرب والعداوة ، واعترف كل منهما براية الآخر فى الحج .

وبعد وفاة السلطان أبى سعيد طمع الناصر فى بعض بلاده ، وأراد السيادة

---

(١) تاريخ ابن الدوادار ص ٣١٣

على بغداد قاعدة الخلافة ، وكتب بذلك إلى أحد خلفاء أبي سعيد ، فضربت السكة باسم الناصر في بغداد زمناً وخطب له على منابرها ، وبعث إليها بقوة من الجيش المصري ظلت بها حتى سلطنة السلطان شعبان آخر خلفاء الناصر ، فقام الخان المغولي «أويس» بإخراج تلك القوة ، وبذلك قضى على آمال الناصر في مد سيطرة الدولة إلى حدود دجلة ، ليضم بذلك أكثر أرض الخلافة العباسية الضائعة .

وعند هذا الحد انتهت مراحل الجولة الأولى من الصراع بين التتار ودولة المماليك الأولى ، واستمر السلام قائماً طوال عهد الناصر محمد وخلفائه إلى أن هبت العاصفة من جديد ، عاتية مدمرة من الشرق بقيادة تيمورلنك في عهد السلطان برقوق في الدولة الثانية .

علاقات مصر بإفريقيا

وننتقل لنعرض علاقات مصر في عصر هذه الدولة بإفريقيا شمالا وجنوباً ، فنواجه أول ما نواجه ، ما أثارته دولة النوبة المسيحية من متاعب لمصر في أثناء انشغالها بتصفية جيوب الصليبيين في الشام وحربها مع التتار المغيرين من الشرق . وبدأ ملوك النوبة تلك المتاعب في عهد الظاهر بيبرس ، إذ انتهزوا فرصة انشغاله في الشام فأغاروا على أقاصي الصعيد . وقام الملك داود ملك النوبة بغزو إقليم أسوان فتصدى له أمير قوص ووالى الصعيد حينئذ وجرد حملة للانتقام والأخذ بالثأر سنة ٦٧٤ هـ . قال ابن كثير : « أرسل السلطان جيشاً إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتل منه خلقاً وأسر شيئاً كثيراً »(١) وهرب ملكهم داود ، فقبض عليه وأرسل إلى الظاهر بيبرس محتاطاً عليه .

وقال ابن تغرى بردى : « وفتح الله على يدى بيبرس بلاد النوبة ، وفيها من البلاد ما يلي أسوان جزيرة بلاق ، ويلي هذه البلاد بلاد التلى ، وجزيرة ميكائيل ، وفيها بلاد وجزائر وجنادل وهي أيضاً بلاد ، ولما فتحها أنعم بها على ابن عم المأخوذ منه ، ثم ناصفه عليها ، ووضع عليه عبيداً

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٧

وجوارى وهجناً وبقراً ، وعن كل بالغ من رعيته ديناراً فى كل سنة . وكانت بلاد الظاهر من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات »[١].

والتجأ ابن أخى[٢] الملك داود واسمه شيكندر ، وربما أصلها إسكندر — إلى الملك الظاهر بعد تغلب داود مرة أخرى على الملك ، فأرسل الظاهر مع شيكندر قوة لاستعادة الملك والطاعة فأسر داود ، ومات فى الأسر ، وتولى شيكندر تحت حماية مصر بشروط منها :

أن يتنازل لسلطان مصر عن شمال النوبة .

وأن يدفع البقط ومقداره أربعمائة عبد وثلاثة أفيال ، وثلاث زرافات وخمسة نمور ومائة هجين ومائة ثور ، ونصف محصول الأرض المزروعة .

وأن يطلق الأسرى المصريين الذين أسرهم داود عند إغارته على جنوب الصعيد .

وأن يستولى ملك مصر على عبيد وأموال ملك النوبة السابق وقادته الذين قتلوا فى القتال

وأن يقبل الملك الجديد قيام مندوب مصرى عن السلطان بجواره فى دنقلة عاصمة النوبة المسيحية لمراقبة جمع المال المستحق للسلطان .

ولم تستقر الأمور بعد ذلك مع ملوك النوبة ، فسرعان ما أضمر شيكندر الخيانة ، وقبض على رسل السلطان قلاوون سنة ٦٧٥ هـ ، وكان سببه ما بعث به أحد ملوك السودان إلى قلاوون يشكو من تعنت شيكندر فى جمع المال فبعث بوفد مصرى لتحقيق الأمر ، فكان أن قبض عليه .

وأرسل قلاوون حملتين بعد ذلك إلى النوبة للتأديب ، وكان ملكها آن ذاك شمامون ، واستولت الحملة الثانية سنة ٦٨٨ هـ على شمال النوبة ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٥٨ .

(٢) يرى ابن كثير أنه ابن أخى داود بينما يقول ابن تغرى بردى إنه ابن عمه .

وفَرّ شمامون إلى الصحراء[١] ، وأقر ابن أخته تحت الشروط نفسها التى قبلها شيكندر ، وسرعان ما انتقضت الأمور مرة أخرى بعودة الملك الهارب شمامون وطرد ابن أخته وقتله .

وبعد تولى السلطان الناصر محمد وصلت إلى مصر سنة ٧٠٤ هـ وفود كثيرة من إفريقيا وغيرها من بلاد الشرق والغرب كان بينها وفد صاحب دنقلة « إياى » يحمل هدية عظيمة من رقيق وهجن ، وأبقار ونمور ، وشب ، وسباذج ، وطلب عون السلطان ، فجرد معه عسكراً يتقدمهم الأمير طقصبا حاكم قوص[٢] .

وظلت الأمور على هذه الحال بين الاستقرار والانتقاض والاضطراب طوال هذه الدولة الأولى ، فكانت النوبة مصدراً للمتاعب فى جنوب مصر .

وكانت صلات المماليك بالحبشة قائمة وإن لم يعدم التجاوب بين ملوك النوبة وبينها . وذكر ابن عبد الظاهر فى سيرة قلاوون أنه فى ٦٨٩ هـ وردت رسل ملك الحبشة تطلب أن يتولى السلطان قلاوون معاملة النصارى بمصر بالحسنى ، وكانت كنيسة الحبشة تابعة روحية للكنيسة المصرية ، على أن يتولى ملك الحبشة المسلمين ببلاده بالحسنى ، وطلب أن يوفد إليه مطراناً من الكنيسة المصرية لإصلاح حال نصارى بلاده[٣] .

كذلك كانت الصلات قائمة بين ملوك غرب إفريقيا ومصر ، وتبودلت الرسل ، فحضر إلى مصر سنة ٧٢٤ هـ فى حكم الناصر محمد ، موسى ملك التكرور[٤] زائراً مع جملة من الهدايا الجليلة إلى السلطان ، وكان فى طريقه إلى الحج . قال ابن الوردى : « وفى سنة ٧٢٤ هـ قدم فى أول رجب الملك شرف الدين موسى بن أبى بكر ملك التكرور للحج وصحبته أكثر من عشرة آلاف تكرورى ، ومملكته متسعة ، قيل سعتها ثلاث سنين وتحت يده أربعة عشر

---

(١) السلوك للمقريزى ٧٥٠ — ٧٥٢
(٢) تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٥٣
(٣) تشريف الأيام والدهور فى سيرة الملك المنصور ، فى حوادث سنة ٦٨٩ هـ .
(٤) كان الملك موسى هذا من أكبر ملوك إمبراطورية مالى الإسلامية فى غرب أفريقيا .

ملكاً ، حضر بين يدى السلطان لتقبيل يده فأمر بتقبيل الأرض فامتنع فأكره على ذلك ، ولم يمكن من الجلوس ، وبعث إلى السلطان نحواً من أربعين ألف دينار ، وإلى الناس عشرة آلاف دينار»[1] .

ومن هذه الرواية عن لقاء ملك التكرور للناصر تتضح صلافة المماليك ، واعتدادهم بأنفسهم ونظرتهم إلى الملوك من حولهم نظرة استعلاء ، فهم المخولون فى وهمهم من قبل الخليفة الشرعى ، ومن ثم من قبل الله برعاية شئون الإسلام والمسلمين ، وحكم الناس والقيام على شئونهم ، فينبغى لهم الاحترام والإجلال ، هذا من ملوك المسلمين وأمرائهم ، أما من غير المسلمين فيجب أن يدينوا بالولاء والخضوع .

الحالة الداخلية

وإذا كنا قد استعرضنا مختلف مراحل النزاع وصراع القوى بين مصر والبلاد المحيطة بها ، فينبغى كى تتم صورة الحياة السياسية أن نستعرض صراع القوى داخل البلاد .

وقد اختصت دولة المماليك بأنظمة وعلاقات تختلف عن أنظمة الفاطميين والأيوبيين ، وإن احتفظوا بكثير من رسوم الخلافة العباسية ، ونظم الإدارة الإسلامية ، والفاطمية والأيوبية عامة ، كما نقلوا كثيراً من تقاليدهما .

وأهم ما يبدو فى توليهم السلطنة أساس القوة لا العدل فالقوة أساس الملك ومتى ملك أحدهم القوة استطاع أن يثب إلى الملك ويقصى السلطان القائم ، ويستطيع بعد ذلك أن يكسب الشرعية ببيعة الخليفة وموافقة أهل الحل والعقد من الأمراء وكبار رجال الدين من الفقهاء والقضاة . ويبذل السلطان فى سبيل ذلك من سيفه وماله .

ومتى تولى أحدهم السلطنة يصبح فى وسعه أن يبطش بأى إنسان فى دولته حتى لوكان نائب السلطنة ، أو أمير العسكر ، أو الخليفة أو قاضى

القضاة ، أوكان أخص الناس به وأقربهم إليه . متى اشتم رائحة خيانة ، أو خشى على ملكه من ناحيته .

وقصة الناصر مع نائبه الأمير تنكز والى الشام واضحة الدلالة ، فقد قربه إليه ورفع من قدره وتزوج من ابنته ، لكنه عاد بعد هذا كله ليبطش به ويسجنه حتى الموت ، لخشيته على نفسه من قوته ونفوذه .

وكانت وظائف الدولة الكبرى مجالاً للصراع بين من يستحق ومن لا يستحق ، ويستطيع من لا يستحق أن يتسلل إلى الوظيفة بالمال والخداع والقربى من السلطان ورجاله ، وتقديم الرشاوى السخية . فبهذه الوسيلة استطاع أن يصل علاء الدين بن الأثير إلى كتابة السر برشوة السلطان الناصر نفسه ، وأن يقصى عنها مستحقها شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، واستطاع فلاح بسيط فى عهد السلطان نفسه وهو هلال الدولة أن يصل إلى كرسى الوزارة سنة ٧٢٩ هـ .

وكانت قوة أقباط المصريين فى الدواوين ماثلة لا يستهان بها ، فقد تولى كثير منهم الوزارة ؛ أمثال شرف الدين بن صاعد الفائزى الذى وزر للسلطان أيبك ثم لابنه نور الدين على ، وتاج الدين بن حنا (توفى سنة ٧٠٧ هـ) . واتهم الناصر بمحاباته للأقباط وتقريبهم لأنهم يجمعون له المال ويحفظونه على حساب الشعب وأقواته ، فكثرت ثورات عوام القاهرة ضده وضد وزارته ورجاله من الأقباط .

والحق أن ثورات الشعب فى عصر المماليك لم تخمد سواء فى العواصم كالقاهرة ودمشق أو فى الأقاليم كالصعيد ، وبعض بوادى الشام . وكثيراً ما نقرأ عن قومة لعامة الناس من الزعر والحرافيش ، ومن لف لفهم من الفئات الدنيا ، فى المدن ، وفى الصعيد عن ثورة العربان من الكنوز وهوارة وغيرهم ، وفى الشام بنومهنا وجماعات أخرى .

واضطر المماليك كى يشددوا قبضتهم على البلاد أن يولوا نواباً أقوياء

تساندهم فرق من فرسان المماليك والعسكر ، وتوكل إليهم سلطات مطلقة إلا فى أمور قليلة كانوا يرجعون فيها إلى القاهرة . وكثر تولية النواب وعزلهم خشية من قوتهم وامتداد نفوذهم حتى قال الشاعر[1] .

هذى أمورٌ عظـامٌ   من بعضها القلبُ ذائبْ
ما حالُ قُطْرٍ يَليـهِ   فى كلِّ شهرينِ نائبْ

لاشك هى حال مضطربة ، غير مستقرة ، وهى على حساب الرعية ومصالحهم فهم يصلون نارها ، كل يوم نائب جديد وسياسة جديدة ، وأهواء جديدة ، وأطماع وأعوان .

ومن أشهر ثورات الأعراب ما قام فى سنة ٦٨٠ هـ من هياج وقتال بين عرب جهينة ورفاعة فى صحراء عيذاب فى جنوب مصر وشرق السودان ، وقتل فيها جماعة ، وكان صاحب سواكن مسيطراً على تلك الجهات فكتب إليه السلطان أن يوفق بين الفريقين[2] .

وفى سنة ٧٠١ هـ اضطرب الصعيد بثورات العربان . قال المقريزى : « وفيها كثر فساد العربان بالوجه القبلى ، وتعدى شرهم فى قطع الطريق إلى أن فرضوا على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط فرائض جبوها ، واستخفوا بالولاة ، ومنعوا الخراج وتسموا بأسماء الأمراء ، وجعلوا لهم كبيرين أحدهما سموه بيبرس ، والآخر سلار ، ولبسوا الأسلحة ، وأخرجوا أهل السجون بأيديهم »[3] .

وقال ابن تغرى بردى : « وكان السلطان قد أمر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلى لكثرة الفساد من العربان »[4] ، « ولأنهم تسموا بأسماء الأمراء ولبسوا الأسلحة ، وأخرجوا أهل السجون بأيديهم ، فأحضر السلطان الأمراء

---

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٣٤٧

(٢) السلوك ١/٧٠٠

(٣) السلوك ١/٩٢٠

(٤) النجوم الزاهرة ٨/١٥٠

والقضاة والفقهاء واستفتاهم فى قتالهم ، فأفتوا بجواز ذلك »[١] .

وعاد عربان الصعيد للثورة مرة أخرى سنة ٧٥٤ هـ بقيادة الأحدب العركى شيخ قبيلة عرك ، وقد انتصر عليهم المماليك بقيادة السلطان الصالح ابن ناصر[٢] .

وفى الشام ضيق نائبها سنة ٧١١ هـ على الناس بدمشق وقرر على الأملاك أموالا تؤخذ كل شهر ، واجتمع القضاة والخطيب والعامة وحملوا المصاحف ووقفوا بسوق الخيل فلما رآهم قال لهم : انقضى الشغل فامتنعوا ، فأشار عليهم الحاجب بعصا معه ففروا ، فهرول الذى يحمل المصحف فسقط منه فرجموا الحاجب . وقد انتقم النائب من القضاة ، فجاء بالقاضى ابن صصرى وبالخطيب ، وأخرق بهم[٣] .

وفى القاهرة تعددت الثورات من شعبها على ظلم المماليك ، ومنها ثورته سنة ٧١٠ هـ حين أراد أحد الأمراء وهو الأتابك استدمر الناصرى القبض على السلطان ، فتعصب له جماعة من الأمراء فطلعوا إلى القلعة ، ونزل السلطان إلى الإصطبل ، وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكوسات حربياً ، وطلع إليه غالب العسكر ، فأصبح تحته فى الرميلة الجم الغفير من الزعر والعوام ، وبأيديهم المقاليع والحجارة ، وكل هذا لفض المماليك الذين التفوا على الأتابكى استدمر ، وكانوا مماليك يلبغا . وقد صاروا على الناس ، وصاروا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفون قماش الناس من الأسواق ، فتغيرت منهم القلوب ، وأبغضهم الناس قاطبة ، فلما ركب الأتابك استدمر ومماليك يلبغا ترجهوا من وراء القلعة ، فلما زحفوا وأقبلوا لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع ، فألقى

---

(١) تاريخ ابن إياس ص ١٠٠

(٢) الدرر الكامنة ٢٣٦/٣

(٣) تاريخ ابن إياس ص ٢٢٣

الله تعالى فى قلوب المماليك ومن كان معهم من الأمراء الرعب فانكسر مماليك يلبغا أبخس كسرة ، وهرب الأتابك استدمر »[١] .

وفى سنة ٧١١ ثار الشعب بالقاهرة على الوالى ، وعلى السلطان عندما أمر مماليكه بإخضاع الناس ، فأغلق التجار دكاكينهم ، وأحاط العوام بالقلعة ، ولم يلبث السلطان أن تراجع ، ونزل على حكم الشعب ونادى بالأمان ، والاطمئنان . وعزل والى القاهرة الذى غضب عليه الناس ، وولى آخر بدلا منه[٢] .

(١) تاريخ ابن إياس ص ٢٢٣

(٢) تاريخ ابن إياس ص ٢٢٦

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية والاقتصادية

يقسم المقريزى المجتمع فى عصر المماليك سبع طبقات فيقول : « اعلم — حرسك الله بعينه التى لا تنام — أن الناس بإقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام : القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز . ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، والقسم الرابع أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء ، وأصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »[1] .

وأهل الدولة الذين وضعهم المقريزى فى رأس الطبقات الاجتماعية السبع هم سلاطين المماليك والأمراء وأتباعهم من جند المماليك ، والوزراء والكتاب وأرباب السلطة . ويبدو أنه يضم إليهم كذلك القضاة ، بينما جعل الفقهاء وطلاب العلم فى القسم الخامس بعد أهل الفلح وربما بدا ذلك غريباً ؛ لكنه ليس مستغرباً فى دولة يقوم نظامها على العسكرية ، والإعداد للقتال من الاهتمام بالفروسية ، والقتال بالسيف والرمح والنشاب وغيرها من آلات القتال ، وتقديم ذلك على القلم والكتاب .

وفاز أبناء الطبقة الأولى بكل شيء ، وشاركهم التجار وأثرياء الناس، ولم يدعوا لغيرهم من سائر الناس سوى ما يتصدقون به عليهم أو ما يكسبونه

---

(١) إغاثة الأمة ص ٧٢

من عرق جبينهم . وتظهر فى هذا المجتمع سمات الإقطاع العسكرى بأجلى مظاهره ، فالحق كل الحق فى خيرات البلاد وأموالها للعسكر من المماليك ، وليس لأحد سواهم حق فى شىء إلا ما يتفضلون به عليه على سبيل الإحسان والبر .

واحتفظ المماليك بطرائفهم ودرجاتهم على امتيازهم ، وترفعهم ، فهم أصحاب السيف والسلطة والثروة .

وكانوا أجناساً أكثرهم من الترك ، وفيهم من الجراكسة والأكراد ، والتتار ؛ والروم اليونان والفرنجة من أبناء أوربا .

وكان السلطان منهم فلم يل السلطنة ولم يسمح لأحد غيرهم بتوليها طوال عهد حكمهم بل لم يسمح لأحد من المصريين بتولى نيابة السلطنة أو قيادة الجيش أو الإمارة . وذكر ابن تغرى بردى فى النجوم[١] أن السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أراد أن يستخدم المصريين ورقاهم أمراء ومقدمين بدلا من المماليك وروى قوله : « إن هؤلاء مأمونو العاقبة ، وهم فى طى علمى ، وحيث وجهتهم إليه اتجهوا ؛ ومتى أحببت عزلهم أمكننى ذلك بسهولة ؛ وفيهم أيضاً رفق بالرعية ، ومعرفة بالأحكام ، حتى إنه كان منهم فى أيامه عدة كثيرة منهم أمراء مقدمون » .

ولكن هذا لم يدم ، فسرعان ما ثار خاصكية السلطان عليه وقتلوه ، ولم يسمحوا بأن يتولى المصريون بعد ذلك مناصب الجيش الرئيسية .

ودرج المؤرخون على تقسيم المماليك طبقتين : بحرية وبرجية ، ينسب البحرية وهم مماليك الدولة الأولى إلى سكنى جزيرة الروضة فى النيل ، وكانوا من مماليك الصالح نجم الدين الأيوبى ، والبرجية إلى سكنى القلعة بجبل المقطم ، وينسب أوائلهم إلى قلاوون وأبنائه وأحفاده .

قال ابن إياس فى اقتناء الصالح أيوب للمماليك والاستكثار منهم : « ولما

---

(١) النجوم الزاهرة ١٠/٣١٠

أتم أمره فى السلطنة وأطاعه الجند أخذ فى أسباب تدبير ملكه ، واستكثر من مشترى المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس ، وينهبون البضائع من الدكاكين ، فضج منهم الناس . وفى ذلك قال بعض الشعراء :

الصالحُ المرتضى أيوبُ أكثر من ... ترك بدولته ياشر مجلوب
قد آخذ الله أيوباً بفعلته ... فالناس قد أصبحوا فى ضرّ أيّوبِ

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة فى الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية ، وتجرى عليهم بها الرواتب والجوامك» (١)

وجرى الأمر من بعد على أن كل سلطان من المماليك يلى الحكم كان يستكثر بهم فيشترى العديد منهم ، وقد يدفع فى بعضهم أثماناً باهظة ، ويقال إنه بلغ ثمن من اشتراهم السلطان الناصر محمد من المماليك من سنة ٧٣٢ ﻫ إلى سنة ٧٣٧ ﻫ أى فى مدى خمس سنوات أربعة آلاف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار (٢) .

ولم يقتصر شراء المماليك على غرض عسكرى لتكوين فرق الجيش وفرسانه ، أو الحرس الخاص — الخاصكية — بل كان شراؤهم كذلك لغرض المتعة والخدمة ، وخاصة من صغارهم ، وكان المفضلون لهذا الترك والخطا والقفجاق .

وكان سلاطين المماليك يحرمون على عامة الناس التشبه بهم فى شراء المماليك ، ولهذا حرم السلطان الناصر سنة ٧٢٩ ﻫ على المماليك بيع مماليكهم وفتيانهم الأتراك لكاتب أو عامى من الشعب ، وأمر من وجد عنده منهم مملوك فليبعه . قال المقريزى : « ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً طولع به السلطان ، فباع الناس مماليكهم وأخفوا بعضهم » (٣) .

---

(١) تاريخ ابن إياس ٢/٨٣
(٢) الدرر الكامنة ٢/٤٣٠
(٣) السلوك ٢/٣١٣

وانضم إلى مماليك الشراء أسرى الحروب ، وكانت كثرة هؤلاء من التتار والصليبيين والأرمن والفرنجة وسكان جزر البحر المتوسط .

وكان هؤلاء كذلك يدربون على فنون القتال، ويرقون فى مناصب الجيش فيبلغون مراتب الأمراء والقادة ، ووصل بعضهم إلى رتبة مقدمى العسكر ونواب السلطان أمثال سيف الدين قبجق ، وسيف الدين سالار(١) ، ومنهم من وصل للسلطنة أمثال كتبغا التترى الأصل ، ولاجين الرومى الأصل .

وأكثر السلطان المنصور قلاوون من شراء المماليك من الجراكسة ، وأسكنهم القلعة ؛ وما زال عددهم يتزايد حتى صاروا ينافسون المماليك البحرية الذين كانت فيهم السلطة منذ أيام الناصر حسن محمد بن قلاوون ، وكان الناصر حسن يثير فيهم هذا التنافس فيقرب فئة ويستبعد أخرى ، كذا كان يراوح بين أجناسهم فيميل حيناً إلى التتر منهم ، ويعدل فيميل إلى الجركس(٢) .

ومهما انقسم المماليك إلى شيع وأحزاب بانقسام زعمائهم ، وانقسام ولائهم ، فإنهم كانوا يشعرون جميعاً بأن رابطة الأرستقراطية الحاكمة تربطهم جميعاً بعضهم ببعض ، وتجعلهم كلا قائماً بذاته منفصلاً عما عداه ، ما عرف هؤلاء المماليك الحياة العائلية الصحيحة ، ولذا كانت علاقاتهم العائلية فى المرتبة الثانية بعد الولاء لأسيادهم وأساتذتهم من الأمراء ، فإذا مات المملوك ترك لسيده جميع ممتلكاته : ومنها نساؤه ومماليكه . وكان طبيعياً أن تختلف درجات أولئك المماليك باختلاف شجاعتهم وولائهم ، وكان أرقى ما يصلون إليه عضوية الحرس السلطانى (الخاصكية) ؛ وكان هؤلاء أولى حظوة لدى السلطان ، وكثيراً ما يرشح منهم للوظائف الكبرى ، أو للسلطنة نفسها(٣) .

وكان لباس المماليك مختلفاً عن عامة الشعب ، هو زى الجند لكنه

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٤
(٢) المصدر نفسه ٢/٣٤٧
(٣) تشريف الأيام والدهور ، المقدمة لمراد كامل ص ٣٧

يزيد عليه فى الزركشة والفخامة ، وبهذا كانوا يتميزون عن جند الحلقة من عامة الناس .

واحتفظ سلاطين المماليك بالسلطة المطلقة ، ولا معقب لآرائهم وأحكامهم ، وإن شاوروا أحياناً فى بعض الأمور جماعة الفقهاء والعلماء إلا أنهم احتفظوا لأنفسهم بسلطة التصرف حتى خالفوا رأى مجلس العلماء وأهل الرأى .

وعاش المماليك على اختلاف طبقاتهم عيش النعيم والرفاهية ، فى قصور تجمع كل أسباب الترف يزخرفون سقوفها وحيطانها بالذهب[1] ويهتمون بنظامها وحسن إدارتها فيولون من يشرف على ذلك من الطواشية ، يرأسهم من يسمى بأمير طبلخاناه ؛ ويدعى كذلك زمام الآدر الشريفة .

وتضم هذه الدور أماكن للأعمال الرسمية ، واجتماع السلطان بأهل الدولة ورجال السلطنة . وتخصص لهذه الاجتماعات والمجالس قاعة فسيحة فى الدار السلطانية بالقلعة يتصدرها كرسى السلطان ، وعن يمينه أهل الميمنة ، وعن يساره أهل الميسرة . ويجلس على رأس الميمنة ، وأول من يلى السلطان عن اليمين كبير المماليك ، وغالباً ما يكون من رجال السيف ، وهو نائب السلطان ، وعلى رأس أهل الميسرة قاضى القضاة ورجال الدولة من الوزراء والكتاب وأهل القلم .

وتضم الدور السلطانية منازل الحرم ، وبها زوجات السلطان ، وسراياه ، وقيناته وحظاياه ، وبها مجالسه الخاصة التى لا يحضرها إلا هو وحريمه وخاصة خاصته ، وتقدم حريم السلطان ، وتقوم عليهن قهرمانة لها سلطات كثيرة وكبيرة ، وقد اشتهرت من بينهن فى عهد السلطان الناصر السيدة « حدق »[2] .

وكان للسلطان زوجات من المماليك من بنات الأمراء ونواب السلاطين ،

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم للسبكى ص ٦٩

(٢) الدرر الكامنة ٢ /٧ وكان الناصر جعل لها أمور نسائه ، فتحكمت فى داره تحكماً عظيماً ، حتى صارت لا يقال لها إلا « الست حدق » .

أو من الرقيق ، وكان بعض السلاطين يتزوج من التتريات السبايا أو من بنات الملوك، فقد تزوج السلطان الناصر حسن بنت أخى أزبك ملك التتار [1] .

وكان بعض السلاطين يسرفون فى ميلهم للنساء كالسلطان المظفر حاجى ، الذى أقبل على اللهو ، وشغف بالنساء حتى دفع فى حظيته اتفاق مائة ألف دينار [2] .

« وكان الملك المنصور محمد يدخل بين نساء الأمراء ويمازحهن ، وأنه كان يعمل مكاريا للجوارى ، ويركبهن ، ويجرى هو وراء الحمار بالحوش السلطانى ، وأنه كان يأخذ زمبيلا به كعك ، ويدخل بين النساء ويبيع الكعك عليهن على سبيل المماجنة ، وأنه يفسق فى حريم الناس » [3] .

ويقول ابن تغرى بردى إنه كانت للسلطان المنصور محمد جوقة كاملة من الجوارى ، زيادة على عشر جوار من المغانى ، وقال : « وكانت العادة على تلك الأيام أن كل سلطان أو ملك يكون له جوقة من المغانى عنده فى داره » [4] .

وكان السلاطين يتخذون الغلمان الصباح من المماليك للخدمة والمتعة ، ويجعلونهم جمدارية — أى سقاة — يقول السبكى : « وأكثر ما يكون الجمدارية صبياناً مرداً ملاحاً تتعاناهم الملوك وكذا الأمراء ، ويكونون بالنوبة مع المخدوم يلازمونه حتى وقت نومه ، وقد تناهت الرغبة فيهم ، لاستيلاء شهوة المرد الملاح على قلوب أكثر أهل الدنيا . وصارت الجمدارية تنوع فى الملابس المهيجة للشهوات ، ويتزينون فيربون فى ذلك على النساء ويفتنون الناس بجمالهم » [5] .

---

(١) الدوادارى ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

(٢) البدر الطالع للشوكانى ١/١٨٧

(٣) النجوم الزاهرة ١١/٧

(٤) النجوم الزاهرة ١١/٨

(٥) معيد النعم ٥١

وربما دفع السلطان فى الغلام من الجمدارية هؤلاء متى ما حلا فى عينه خمسين ألف درهم كما دفع الناصر فى ملكتمر الساقى[١] الذى أحبه حباً شديداً .

وتنعم المماليك باللباس ، وفاخر الثياب ، وناعم الرياش من الحرير والديباج الموشى بالذهب ، وكان السلطان يرتدى فى مواكبه الرسمية واستقبالاته قباء أحمر . ويركب فى الموكب فرساً أصيلة مؤدبة معلمة على المشى على القوس لا تحيد عنه . ويبدو السلطان فى موكبه حسن الصورة ، مهيب الطلعة عليه بهاء المملكة والرياسة ، والخز فوق رأسه يحمله بعض الأمراء والأكابر[٢] . يقول ابن كثير يصف موكب أحد السلاطين : « دخل قلعة دمشق وعليه من أنواع الملابس قباز بخارى ، والقبة الطير يحملها على رأسه الأمير سيف الدين تومابتمر الذى كان نائب طرابلس ، والأمراء مشاة بين يديه ، والبسط تحت قدمى فرسه ، والبشائر تضرب خلفه »[٣] .

وتفننوا فى قضاء أوقات اللهو ، وأتقنوا ضروب الملاهى والملاعب ، كانوا يلعبون بالحمام ، ومنافرة الديوك ، ومعالجة الحجارة ، وركوب الحمير الفره فى القلعة ومناطحة الكباش[٤] ، ويرمون القبق ، ويصيدون بالبندق ، يضربون به الطير وأنواع الوحش بالبرية ، وكانت لهم مواكب للصيد يخرجون فيها لصيد الوحش والطير والغزلان ، يرتادون أماكن فى مصر كبرية البحيرة وسرياقوس ، وغيرهما من الأماكن التى كان يكثر فيها ما يطلبون من الصيد فى أزمانهم .

وكان يحلو لبعضهم أن يحضروا « الأوباش » يلعبون بالمصارعة بين أيديهم[٥]

(١) الدرر الكامنة ٤/٣٥٨

(٢) تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) ١٤/٢٤٤

(٣) تاريخ ابن كثير ١٤/٢٨٧ .

(٤) السلوك ١/٤٠٦

(٥) البدر الطالع ١/١٨٧ والدرر الكامنة ٢/٤

وكان لبعض السلاطين جوقات من الكلابزية (كلاب الصيد والمدربين) بلغت أحياناً خمسين جوقة[١] .

وكان الإسراف والبذخ طابع حياة المماليك وعيشتهم فى المناسبات والولائم وقد يبلغ بهم البذخ حد السفه حتى إن ابن حجر يقول : « إن المظفر حاجى أنفق فى عصبة حظيته اتفاق التى على رأسها مائة ألف دينار ، وبلغت النفقة على عمل حظير للحمام سبعين ألف درهم »[٢] .

ومما عرف من إسرافهم فى أفراحهم كثير عديد . منها ما أنفق فى زفاف ابنه السلطان الناصر محمد فقد نُصب قماشٌ عظيم غنت فيه ثمانى جوق من القاهرة وعشرون جوقة من جوارى السلطان والأمراء ، وخص كل جوقة من جوق القاهرة خمسمائة دينار ، ومائة وخمسين تفصيلة حرير ، ولم يحصر ما حصل لجوارى السلطان والأمراء لكثرته[٣] .

وغريب مافى أمر النفقات والأموال التى يحصلها المماليك أن السلاطين على ما كان يخصص لهم من الإقطاع والمرتبات ، وفوق ما كانوا يحصلون عليه من المصادرات والأسلاب ، وفىء الحروب وغيرها ، كانوا يقبلون الرشاوى والهدايا من الناس ، وخاصة ممن كان يطمح فى ولاية أو كتابة .

ومما يذكر من هذا أن علاء الدين بن الأثير كاتب السر للسلطان الناصر حاول الوصول إلى وظيفة كتابة السر برشوة السلطان الناصر ، فظل يلاحقه بالهدايا من الحلوى والذهب ليقيمه ويعزل كاتبه شرف الدين بن فضل الله العمرى . قال ابن حجر : « فبعث إليه السلطان يقول له : يا علاء الدين نحن ما نصرف شرف الدين بن فضل الله ، وإن صرفناه ما نولى إلا علاء الدين ابن الأثير فوفر عليك ذهبك ينفعك »[٤] . واستطاع مع هذا علاء الدين أن

---

(١) الدرر الكامنة ٣٦١/٤

(٢) المصدر نفسه ٤/٢

(٣) السلوك – القسم الأول ص ٢٤٩

(٤) الدرر الكامنة ٩٧/٣

يتحايل لنقل ابن فضل الله إلى دمشق ويتولى هو منصبه بالقاهرة .

وشاعت الرشاوى واعترف بها حتى إن ابن تغرى بردى يقول : « كان فى دولة الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ديوان يعرف بديوان البذل ، أعنى ديوان البراطيل ؛ وشاع ذلك فى الأقطار ، وصار من له حاجة يأتى إلى صاحب الديوان المذكور ويبذل فيما يرومه من الوظائف »(١) .

وحال أمراء المماليك كحال السلاطين فى الثراء ووفور المنعة ، فلكل أمير إقطاع كبير من الأرض الزراعية ، ويملك العقار والدكاكين والأحكار التى تدر عليه المال الوفير . قال المقريزى : « والغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه ، وأرباب السيوف ، الذين تزايدت فى اللذات رغبتهم ، وعظمت فى احتجار أسباب الرفه نهمتهم »(٢) . وبلغ بعضهم من الثراء حداً لا يصدق ولا يتصور ، مثل الأمير سلاّر (توفى سنة ٧١٠) فقد اشتهر أمر ثرائه ، وتناقلت الأحاديث والكتب أنباءه . « وقيل إنه كان يحمل إليه فى كل يوم ألف دينار ، وقيل إنه دخل شونته فى عام واحد ستمائة ألف أردب ، ووجد فى خزائنه بعد حبسه مالا يحصى من المال والجوهر وفاخر الرياش »(٣) .

وقال ابن حجر : « اشتهر بين العوام أن دخله فى كل يوم مائة ألف درهم ، ويقال إن دخل شونته فى سنة خدمته ستمائة ألف أردب »(٤) .

وعدد ابن إياس وغيره من المؤرخين ثروته التى صودرت بعد موته ، فكانت ثروة هائلة وأموالا طائلة ما بين الذهب العين من الدنانير والجواهر والحلى ، ودراهم الفضة ، والأثاث والأدوات من الذهب الخالص والفضة ، والجوارى والغلمان والدور والقصور ، وما إلى ذلك .

وكذلك كان قوصون الناصرى الساقى ، يروى ابن حجر أنه كان خيراً

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٦٢/١١

(٢) إغاثة الأمة ٤٦

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٣٧٢/١ - ٣٧٣

(٤) الدرر الكامنة ١٨١/٢

يعطى الألف أردب والعشرة آلاف قصة . قال : ولما نهبت داره أخذ منها ما يجاوز الوصف حتى إن الذهب المختوم كان أربعمائة ألف دينار ، وأما الزركش والحوائص الذهب ، والأوانى الذهبية والفضية فقيمة ذلك مائة ألف دينار ، ومنها نوبة خام حرير أطلس إلى غير ذلك »[١]

ومن أثريائهم يلبغا بن عبد الله الخاصكى النائب فى ملك الأشرف شعبان قال ابن حجر : « استكثر من المماليك الجلبان ، وبلغ فى الإحسان إليهم والإكرام حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ، ويركب معه منهم نحو ألف نفس ، إذا وقعت الشمس عليهم تكاد من شدة لمعانها تخطف البصر ، وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف . ويقال إنه كانت تحمل إلى خزائنه كل يوم ألف دينار »[٢] .

وكان المملوك شيخو يملك إقطاعاً وأملاكاً يدخل إليه منه ومن مستأجراته فى كل يوم مائة ألف درهم . قال العماد : « ولم يسمع بمثل ذلك فى الدولة التركية »[٣] .

وفاق أولئك جميعاً الأمير تنكز نائب دمشق فى عهد السلطان الناصر محمد فقد جمع ثروة طائلة ، وكان له من النعمة والسلطان ما قارب السلطان نفسه ، بل ربما فاقه وزاد عليه فى خاصة أملاكه وإقطاعه . ولقد غار السلطان منه لذلك الثراء والجاه ، فكانت غيرته من أسباب مصادرته .

وأغرت تلك الأموال الطائلة المماليك بالترف والتفنن فى مظاهر النعمة فى كل مظهر من مظاهر حياتهم ، فقصورهم كانت تحكى قصور السلاطين ، وكانت تشتهر باسم الدور أو البيوت أو القصور ، وكانت منتشرة فى أحياء القاهرة ودمشق وحلب وغيرها من مدن الشام ومصر الكبرى ، وكان

(١) الدرر الكامنة ٣/٢٢١

(٢) الدرر الكامنة ٤/٤٣٨

(٣) شذرات الذهب ٦/١٨٤

كل أمير يتخذ لوناً بعينه لطلاء داره وملحقاتها من مطابخ وشون ومراكب، وما إليها كما يتخذ رمزًا أو إشارة تسمى « الرنك » ينقش على داره وفراشه ولباسه وسلاحه وأدوات منزله من مشكاوات وأوان خزفية وغيرها . وقد يكون هذا الرنك أسداً أو دواة أو قلماً أوكأساً ، ويشير إلى صناعته أو رتبته .

واعتادوا الإنفاق على حفلاتهم ومآدبهم ، يبذلون الأموال الطائلة ، ويتباهون . ومنه ما يقال إن راتب سماط الأمير سيف الدين بشتك الناصرى بلغ خمسين رأساً من الغنم كل يوم . وكان لباسهم مظهراً للثراء والنعمة والبذخ المسرف، فكانت تحلى ملابسهم بالذهب والجوهر حتى أخفافهم وأحزمتهم وأغطية الرءوس . وبلغ منهم الترف حداً أن عينوا للخدمة من يقال له « البشمقدار » خصص لحمل نعال الأمير . ويقول السبكى : « وهو من أقبح البدع ،لأنه موضوع لحمل نعال الأمير ، وذلك من الرعونة والحمق »[١] .

وكانت مراكبهم كذلك ، يسخرون لها الخيول الفارهة ، ولا يكتفون بما يركبون منها ، بل كانت الجنائب تقاد بين أيديهم مسروجة غير مركوبة[٢] . ويبالغون فى شراء الخيل ، ويتحرون الكريم منها ، حتى إنهم كانوا يشترون الفرس — على قول السبكى — بمائة ألف درهم ، والمملوك بخمسين ألفاً ! ![٣] . وكان بكتمر الساقى يقتنى ستمائة رأس من الخيل العتاق ، وكان فى اصطبله مائة سطل لمائة سايس ، كل سايس على ستة رؤوس خيل[٤] .

واستخدمت الخيول للبريد وجلب ما يلذ لهم من ضروب المتع والملاذ ، كالجوارى والغلمان . يقول السبكى : « وكانت أئمة العدل لا تبرد البريد إلا لمهم من مهمات المسلمين . لمثله تساق الخيول وتزعج النفوس ، والآن أكثر ما تهلك خيول البريد وتساق للأغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم ٥٢ — ٥٣
(٢) المصدر نفسه ٧٣ (٣) معيد النعم ٧٣
(٤) شذرات الذهب ٦/١٠٥

الجوارى والأمتعة . وإذا ركب فقيه فرس بريد أنكر عليه ذلك ، وقيل قد أخطأ السلطان أو نائبه في إركابه ، فإن البريد لا يساق إلا لمهمات السلطنة ، كأنهم يعنون بمهمات السلطنة ما اعتادوا به من شراء مملوك مليح أو استدعاء مغن حسن الصوت ؛ أو خراب بيت شخص ! »(١).

وكان المماليك فى حياتهم الخاصة يطلقون لنزواتهم وشهواتهم العنان ، فيقتنون لملاذهم الجوارى الملاح والغلمان الصباح ، والمغنيات والقينات من كل لون وجنس . يقول ابن تغرى بردى : « إن الأشرف وجد عند مسعود بن مودود فى حصن كيفا خمسمائة بنت من بنات الناس للفراش »(٢) ويقول السبكى « إن واحداً من أمراء المماليك خرج مرة إلى الصيد فافتض هو ومماليكه من بنات أهل البر ما يزيد على سبعين بنتاً حراماً »(٣) . فقد كان الفسق ببنات الناس ديدن بعضهم ، وكأن الناس وما يملكون مال مباح لهم يفعلون بهم ما يشاءون . وقد أورد المقريزى ما يشبه قول السبكى ، وهو أن السلطان بيبرس نزل القلعة متنكراً بالليل وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض الأمراء المقدمين وقد أمسك بامرأة وعراها من سراويلها بيده ، ولم يجسر أحد أن ينكر عليه(٤). ويذكر ابن الدوادارى أن أخا أحد ولاة القاهرة سنة ٧٣٠ هـ وكان اسمه عمر المجنون : « تسلط على حريم المسلمين يأخذهن بيده من بيوتهن اغتصاباً »(٥) .

وكانوا يميلون كذلك إلى الغلمان الصباح ، وفضل كثير منهم غلمان الأويراتية من التتار لجمالهم ، فجعلوهم سقاة وجمدارية . وشاع بينهم الشذوذ والفسق بالغلمان حتى إن السبكى نعى عليهم ذلك فقال : « حرام على جمدار

(١) معيد النعم ٤٧
(٢) النجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٠ .
(٣) معيد النعم ٧٢ .
(٤) السلوك ٥٤٠ .
(٥) صفحات لم تنشر بتحقيق محمد مصطفى ص ٣٥٥ .

يؤمن بالله واليوم والآخر أن ينصب نفسه لهذا الغرض ، وأن يتشبه بالنساء فيما خالقن له ، وليس له أن يمكن مخدومه من أن يتلرط به ، ولا أن يقبله . فليتق الله ربه ، وليرحم شبابه ، فالدنيا عند الله أقل من ذلك كله »[١] .

وفى سبيل اقتناء الثروات الهائلة ، والتمتع بكل متع الحياة وملاذها المشروعة والمحرمة ارتكب المماليك المظالم وتعسفوا أيما تعسف ، ونكلوا بالناس من فلاحين وتجار وأعيان كل تنكيل ،فكان الجند يتولون الفلاحين بضروب العسف لجمع المحاصيل ، وقد جأر خيرة الناس من العلماء مثل السبكى بالشكرى من تلك المعاملة فقال : « فمن حق الله سبحانه وتعالى على الأجناد شكر نعمته باللطف بالفلاحين ، فلو شاء الله تعالى لقلب الجندى فلاحاً والفلاح جندياً . فإذا كان لا يشكر نعمة الله تعالى على أن رفعه على درجة الفلاح ، فلا أقل من أن يكفى الفلاح شره وظلمه »[٢] .

وكان السلطان يأمر مماليكه أحياناً بأن يضعوا السيف فى العامة لمجرد ثورتهم أو احتجاجهم . ومن ذلك ما ذكره ابن إياس فى حوادث سنة ٦٨٤ هـ فى سلطنة المنصور قلاوون إذ يقول : « أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى العوام لأمر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم ، فإنهم خالفوا أمره فى شيء فعله فأمر بقتلهم ، فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام فقتل فى هذه المدة ما لا يحصى عدده ، وراح الصالح بالطالح ، وربما عوقب من لم يجن ، فلما زاد الأمر عن الحد طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم فعفا عنهم وكف عنهم القتل ، فلما جرى ما جرى ، وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله ، وبنى البيمارستان ، وجعل له جملة أوقاف على رواتب وإحسان ، وفعل من أنواع الخير ما لا يفعل غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس ، لعل الحسنات يذهبن

---

(١) معيد النعم ٥١ .

(٢) معيد النعم ٧٤ .

السيئات كما قال الله تعالى »[١] .

وكأن بناء ذلك البيمارستان سيكفر عنه ما ارتكب من حماقة ، وما سفك من دماء « وعجيب أن نرى مثل تلك الفكرة تسيطر على أذهان أولئك السلاطين من المماليك والأمراء ، يظنون فى الغفران ذلك الظن ، يرتكب أحدهم كل كبيرة من المفاسد والآثام والشرور ثم يختم حياته ، أو يعقب آثامه بفعل يرى فيه الخير كبناء مسجد أو مدرسة أو خانقاه للصوفية ، مستغلاً فى بنائها مال الناس وعرقهم وجامعاً لأحجارها من أنقاض أجسادهم ، ثم يظن بعد هذا أن الله سيغفر له ، وأنه سيرقد بعد هذا كله مستريحاً فى لحده .

وعلى أية حال فإن هذا الاعتقاد قد كسب للعلم والعمران كثيراً من النفع ، وليذهب المماليك بما فعلوا من الشر أى مذهب اختار الله لهم .

ولعل تلك المعالم الباقية من آثارهم تنير جوانب الظلام ، وتخفف من وطأة الظلم الذى ارتكبوه ، وتفننوا فيه . ونشير إلى بعضه كنماذج لما كانوا يفعلون . يقول المقريزى إنه فى سنة ٧٢٦ هـ أيام سلطنة السلطان الناصر محمد « اشتد بأس الأمير قدادار والى القاهرة وتسلط على العامة بكثرة سفك الدماء ... وانطلقت يده فى سائر الناس ، وأقام عنه نائباً من بطالى الحسينية (فتواتها) ضمن المصطبة منه فى كل يوم بثلاثمائة درهم ، وأتت الطائفة المعروفة بالمستضعفين فى المدينة ، وعملوا أعمالا شنيعة ، وكتبوا لأرباب الأموال أوراقاً بالتهديد »[٢] .

ولم يتورع أتباع بعض ولاة القاهرة عن التعامل مع اللصوص لسرقة أموال الناس ونهبها ، فقد كان لوالى القاهرة سنة ٧٣٠ هـ مملوك يسمى بيدرا « عامل الحرامية على أموال الناس تنهب وحريمهم تؤخذ ، وأولادهم تغصب »[٣] .

---

(١) تاريخ ابن إياس ص ١١٦ .

(٢) السلوك ٢ / ٣٠١ قسم ١ .

(٣) ابن الدواداري ص ٣٥٥ .

وكثيراً ما كان مماليك السلطان يقعون على أسواق القاهرة يقتلون وينهبون ويغصبون وينتهكون الحرمات . ذكر ابن كثير أن السلطان بعث من القاهرة سنة ٧٦١ هـ أميراً لمصادرة أموال الكتاب لظنه أنهم أخذوا بعض مال السلطان « فألزموا بأموال جزيلة كثيرة ، بحيث احتاجوا إلى بيع أثاثهم وأقمشتهم وفرشهم وأمتعتهم وغيرها ، حتى ذكر أن منهم من لم يكن له شيء يعطيه فأحضر بناته إلى الدكة ليبيعهن ، فتباكى الناس وانتحبوا رحمة ورقة لأبيهن »(١) .

وأشاعوا السخرة ، فسخروا الناس فى أعمال البناء والعمارة وعمل الجسور ، وشق الطرق والترع وما إليها ، واشتدت هذه السخرة فى عهد السلطان الناصر محمد والناصر حسن . ويقول المقريزى فى أحداث سنة ٧١١هـ « وفيها كثر تسخير الناس للعمل فى عمائر السلطان بالقلعة وقبض عليهم من بين القصرين وهم نيام ، ومن أبواب الجوامع عند خروجهم من صلاة الصبح ، فابتلى الناس من ذلك ببلاء عظيم وكثرت الغاثة »(٢) . ويقول : « صارت الناس تؤخذ من المساجد والجوامع فى السحر ومن الأسواق ، فتستر الناس فى بيوتهم خوفاً من السخرة » . ويقول فى موضع آخر : « ووقع الاجتهاد فى العمل ، واشتد الاستحثاث فيه حتى إن الرجل كان يخر إلى الأرض وهو يعمل لعجزه عن الحركة ، فتردم عليه رفقته الرمال فيموت من ساعته . واتفق هذا لخلائق كثيرة جداً »(٣) .

وكانت قسوة المماليك الطابع المميز لحكمهم ، قسوا على الرعية وعلى أنفسهم ، فكثر القتل وعم التآمر ، خاصة فى فترات الاضطراب والقلق ، وقد سلط الله بعضهم على بعض ، وابتدعوا فى التآمر والقتل والتعذيب أنواعاً وأنواعاً لم يسمع بها قسوة وفظاظة . واستخدموا السم للتخلص من المنافسين يدسونه فى الطعام والشراب على أيدى الجوارى والغلمان يشترونهم بالمال . وممن اشتهر بالقسوة بين كثير منهم أرغون شاه نائب دمشق ، فقد روى ابن الوردى

(١) تاريخ ابن كثير « البداية والنهاية » ١٤ / ٢٦٩ .
(٢) السلوك ٢ / ٤٤٦ قسم ٢ .
(٣) السلوك ٢ / ٤٥٠ قسم ٢ .

أنه كان شديد القسوة مقدماً على سفك الدماء ، قتل بحلب ووسط وسمر . وقطّع بدويًّا سبع قطع بحضرته بمجرد الظن . وقال فيه عمر بن الوردى[١] :

عقلت طرفك حتّى أظهرت للناس عقلك
لو كان دهر يولى على بنى الناس مثلك

وكان مما عرف عندهم من أنواع التعذيب التسمير ، وهو أن يسمر المتّهم على خشبة ويطاف به فى الشوارع ينادى عليه : هذا جزاء من فعل كذا وكذا . وكانت تحمى طاسة وتوضع على رأس المعذب ، أو يحمى الدست ويجلس عليه ، أو يضرب بالوتد فى أذنه ، أو يدق القصب فى أظفاره[٢] .

كذلك عذبوا بالسلخ ، والعصر والتكحيل ، وبفقء الأعين بالأسياخ المحماة ، والتخزيق ، وقتلوا بالتوسيط . . . وهكذا .

واتخذ المماليك أعواناً لهم وأتباعاً من أبناء مصر والشام وجعلوهم وزراء وكتاباً وقضاة ، كانوا عوناً لهم على الشعب ، وهبوا أنفسهم لشياطين المماليك ، وسخروا أنفسهم لنزواتهم ، ليبلغوا ما أرادوا ، ولم يبال أولئك الوزراء وكبار الموظفين فى سبيل نيل رضا السلاطين والأمراء أن يفعلوا أى شىء ؛ أن يتركوا دينهم — ظاهراً — كجماعة من أقباط المصريين تظاهروا بالإسلام ليلوا الوزارة ، وظلوا على دينهم سرًّا يتعصبون ويذكون نار الفتن الدينية ، ويجمعون المال بالباطل من كل الناس ويسخرون معرفتهم وممارستهم للكتابة والحسبة والإلمام بأحوال الرعية وغلات الأرض لعملهم الطويل فى الدواوين فى سبيل جمع المال لمخدوميهم . كذلك كان بعض وزراء المسلمين من أبناء البلد لا يرعون حرمة مواطنيهم وأبناء بلدهم فيرهقونهم من أجل خاطر المماليك ، خوفاً وطمعاً .

ويمثل لنا جماعة الوزراء الذين أشرنا إليهم فى هذه الفترة ابن هلال الدولة ، الذى غلب على جميع مناصب البلد . قال ابن الدوادار « ولم يكن له تسلط إلا على صعلوك يكون بيده سبب يسير يقيم به أوده فلا يزال متسلطاً

(١) تاريخ ابن الوردى ٢ / ٣٤٦ .
(٢) الدرر الكامنة ١ / ٤٠٤ .

عليه حتى يسلبه ما معه ، وأما الأغنياء من الناس فيوقر جانبهم لثلاثة وجوه ، إما أن يكون ذلك الغنى له جاه فلا يتعرض له لجاهه ، وإما أن يكون مطلعاً على حياته فيخشاه ، وإما أن يصانعه بماله فلا يتعرض له ويساعده على أغراضه . وأما من لا يقدر على واحدة من الثلاث فلا يبرح يحط عليه إلى أن يتركه على الأرض البيضاء »[1] .

ومنهم ابن زنبور الوزير الذى جمع بين ثلاث وظائف هامة : نظر الخاص السلطانى ، والوزارة ، ونظر الجيش . وقد وجد عنده بعد مصادرته أوانى ذهب وفضة ستة آلاف ، وكنابيش زركش ستة آلاف ، ولؤلؤ أردبان كيلا ، وحياصات ذهب ستة آلاف ، وقماش مفصل على قدر بدنه ألفان وستمائة قطعة ، ومعاصر سكر خمس وعشرون معصرة ، وخيل وبغال ألف ، وجوار سبعمائة ، وعبيد مائة ، وطواشية ستون . وبساتين مائتا بستان ، وسواق ألف وأربعمائة ساقية . . . إلى غير ذلك »[2] .

ومنهم كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله ابن السديد المصرى وكيل السلطان الناصر محمد ومدبر دولته . أسلم كهلاً أيام بيبرس الجاشنكير بعد خروج السلطان الناصر للمرة الأولى إلى الكرك ، وكان تقدم عند الناصر ، وأحبه السلطان حتى سلم إليه كل خزائنه . قال ابن حجر : « ومن فخامته أنه كان يركب فى عدة من مماليك نحو سبعين كلهم بكبابيش عمل الدار ، وطرز ذهب ، والأمراء تركب فى خدمته . وبلغ من عظم قدره أنه مرض مرة فلما عوفى دخل مصر إلى دار العقد ، فزينت له البلد وكان عدد الشمع ألفاً وستمائة شمعة ، وركب حراقة فلاقاه التجار الكارمية ونثروا عليه الذهب والفضة فتناهبها النواتية » .

ولما صودر أمر السلطان بنقل موجوده إلى القلعة على بغال ، فكان أولها بباب بيته وآخرها بباب القلعة ، وحمل على الأقفاص مائة وثمانون قفصاً

(١) تاريخ ابن الدوادار ص ٣٦٠ .

(٢) الدرر الكامنة ٢/٢٤١ .

ثلاثة أيام فى كل يوم ثلاث دفعات أو مرتان ، سوى ما كان ينقل مع الخدام من الأشياء الفاخرة التى لا يؤمن عليها مع غيرهم . ووجد له من النقد خاصة نحو من ثمانين ألف قنطار ، ومن الأعسال ثلاثة وخمسون ألف مطر . وكان عدد الصناديق التى فيها أصناف العطر من اللبان والعود والعنبر والمسك واحداً وأربعين صندوقاً »[١] .

وكان قد اغتنى من جمع المال بالباطل وارتكاب المظالم .

ومنهم النشو ناظر الخاص السلطانى فى عهد الناصر قلاوون وكان كلفه السلطان بجمع الأموال فلما أثقل عليه السلطان بالطلب لكثرة نفقاته ساءت أخلاقه . قال ابن حجر : « ولبس للناس جلد النمر ، فأكثر المصادرات للكتاب وأصحاب الأموال »[٢] .

ومنهم هبة الله موفق الدين ، والوزير شمس الدين بن غبريال (توفى سنة ٧٣٤ هـ) وكان إسلامه صورياً حتى إنه يقال إن بعض بناته لم يسلمن ، فتركهن على دينهن .

وشكا الناس من تسلط كتاب القبط على الوزارة والدواوين ، وتشددهم فى ظلم الرعية حتى قال السبكى : « ولذلك ترى عواقب الوزراء وقبط الدواوين سوء العواقب فى الدنيا والآخرة »[٣] .

واتهم الناس السلطان الناصر بممالأة القبط وتقديمهم وتحكيمهم فى رقاب الناس[٤] . وردد الشعر هذا الاتهام ، فشكا لانتهابهم الأموال . قال شهاب الدين الأعرج (توفى سنة ٧٨٥ هـ) :

وكيفَ يرومُ الرِّزقَ فى مصرعاقلٌ ... ومن دونه الأتراكُ بالسيْفِ والترْسِ
وقد جمعتْه القبطُ من كلِّ وجهةٍ ... لأنفسهمْ بالرُّبْع والثمنِ والخمسِ

---

(١) الدرر الكامنة ٢/٤٠٤ وراجع فوات الوفيات ٢/٨ .
(٢) الدرر الكامنة ٢/٤٣٠ .
(٣) معيد النعم ٤١ .
(٤) السلوك للمقريزى ٢/١٣٥ .

فللترك والسلطان ثلثُ خراجها　　　وللقبط نصفٌ والخلائقُ فى السدْس

وقسم القلقشندى الوظائف التى يشغلها رجال القلم قسمين : دينية وديوانية ، فالأولى مثل القضاء والإفتاء ووكالة بيت المال ونقابة الأشراف ، والحسبة ، ومشيخة الشيوخ فى الخانقاه ونظر الأحباس المبرورة ، ونظر البيمارستان والخطابة ، والتدريس . والديوانية مثل الوزارة ونظر الدولة ونظر الخاص ، ونظر الجيش ، ونظر بيت المال ، ونظر الاصطبلات ، واستيفاء الصحبة ونظر الأسواق ونظر الخزائن ، والأمــلاك السلطانية والمواريث وما إليها(١) .

ونعرض بعد قليل للوظائف الدينية ، أما الوظائف الديوانية فأرفعها منزلة كتاب الديوان ويرأسهم صاحب ديوان الإنشاء، المختص بالرسائل الديوانية، وكاتب السر السلطانى ، وحدد السبكى وظيفة الأخير وقد استجدت فى عصر الدولة المملوكية الأولى فقال إنه يتولى توقيع الملك ، والاطلاع على أسراره التى يكاتب بها ، وعنه تصدر التواقيع بالولايات والعزل ، ومن حقه إنهاء القصص إلى الملك وتفهيمه إياها ، فإن أكثر ملوك الترك كان يعسر عليهم الفهم ، ويؤتون من قبل ذلك ، ولا سيما إذا اشتبكت الأمور وازدحمت الأشغال . يقول السبكى « فعلى كاتب السر التلطف فى ذلك حتى يصل إلى ذهن الملك » ، ومن حقه أن يكتم السر . . وما أحسن ما نقشه بعض كتاب السر على دواته :

حلفتُ من يكتب بى　　　بالواحد الفرْد الصمدْ
أن لا يمُدَّ مدَّةً　　　فى قطْع رزْق لأحدْ(٢)

واتهم السبكى بعض كتاب الديوان بالسرقة وقال « سمعت بعضهم يقول وقد قرأ منقوشاً على بعض دوى الكتاب :

دواتنــا ســعيدة　　　ليس لها من متربه

---

(١) صبح الأعشى ج ١١ .

(٢) معيد النعم ١/ ٤٤ .

عروس حُسْنٍ جُلِيَتْ منقوشــةٌ مكتَّبَــهْ
قد انطَلَتْ جلْوَتُها على الكِرامِ الكتبَــهْ

قال السبكى : لم تَنْطلِ إلا على اللصوص الكتبة فى المكوس . وقال : فإذا رأيت صاحب ديوان من وزير أو غيره يخرج من بيته بعد أن امتلأ باطنه بالحرام وهو لابس الحرام وجالسٌ على الحرام ، وفتح الدواة الحرام ، وأخذ يمد الأقلام فى الحرام ، ثم عاقب للحرام ، أفليس هذا حقًّا إذا رأيته بعد زمن يسير مضروباً بالمقارع ، يطاف به فى الأسواق ويجنى عليه ؟ »[١] .

ويتقاضى الوزراء والكتاب رواتبهم مشاهرة ، وكان راتب الوزير يبلغ مائتين وخمسين ديناراً كل شهر غير المخصصات من اللحم بتوابله والخبز والعليق . ولأكابرهم السكر والشمع ، والزيت والكسوة فى كل سنة ، ولبعضهم الأضحية ، وهناك الأوقاف المرصدة وأنصبتهم منها ، كما أن لبعضهم إقطاعات .

وبلغ بعضهم حدًّا من الغنى رأينا صوره عند من ذكرنا منذ قليل ، كذلك بلغ بعض الكتاب من الغنى والرفاهية مبلغاً عظيماً حتى اتخذوا الدوى من الذهب ، أو محلاة به وبالفضة واستخدموا السكاكين المفضضة[٢] ، كما اتخذوا الغلمان والمماليك . وكان علاء الدين بن الأثير (توفى سنة ٧٣٠ ﻫ) كاتب سر السلطان الناصر محمد يركب فى ستة عشر مملوكاً من الأتراك مشترى كل واحد عليه منهم أكثر من خمسمائة دينار ، وكان هؤلاء يقفون بالديوان صفين ، ولا يتكلم ابن الأثير مع أحد إلا معهم بالتركى وهم يترجمون عنه للناس . وقال عنه ابن كثير « كانت له حرمة ووجاهة ، وأموال وثروة »[٣] .

ورجال الدين أصحاب الوظائف التى ترعى أمور الناس الدينية وتبدأ بالخلافة ، والقضاء والخطابة ونظارة الأوقاف والتدريس . واعتبرها المقريزى

---

(١) معيد النعم ٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ٤٢ .
(٣) البداية والنهاية ١٤/١٤٩ .

أو اعتبر رجالها من الفقهاء وأهل العلم من الطبقة الخامسة فى نظامه السباعى .

وكان الخليفة فى المجتمع المملوكى يختار من بين العباسيين الذين جاء بهم بيبرس إلى مصر بعد سقوط بغداد ، ويليه فى الترتيب كبار القضاة ، وكان قاضياً واحداً فى عهد الأيوبيين ثم صاروا أربعة ، واحد لكل مذهب فى دولة المماليك ، ويتقدمهم قاضى الشافعية .

وكان الخليفة والقضاة وأرباب القلم والعلماء جميعاً يلبسون العمائم الكبيرة ، التى تتناسب فى حجمها مع مركز صاحبها ، كذلك يلبسون الفرجيات التى تلائم كلا منهم فى هيئتها وزركشتها ، فكان الخليفة يلبس فرجية سوداء بطرز ، وعمامة كبيرة بعذبة ، ويتقلد سيفاً عربيًّا محلى[1] .

ويلبس القضاة الفرجيات المزركشة والكلوتات ، ويركبون البغال فى تنقلاتهم ، وكانت مراكبهم أحياناً مزركشة كذلك يتقدمهم بعض الأتباع ويتلوهم آخرون .

وكان مرسوم تولى القضاة يتلى بالجامع فى القاهرة ودمشق وحلب وطرابلس وغيرها من عواصم الدولة . وكان يتولى الخليفة تعيين الخطباء ، ويوافق عليه السلطان . وكان خطباء المساجد الكبرى لا يقلون فى منزلتهم عن القضاة وكبار رجال الدولة ، وكثيراً ما نجد أحد القضاة الكبار يحتفظ إلى جانب لقب القاضى بلقب الخطيب ، كالخطيب القزوينى الذى تولى قضاء الشافعية بمصر زمناً وتولى خطابة الجامع الأموى بدمشق وقضاء دمشق ، فاحتفظ بلقب الخطيب .

وكانت خطابة جامع دمشق الأموى مثاراً للتنافس بين كبار العلماء والفقهاء ، فقد تنازعها كثيرون فى القرن الثامن من بينهم القاضى تقى الدين السبكى وابن الجلال القزوينى . وكانت للخطيب خلعة خاصة يلبسها فى الموكب ويسير إلى جوار القضاة .

وبلغ بعض القضاة والفقهاء درجة من اليسار من هبات السلاطين ،

---

(١) الدرر الكامنة ٢/١٤٣ .

أو الاشتغال بالتجارة قربتهم من الأمراء وسراة التجار والكتاب فسكنوا البيوت الجميلة الأنيقة ، واقتنوا الضياع والبساتين وكان لهم الخدم والحشم والجوارى والعبيد(١) .

كذلك كان من أعيان الناس كبار التجار وكانوا يتشبهون بأصحاب الدولة والحكام فى سكنى القصور الفارهة والتمتع برفاهية العيش ورغده ، وجرت بأيديهم الأموال وكانت تخدمهم الجوارى والغلمان . وعرف كبار التجار باسم « بياض الناس » وكان أكثرهم من الكارمية ، تجار الرقيق وشاركهم فى هذه الصفة « بياض الناس » كبار تجار الجملة من الحوائصيين وتجار الطيب والعنبر وكان المماليك يقترضون أحياناً من أولئك التجار ، وأحياناً أخرى يصادرون أموالهم ، وثالثة يشاركونهم فى تجارتهم .

ووضع المقريزى متوسطى التجار فى القسم الثالث من طبقات مجتمعه ، فقال : « والقسم الثالث الباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز . فإنهم فى هذه المحن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح ، فإن أحدهم لا يقنع من الفوائد إلا بالكثير جداً ، وهو يعد ساعات من يومه ينفق ما اكتسبه فيما لابد له منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته »(٢) .

ويدخل فى هؤلاء أصحاب الحرف أو الحرفية أصحاب الصناعات الصغيرة ، والعطارون والكحالون ، وكان هؤلاء يقومون بدور الأطباء والحكماء والصيادلة ، وكان الناس يغشون دكاكينهم لشراء الدواء والاستشفاء ، وكان يجلس إليها جماعة من الأطباء المحترفين ، والعارفين بالطب . ويقوم الكحالون بعمل أطباء العيون . وكان الشاعر محمد بن دانيال كحالا وكانت دكانه بالسوق قرب باب النصر ، وكان يجلس إليه جماعة من أصحابه الأدباء والشعراء والفقهاء ممن

---

(١) ذكر ابن تغرى بردى عن ابن عصرون أنه كان عنده نيف وعشرون جارية للفراش » (النجوم الزاهرة ٦/٢٨٧) .

(٢) إغاثة الأمة ص ٧٢ .

يأنسون به ويحبون أدبه ، ويستروحون بفكاهته وظرفه ، فيهارشونه ويستمعون إلى دعاباته ونكته .

ومنهم الوراقون الذين يبيعون الورق الكاغد ، والكتب وما إليها . وكانت سوقهم رائجة وبضاعتهم نافقة . واشتهر منهم من تأدب وقال الشعر ، كالشاعر سراج الدين الوراق أحد شعراء العصر المشهورين .

ومنهم الجزارون ، وكانوا يكسبون من عملهم مالاً يعينهم على حياة مريحة . وعرف من بينهم أبو الحسين الجزار الشاعر المشهور ، رأس شعراء الفسطاط فى عصره ، وظريفهم .

ويأتى فى القسم الرابع من طبقات المقريزى الفلاحون وأصحاب الزراعة والحرث ، فقد كانت حالهم فى هذه الدولة من الانتعاش ثم انتكسوا بعد ذلك لكثرة ما فرض عليهم من الضرائب والأموال ، ومن تعنت الجباة والمباشرين والكشاف فى تحصيل المال ، وجمع المحاصيل أو مصادرتها ، ولشدة السنين وتوالى المحن ، لقلة الماء وشح النيل . ولكن وجد بينهم أصحاب ثراء ونعمة ، وأولئك الذين لم تقع أرضهم بين الشراقى ، وجاءها الماء رخاء ، فدرت الزرع فى وقت ضيق ومحل ، فغالوا فى المحصول فآتاهم الرزق . وقال المقريزى إن فيهم من عظمت ثروته وفخمت نعمته ، ونال ما أربى على مراده وزاد على ما أمله .

ويضم القسمان السادس والسابع أرباب المهن الصغيرة والأجراء من عمال الصناعة والخدم ، وأصحاب المسكنة ممن لا يملكون شيئاً من المال ولا يشغلون وظيفة ، ولا يحسنون عملا أو يمتهنون مهنة . وهؤلاء الأخيرون يعيشون عالة على غيرهم من أرباب الحرف والصناعات ، وأصحاب الثراء والأعيان وأصحاب الأرض ، يحصلون منهم على الأجر لقاء ما يقومون به من عمل أو خدمة ، ويجرى عليهم السلطان والأمراء ، والأغنياء المال وقت الحاجة ، ويتبلغون بالصدقات كل حين .

و جعل المقريزى طلاب العلم والفقهاء والصوفية بين القسمين الرابع والسادس أى بين أصحاب الزراعة من أهل الفلح ، وأرباب المهن الصغيرة ، لقلة

ما كان بين أيديهم من الأموال ، ولضعف مكانهم فى الدولة . وهو يرثى لتلك الحال التى كان عليها العلماء والفقهاء . قال « وأما القسم الخامس فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود ، والكثير من أجناد الحلقة ومن شابههم ممن له عقار أو جار معلوم من السلطان أو غيره ، فهم من بين ميت أو مشتهى الموت لسوء ما حل بهم .

ويصف حالهم بعد توالى النكبات وسوء الحال الاقتصادية بعد عهد الناصر محمد فيقول « فإن أحدهم أتته مائة درهم مثلا أنفق منها فى ضرورياته ما يلزمه على قلة قيمة الدرهم فى ذلك الوقت عما كان عليه ، فاحقهم من أجل ذلك القلة والخصاصة ، وساءت أحوالهم »[١] .

والطبقة الدنيا من عامة الشعب تجمع جماعات الحرافيش والزعر والحرامية . يقول السبكى : « وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صنعة فيسألون عن غير حاجة ، ويقعدون على أبواب المساجد يشحذون من المصلين ولا يدخلون للصلاة معهم »[٢] .

ونسمع فى هذه الطبقة الدنيا عمن يسمون القلندرية وهم جماعة من الناس أشبه بالشطار والفقراء وينتمون أحياناً إلى بعض الطرق الصوفية ، وكانوا يحلقون الرءوس واللحى والحواجب والشوارب ، ويأكلون الحشيشة . ويشير إليهم ابن جابر البغدادى فى هذا الزجل :

لا بدّ تظْهَرُ بين النّاس   قلنْدرى محلُوقْ الرّاسْ
تلْبسْ عِوضْ دَا الْكِتّانْ   وحُلَّتَكْ مِنْ صُوفِ الخِرْفانْ
أو دِلْق أو تِصْبَح عِرْيانْ
تِغْدُو تْدُور معْ أجنَاسْ   مِحلّقِينْ الرُّوسْ أكْياسْ
ما يعرَفُوا إلاّ الخَضْرَهْ   والنَّبْك لا شُرْبِ الخَمْرَهْ
مِثقالهَا بأكْفى جرّهْ

---

(١) إغاثة الأمة ص ٧٥ .

(٢) معيد النعم ص ١٣٦ .

وعندهُمْ منها أكياسْ دانِقَ يقاوِمْ سَبْعِينْ كَاسْ
من قبلْ ما تغدُو مسْطُولْ تَهتَم فى أمر المأكوُل
وتِطْلع السّوقْ بالكَشْكُولْ
تُطْلب على اللهِ رؤّاسْ وباقِلاَّنِي مع هَرّاسْ(١)

وكان قد غلب على أهل القاهرة أجناس من الناس اختلطت دماؤهم كالأتراك والأكراد والجركس والروم والفرنجة . وازداد التتار فى هذه الفترة من حكم المماليك فى القاهرة زيادة واضحة لكثرة أسراهم من الحروب ، ورغبة بعض الأمراء وسراة القوم فى التزوج بالتتريات . وزادت نسبتهم زيادة كبيرة بطائفة الأويراتية الذين وفدوا إلى القاهرة زمن السلطان التترى الأصل كتبغا وسكنوا حى الحسينية ، وكانوا مشهورين بالملاحة مع شدة فى أخلاقهم . يقول المقريزى : « وكانوا صوراً جميلة فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والإناث ، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم ، وتعشقوهم ، فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ، ثم ما نفع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية ، واستدعوا منهم طائفة كبيرة ، فتكاثر نسلهم فى القاهرة ، واشتدت الرغبة من الكافة فى أولادهم على اختلاف الأهواء فى الإناث والذكور »(٢) ويقول « فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع ، وأدركنا من ذلك طرفاً جيداً وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة ، وللآخرين شغف بأولادهم. ولله در الشيخ تقى الدين السروجى إذ يقول فى أبيات :

يا ساعيَ الشّوْقِ الذى قدْ جَرَى جرتْ دُموعى فهى أعْوانُه
خُذْ لى جواباً عن كتابى الذى إلى الُحسيْنيَّة عُنْـوانُه
فهى كما قدْ قيلَ وادى الِحمَى وأهلُها فى الُحسْنِ غِزْلانُه

قال المقريزى : « وما زالوا يوصفون بالزعارة والشجاعة . وكان يقال لهم

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/١١٢ .

(٢) الخطط ج ٢ ، وراجع السلوك ص ٨١٢ — ٨١٣ .

« البدورة » فيقال : البدر فلان . ويعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ، ويؤثر عنهم حكايات كثيرة ، وأخبار جمة » .

وكانت بعض الطوائف فى القاهرة تتخذ من بعض الحرف تخصصاً لها قال المقريزى « وأكثر ما يتعيش بها — القاهرة — اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب ، والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم ، واليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة »[1] .

وكان يسكن الإسكندرية بعض الجاليات الأجنبية ، وكثيراً ما ثارت بينهم وبين أهل البلد المنازعات التى تؤدى إلى أزمات سياسية ، ففى سنة ٧٢٧ هـ ضرب أحد أهالى الإسكندرية من المسلمين فرنجياً « بالمداس » فانتصر النائب المملوكى للفرنجى ، فقامت ثورة أهل الإسكندرية ، وقد أمر الناصر محمد بردعهم فأخذوا بالشدة .

وإذا ما عرضنا لموقف المرأة فى المجتمع المملوكى فأول ما نلاحظه أنها لم تكن فى الموضع اللائق ، فالحجاب مفروض على المرأة الحرة ، وأما الجارية فتجول فى الأسواق سافرة ، لكن يفرض عليها قيود فى اللباس والسلوك . وكانت بعض نساء الطبقات الفقيرة يشتغلن بالغزل والتطريز ، و « الزركاش » بخيوط الفضة والذهب . وظهر بينهن مع ذلك كثيرات ممن اشتغلن بالعلم ، وتصدرن للتدريس مثل زينب بنت مكى ، وزينب بنت الكمال (توفيت سنة ٧٤٠ هـ) . وذكر ابن حجر أنها روت كثيراً ، وتزاحم عليها الطلبة ، وقرأوا عليها الكتب الكبار[2] .

وكان كثيرات منهن يعملن بالمغانى وضروب الملاهى كالرقص ، واحترفت فئات منهن البغاء وخصصت لهن أماكن فى أحياء القاهرة والمدن الكبرى الأخرى فى السلطنة كدمشق . وتعقب بعض سلاطين المماليك أولئك النسوة من أصحاب المغانى ، والزوانى وضايقوهن ، وإن تساهل آخرون معهن .

---

(١) الخطط ١/٣٦٧ .

(٢) الدرر الكامنة ٢/١٦٧ .

فى دمشق أمر نائب السلطان « بيلمر » بأن لا تغنى امرأة لرجل ولا رجل لنساء . وعلق ابن كثير على ذلك بقوله « وهذا فى غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها »[١] .

وفى سنة ٦٥٣ هـ أمر الملك المعز أيبك التركمانى ألا تخرج امرأة فى القاهرة من بيتها ولا يمشى الرجل بلا سراويل . فقال أبو الحسين الجزار :

حسّنا الملكُ المعزٌّ على الرّعايا وألزمهمْ قوانينَ المروَّهْ
وصان حريمهمْ من كلّ عارٍ وألبسهم سراويلَ الفتوَّه[٢]

وفى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ نودى بالقاهرة ومصر أن المرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة[٣] . ويبدو أن بدعة التزيى بلبس الرجال شاعت بين النساء خلاعة وتهتكاً ، فصدرمرسوم السلطان بمنعهن من ذلك .

وفى زمان الناصر محمد،وبعد أن عم الرخاء الناس استجد النساء بعض الأزياء والحلى . قال ابن تغرى بردى : « واستجد النساء فى زمانه الطرحة ، كل طرحة بعشرة آلاف دينار ، وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار ، والفرجيات بمثل ذلك ، واستجدالنساء فى زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والقباقيب الذهب المرصعة ، والأزر الحرير ، وغير ذلك »[٤] .

وفى سلطنة الناصر حسن سنة ٧٥١ هـ نودى « ألا تلبس النساء الأكمام الطوال العراض ، ولا البرد الحرير ، ولا شيئاً من اللباسات والثياب الثمينة ، ولا الأقمشة القصار . وقد شدد فى ذلك فى الديار المصرية حتّى قيل إنهم غرّقوا بعض النساء بسبب ذلك »[٥] .

---

(١) ابن كثير ١/١٦٧ .
(٢) السلوك ١/٢٩٧ .
(٣) السلوك ١/٥٠٣ .
(٤) النجوم الزاهرة ٩/١٧٦ .
(٥) ابن كثير ١٤/٢٣٣ .

وقال ابن إياس : « أبطل السلطان حسن ما أحدثه النساء من القمصان التي خرجت في كبر أكمامها عن الحد ، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف الزركش ، فأشهروا المناداة في القاهرة بإبطال ذلك ، فرجعت النساء عن ذلك »[١] .

وذكر ابن كثير أن نائب السلطنة بدمشق أمر بأن ينادى في البلد بأن النساء يمشين في تستر ، ويلبسن أزرهن إلى أسفل من سائر ثيابهن ، ولا يظهرن زينة أبداً . قال ابن كثير : « فافتعلن ذلك ، ولله الحمد والمنة »[٢] .

وكان للمصريين زى خاص ، وطريقة في وضع الطيلسان والعمامة[٣] . وكان الشيوخ يلبسون الفرجية أو القباء أو الكلوتة ، وعلى الرأس عمامة مدورة أو مشقوقة . وبعضهم يلبس في الصيف لباساً أبيض خفيفاً يسمى الشامى ، وفي الشتاء صوفاً أبيض يسمى الملطى[٤] .

كذلك كان للمصريين والشوام في العصر المملوكي مطاعمهم ومشاربهم ، التي تدل على ما بلغوه من الترف ، منها ما كان شائعاً في أوساط الخاصة ، ومنها ما ساد بين العامة . وقد ورث المصريون في هذا العصر كثيراً من مآكل الفاطميين ومشاربهم ، وكان لدى أثريائهم في القصور طباخون مدربون ورثوهم عن المطبخ الفاطمي ، وقد تدربوا على أيدى حذاق طباخيهم الذين تخرجوا في قصورهم[٥] .

ومما اشتهر من مآكل العامة بالقاهرة ما يزال حتى الآن معروفاً في مصر ، فقد ذكر المقريزى منها : « الدميس والصير ، والصحناه والبطارخ ،

---

(١) تاريخ ابن إياس ١٩٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/٢٨٠ .

(٣) إرشاد الأريب ٥/٤٤ .

(٤) البدر الطالع للشوكاني ١/٩٥ .

(٥) خطط المقريزى ١/٣٦٧ .

ولا تصنع النيدة وهى حلاوة القمح إلا بها – أى بالقاهرة – ، وبغيرها من الديار المصرية »[١] .

وعرفت القاهرة باعة الفول المدمس يتجولون فى الصباح بشوارعها وكذا بدمشق ، ويقبل الناس عليه لفطورهم . قال شهاب الدين بن حجر : قال بدر الدين بن الصاحب فى مليح يطوف بالفول[٢] :

أنا ابنُ الذى بالليْلِ تسْطَعُ نارُهُ كثيرُ رمَادِ القِدْرِ للعبْءِ يَحملُ
يدورُ بأقداحِ العوافى على الورَى ويُصْبِحُ بالخير الكثير يفوّلُ

وكان بعض الخاصة يستعمل الملاعق . وقال الخيمى الشاعر فى وصفها[٣] :

وممدودةٌ كيَدِ المجتَدى بكفٍّ على ساعدٍ مُسْعدِ
ترى بعضَها فى فمى كاللسا نِ وجملتَها فى يَدى كاليَدِ

ومن مآكلهم فى الحلوى القطايف بشراب التفاح ، ودهن اللوز[٤] . وكانوا يقدمون فى الأفراح شراب الليمون ، وشراب الحماض بقلب الفستق مع البندق .

ويصنعون من الشراب المخمر أنواعاً ، منها الفقاع ، والمزر الأبيض المتخذ من القمح ، يقول المقريزى : « وعامة أهل القاهرة يشربون المزر الأبيض المتخذ من القمح ، يطلع عندهم سعره بسببه فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه »[٥] .

---

(١) خطط المقريزى ١/٣٦٧ .
(٢) مطالع البدور ١/٢٣ .
(٣) فوات الوفيات ٢/٤٦٩ .
(٤) الدرر الكامنة ٣/٢٧٤ .
(٥) خطط المقريزى ١/٣٦٨ .

وشاعت بين الناس فى أفراحهم وأتراحهم عادات غريبة . فمما شاع بين المصريين من العقائد الغريبة أن جماعة من أهل مصر كانوا يزعمون أن الشمس إذا كانت فى الحمل وتوجه أحدهم إلى أبى الهول ، وبَخَّر « بشكاعى » و « باذورد » ووقف عليه وقال ثلاثاً وثلاثين مرة كلمات يحفظونها ، وقال معها : يا أبا الهول افعل كذا ، فزعموا أن ذلك يتفق وقوعه .

ومن عاداتهم فى المآتم ندب الميت وتقطيع الشعور ، ولبس الحبل ، وتحويل السرج فى الركوب . وكانوا يقيمون المآتم يضربون فيها الدفوف والدرابك ، وكانت النسوة يطفن بالدرابك فى شوارع القاهرة أياماً . وكانت نساء المماليك يصنعن على الموتى منهم نعياً بالمغانى تعزف فيها الطارات سبعة أيام[١] .

وفى أفراحهم كانوا يشعلون الشموع الكثيرة ، وكذلك كانوا يفعلون فى استقبال الفاتحين والمنتصرين من سلاطين المماليك ، وفى المناسبات والمواسم .

وكانوا يهتمون بإقامة الأعياد الدينية ، والقومية كعيد وفاء النيل . وكان المولد النبوى أهم المواسم الدينية عند المسلمين ، وكان المماليك يهتمون به اهتماماً كبيراً ، ويصرفون فى بذخ[٢] . ومن المناسبات الدينية التى اهتموا بها موالد الأولياء كمولد السيد البدوى بطنطا ، ومولد الشيخ الإنبابى بإنبابة . يقول ابن تغرى بردى فى الأخير « وصار هذا الوقت عندهم من جملة النزه يتواعدون عليه من قبل عمله بأيام ، ويتوجهون إليه أفوجاً »[٣] ويقول إنهم لا يقصدون زيارة الضريح ولا التبرك به ، فأكثرهم لا يعرف مكانه ، إنما يقصدون اللهو والتنزه .

كذلك كانت أعياد النصارى ومواسمهم مناسبات ومجالات للهو والنزهة ، والقصف . ومنها عيد النيروز ، وهو فى مصر أول يوم فى السنة القبطية،

---

(١) تاريخ ابن اياس ٢/٦٤ .

(٢) وصف ابن تغرى بردى المولد النبوى وعودة المحمل وصفاً مفصلا فى النجوم ٧/٩١١.

(٣) المصدر نفسه .

ويختلف عن نيروز الفرس الذى كان يحتفى به فى العراق . قال ابن إياس : « ومما كان يعمل فى ذلك اليوم بالديار المصرية أنه كان يجتمع فى ذلك اليوم السواد الأعظم من الناس « الأسافل » فيقفون على باب الأكابر من أعيان الدولة ، فيكتب أمير النوروز وصولات بالحمل الثقال . وكل من امتنع من الإعطاء من الأكابر بهدلوه ، وسبوه سبًّا قبيحاً .

فكأنهم كانوا ينصبون لهذا العيد أميراً يجتمع حوله عامة الشعب ، وجماعة الزعر والحرافيش وأمثالهم من العياق ، فيطوفون على بيوت الأثرياء لجمع المال . قال ابن إياس : « وكان السواد الأعظم من العياق يقفون فى الطرقات ويتهارشون بالماء ، ويتراجمون بالبيض ، ويتصافعون بالأنطاع والأخفاف ، ويقطعون على الناس الطريق ، ويمتنع الناس من الخروج فى ذلك اليوم إلى الأسواق ، وتغلق فى ذلك اليوم أسواق القاهرة ودكاكينها . وكل من ظفروا به فى الطرقات بهدلوه ، ولو أنه أمير أو من أعيان الناس ، فيرشونه بالماء المتنجس ، ويرجمونه بالبيض . وكان الناس فى ذلك اليوم يتجاهرون بشرب الخمر وكثرة الفسق فى أماكن التفرجات حتى يخرجوا فى ذلك عن الحدود بمن كان يقتل منهم عندما يعربدون على بعضهم . وكان هذا الأمر مستمراً عندهم كل سنة على القاعدة القديمة من الدول الماضية ، ولا ينكر منكر ذلك بين الناس » .

ويقول المؤرخون « إن يوم النيروز هذا من أجل المواسم بالديار المصرية ، وكان يحمل فى ذلك اليوم لأكابر مصر من القبط والمباشرين من أصناف الفواكه والرمان وعراجين الموز و « مشنّات » السفرجل ، والتفاح الشامى ، و « قفف » البسر ، وأقفاص العنب والتمر القوصى ، والبطيخ الصيفى والرطب ، والخوخ المشعر ، وقدور الهريسة المعمولة من لحوم الدجاج ، ومعها « بطط » الجلاب ، وصحون الحلاوى القاهرية ، وغير ذلك من الأنواع اللطيفة »[1] .

---

(١) تاريخ ابن إياس .

ويصف المقريزى نقلا عن القاضى الفاضل هذا العيد أيام الفاطميين فيقول : « يجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة — بحيث يشاهدهم الخليفة الفاطمى ، وبأيديهم الملاهى وترتفع الأصوات ، ويشرب الخمر والمزر شرباً ظاهراً بينهم ، وفى الطرقات ، ويتراش الناس بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجاً بالأقذار » .

وذكر القاضى الفاضل نيروز سنة ٥٩٢ هـ فقال : « استجد فى هذا العام التراشق بالبيض والتصافع بالأنطاع ، وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة وخرّق به » . قال المقريزى : « وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها إلى أن كانت أعوام بضع وثمانين وسبعمائة ، فمنع السلطان من لعب النوروز »[١] .

ومن أعياد النصارى من أقباط المصريين عيد الميلاد . قال المقريزى : « وأدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر إقليم مصر موسماً جليلا يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة والتماثيل البديعة بأموال لا تنحصر ، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشترى من ذلك لأولاده وأهله . وكانوا يسمونها الفوانيس ، واحدها فانوس ، ويعلقون منها فى الأسواق بالحوانيت شيئاً يخرج عن الحد فى الكثرة والملاحة »[٢] .

ومنها عيد الشهيد ، وفيه يجتمع نصارى مصر من سائر الجهات إلى ناحية شبرا ، ويخرج أهل القاهرة ومصر ، وتركب النصارى الخيول للعب ، ويمتلىء الجو بالخيام ، والبحر بالمراكب المشحونة بالناس ، ولا يبقى صاحب غناء ولا لهو حتى يحضر ، وتتبرج زوانى سائر البلاد ويباع فى ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم ، حتى إنه فى سنة باع رجل

(١) خطط المقريزى ١/٢٦٩ .

(٢) خطط المقريزى ١/٢٦٩ .

نصرانى بمائتين وعشرين ألف درهم خمراً ، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن الخمر »[١] . وقد أبطل السلطان الناصر حسن هذا العيد سنة ٧٥٩ هـ[٢] .

وكان الاحتفال بوفاء النيل عظيماً يشترك فيه السلطان وسائر أمراء المماليك ورجال الدولة والناس جميعاً بمختلف طبقاتهم وعناصرهم . وكان يحتفل به فى صور مختلفة ، فكان يبدأ بكسر الخليج ، فيركب السلطان حراقته بالخليج ، والأمراء المقدمون كل واحد منهم يركب حراقته ويزينها أتم زينة ؛ وتجعل فيها الصناجق والكوسات . فإذا وفى النيل يحضرون ذهبية السلطان إلى بولاق ، ويتوجه إلى المقياس ، يخلق العمود ويكسر السد ، والأمراء المقدمون حوله فى الحراريق المزينة حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب ، ويكون له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم »[٣] .

وكان يقام فى عهد المماليك قبل قلاوون وبعده سماط عظيم بموضع المقياس[٤] . وأجمل المقريزى أعياد أقباط مصر منذ الفاطميين فقال : « ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد

---

(١) ويذكر ابن إياس أنه « كان بكنيسة شبرا صندوق من الخشب مقفول بقفل من حديد ، وبداخله أصبع أحد عباد النصارى يسمونه الشهيد ، وكان النصارى يتوارثونه من قديم السنين ، فإذا كان ثامن شهر بشنس من السنة القبطية أخرجوا ذلك الأصبع من الصندوق وغسلوه فى بحر النيل . ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع . ويسمونه عيد الشهيد ، ويكون لذلك اليوم عيد ترحل إليه سائر النصارى من جميع القرى ، وتخرج عامة أهل مصر من غنى وصعلوك وينصبون الخيام على شاطىء بحر النيل بشبرا وفى الجزائر ، ولا يبقى مغن ولا مغنية ، ولا رب ملعوب ولا ماجن إلا خرج فى ذلك اليوم » .

(٢) خطط المقريزى ١/٢٦٥ .

(٣) تاريخ ابن إياس ٢/٥ .

(٤) تاريخ ابن إياس ٢/١٢١ .

الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والعزف ، وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا خرج إلى بركة الحبش متنزهاً ، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد . ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك والمحررات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون »[١].

وكانت مصر والقاهرة أيام المماليك عامرتين بأماكن النزهة ، وأهمها البرك ، كبركة الحبش ، وبركة الفيل ، وبركة الرطلي . قال المقريزي : « وكان ماء النيل يدخل بركة الحبش من خليج بني وائل مما يلي باب مصر من الجهة القبلية »[٢] .

وبركة الرطلي في أرض الطبالة ، وكانت تمر بها أيام النيل المراكب مشحونة بالناس فتمر للناس هنالك أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف . ويتظاهر الناس بأنواع المنكرات من شرب المسكرات ، وتبرج النساء الفاجرات ، واختلاطهن بالرجال من غير إنكار . فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرطم وغيره ، فيجتمع فيها الناس في يوم الأحد والجمعة عالم لا يحصى لهم عدد » . يقول المقريزي : « وأدركت هذه البركة من بعد سنة سبعين وسبعمائة إلى سنة ثمانمائة أوقاتاً انكفّت فيها عمن كان بها أيدي الغير ، ورقدت عن أهلها عين الحوادث ، وساعدهم الوقت ، إذ الوقت وقت ، والناس ناس ، والزمان زمان »[٣] .

وبركة الفيل فيما بين مصر والقاهرة ، وكانت كبيرة جداً . وعمر الناس حولها بعد سنة ٦٠٠ هـ ، حتى صارت مساكنها أجل مساكن مصر كلها . قال ابن سعيد ، وقد زار القاهرة والفسطاط في القرن السابع : « وقد أعجبني في ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم .

(١) خطط المقريزي ٢/١٥٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) خطط المقريزي ٢/١٦٣ .

وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب . وفيها أقول :

أنظر إلى بِرْكة الفيلِ التي اكتنفتْ ... بها المناظرُ كالأهداب بالبَصرِ
كأنما هي والأبصارُ ترمقُها ... كواكبٌ قد أداروها على القمَرِ[1]

ومثل البرك فى المنازة الخلجان ، ومنها فى هذا العصر الخليج الحاكمى ، والخليج الناصرى ، وكان الخليج الحاكمى مسرحاً للزوارق والشخاتير ، والمراكب الصغيرة للتفرج فيه ، يركبها الناس فيلهون ويقصفون ، وتركب معهم النســـاء السافرات الوجوه المتزينات بأفخر زينة ، من كوافى الزركش و « القنابيز » ، والحلى العظيمة . ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة[2] .

وقد منع الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار سنة ٧٠٥ هـ دخول الزوارق فى أيامهما إلى ذلك الخليج ، منعاً لما يحدث من الخروج على حدود الدين ، وما يجرى من الحوادث[3] .

وكذلك كان الحال فى الخليج الناصرى إذ كان معرضاً لأهل القاهرة ومسرحاً ومنتزهاً فى أيام فتح الخليج . وذكر المقريزى يوماً من أيام فتح الخليج به فقال : « فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة فى مراكب فى نهار شهر رمضان ، ومعهم النساء الفواجر ؛ وبأيديهن المزاهر يضربون بها وتسمع أصواتهن ، ووجوههن مكشوفة ، وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب لا يمنعون عنهم الأيدى ولا الأبصار »[4] .

ويقول فى موضع آخر : « وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر ، فيمنع فيه الشرب ، وذلك فى بعض الأحيان .

---

(١) خطط المقريزى ٢/١٦٢ .
(٢) الخطط ٢/١٤٣ .
(٣) السلوك ١/٢٩ .
(٤) الخطط ٢/١٤٣ .

وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب ، والتهتك ، والخلاعة حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب . وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان . وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل »[1] .

ومن منازه القاهرة آنذاك أرض الطبالة على جانبى الخليج الغربى بجوار المقس . وكانت من أحسن متنزهات القاهرة ، بحر النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس . ومن شرقيها الخليج ، ومن قبليها البركة المعروفة ببطن البقرة ، والبساتين التى آخرها حيث الآن باب مصر . وفيها يقول سيف الدين على بن قزل المشد :

إلى طبَّالةٍ يَعزون أرضاً ... لها من سُندُس الرَّيحان بُسْطُ
وقد كتبَ الشقيقُ بها سطوراً ... وأحسَن شكله للطلّ نقطُ
رياضٌ كالعرائس حين تُجْلَى ... يزيِّن وجهها تاجٌ وقُرطُ »[2]

* * *

وضمت القاهرة على عهد المماليك كثيراً من المفاسد الاجتماعية التى وردت إشارات لبعضها فى حديثنا عن منازهها وملاهيها ، وأول ما يثير الانتباه إلى ذلك أن المقريزى قرر أن ضروب الخلاعة والتهتك كانتشار البغايا والخمر واللواط كانت أمراً ملحوظاً فى عصره فى القرنين الثامن والتاسع بصورة لم تعرف فى غير القاهرة ومصر من بلاد شمالى أفريقيا الإسلامية . يقول : « ولا ينكر فيها — القاهرة — إظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذات الأوتار ، ولا تبرج النساء العواهر ، ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب »[3] .

وربما كان حديث المقريزى جارياً مع نغمته العامة فى تأريخه لهذا

---

(١) خطط المقريزى ١ /٣٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ٢/١٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ١/٣٦٨ .

العصر ، ونظره إليه نظرة التشاؤم ، وخاصة فى القرن التاسع عصر ملوك الجراكسة ، ولكن الحقيقة أن كثيراً من هذه الأمور التى أشار إليها المقريزى ، ذكرها غيره من المؤرخين والعلماء ، مما دعا الحكام إلى تعقب الفساد والمفسدين . كان يجرى ذلك من حين لآخر طوال دولتى المماليك كلما استفحل الأمر ، فقد اشتد الظاهر بيبرس على أهل البطالة والفساد من العواهر والشذاذ ومدمنى الحشيش وشاربى الخمر فى سنوات حكمه وخاصة سنوات ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ هـ . وأشار المقريزى نفسه فى السلوك إلى أن السلطان بيبرس أراق الخمور وعفى آثار المنكرات ، ومنع الخواطى من الخانات بجميع أقطار المملكة بمصر والشام ، فطهرت البقاع من ذلك[١] .

وكانت بعض الخانات فى المدن الكبرى ملجأ لأصحاب الملاهى والقصف يجدون بها المغنيات والعاهرات ، والشواذ . والعجيب أن يسمح بهذه الأشياء جميعاً فى دولة إسلامية كدولة المماليك ، فقد كانت الدولة تتقاضى منها الضرائب والمكوس ، وتسمى الضمانات ، ويعين لكل نوع منها ضامن أو جاب يجبى أمواله . فكان للحشيش ضمان أبطله الظاهر بيبرس ، كما كانت للخواطى بيوتات وضوامن منهن يؤدين المال المفروض عليهن لبيت المال . يقول ابن إياس : « ومما أبطله الناصر محمد بن قلاوون ضمان الغوانى ، وكان عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة فى القاهرة لقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها لما قدر أكبر من فى مصر يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة . وكان يحصل من ذلك لنساء الأكابر وبناتهم غاية الفساد ، ولا يقدر أحد يمنعهن من ذلك . وكان يتحصل من هذه الجهة مال كثير »[٢] .

ويذكر ابن الدوادار فى حوادث سنة ٧١٦ هـ فى عهد الملك الناصر

---

(١) السلوك ١/٥٥٣ .

(٢) تاريخ ابن إياس ١٧٦ .

رواية أخرى لإبطال هذا الضمان فيقول : « وفيها برزت المراسم الشريفة بإبطال ما كان يستأدونه من الفواحش لمهتار الطباخاناه السلطانية بمصر والقاهرة ، وذلك أنه كان له دار تسمى دار الزعيم ، وله ناس يدورون على جوارى الناس وعبيدهم يفسدونهم ويهربون ، فإذا هربت الجارية أو العبد يأتون إلى تلك الدار بظاهر باب زويلة فيعطون خمسين درهماً حتى يعيدوه إليه »[1] .

وكان بعض النسوة يحترفن السرقة إلى جانب الدعارة ، بل يتخذن من الدعارة سبباً إلى السرقة والقتل أحياناً . ومن ذلك ما يرويه المقريزى فى أحداث سنة ٦٦٢ هـ إذ يقول : « وكثر فى هذه السنة قتل الناس فى الخليج ، وفقد جماعة ، والتبس الأمر فى ذلك ، ثم ظهر بعد شهر أن امرأة جميلة يقال لها « غازية » كانت تخرج بزينتها ومعها عجوز ، فإذا تعرض لها أحد قالت له العجوز : لا يمكنها المسير إلى أحد ، ولكن من أرادها فليأت إلى منزلها فإذا وافى الرجل إليها خرج إليه رجال فقتلوه ، وأخذوا ما معه . وكانت المرأة فى كل ليل تنتقل من منزل إلى منزل حتى سكنت خارج باب الشعرية على الخليج ، فأتت العجوز إلى ماشطة مشهورة واستدعتها إلى فرح فسارت الماشطة معها بالحلى على العادة ، ومعها جاريتها ، ودخلت الماشطة وانصرفت جاريتها ، فقتل الجماعة الماشطة ، وأخذوا ما كان معها ، وجاءت الجارية إلى الدار تطلب مولاتها فأنكروها فمضت إلى الوالى وعرفته الخبر ، فركب إلى الدار وهجمها ، فإذا بالصبية والعجوز فقبض عليهما وعرضهما على العذاب ، فأقرتا فحبسهما »[2] .

وانتشر فى العصر داء اللواط بين ذوى الوسامة من الغلمان ، وكان سراة القوم يقتنون صغارهم وصباههم لمتعهم ، ويجد عامة الناس بغيتهم فى الحانات ، والخانات . ويقول المقريزى إن داء إتيان الذكران عادة قديمة ،

---

(١) تاريخ ابن الدوادار ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) السلوك ١/٥٢١ .

وقد اشتهر الناصر ابن قلاوون بذلك أيضاً[١] .

وفى حوادث سنة ٧٣٣ هـ قال ابن كثير : « رسم السلطان الناصر محمد بالمنع من رمى البندق وألا تباع قسيها ولا تعمل ، وذلك لإفساد رماة البندق « أولاد الناس » —يقصد أولاد أمراء المماليك — وأن الغالب على من تعاناه اللواط والفسق وقلة الدين . ونودى بذلك فى البلاد المصرية والشامية »[٢] .

ويقول ابن إياس فى حوادث سنة ٦٦٥ هـ فى صدد الحديث عن منع السلطان بيبرس للمفاسد الاجتماعية : « واستتاب العلوق واللواطى »[٣] .

وفشا فى الناس شرب الخمر ، وعلى الرغم من معاقبة الظاهر بيبرس لشاربيها وتنكيره لآنيتها وتهديمه لدورها فى مصر والشام إلا أن الناس عادوا إليها ولم يقلعوا وبلغ من عقاب الظاهر وغيره من المماليك على شربها إرضاء للفقهاء ورجال الدين ، وإقامة لحدود الشرع حد أنه ضبط شخص يسمى الكازرونى وهو سكران فأمر بصلبه ، فصلب بعد حد عظيم فى خشبة ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه . فلما عاين أرباب المجون والخلاعة ما جرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة . وقال الشاعر :

لقد كانَ حدُّ السُّكْرِ من قبلِ صَلْبِهِ
خَفِيفَ الأذى إذْ كانَ فى شَرْعِنا جَلْدَا

فلمَّا بدَا المصْلُوبُ قلتُ لِصاحِبي
ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحَدَّا

وقال آخر :

ليس لإبْليسَ عِنْدَنا أَرَبُ　　غيرُ بِلادِ الأميرِ مأْواهُ
حَرَّمْتَهُ الخَمْرَ والحَشيشَ معاً　　حَرَّمْتَهُ ماءَهُ ومرْعَاهُ

---

(١) نقله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ١١/٢٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/١٦١ .

(٣) تاريخ ابن إياس .

وقال أبو الحسين الجزار :

قدْ عطِّلَ الكُوبُ مِن حبَابِهْ وأُخْلِيَ الثَّغْرُ مِنْ رُضَابِهْ
وأصبح الشَّيْخُ وهوَ يبكِي على الّذي فَاتَ مِنْ شَبَابِهْ[1]

وعاد الناس إلى الخمر وأسرفوا حتى غدا الأمر مثيراً لحفيظة رجال الدين ، فعاد السلطان الناصر سنة ٧٣٤ هـ فأمر والى القاهرة آنذاك بالتشدد فى منع الخمر وتتبع شاربيها ، فتعقب من عصرها وأراق كثيراً منها فى حوانيتها .

وكانت الخمر أنواعاً منها ما هو من عصير العنب وهى ، المشهورة ، ومنها أنواع بلدية كالمذر الأبيض والفقاع ، وتفنن الناس فى صنع هذا النوع الأخير ، وأغرموا به ، وانتشر شربه فى مصر والشام . وقال الشعراء فيه وفى أكوابه ومجالسه .

وأقبل الناس على الحشيش يدخنونه ويمضغونه . وكان بعض أهل القاهرة يأوون إلى بقعة بأرض الطبالة تعرف بالجنينة تصغير جنة يتناولون فيها الحشيش . قال المقريزى « وهى من أخبث بقاع الأرض يعمل فيها بمعاصى الله عز وجل ، وتعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس . وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشواً زائداً ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعاً كثيراً ، وتظاهروا بها من غير احتشام » . ويقول : « وما شىء فى الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ، ولاشتهارها فى وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم تعين ذكرها »[2] .

وقد اشتهرت فى مصر والقاهرة أماكن بعينها تمارس فيها هذه المنكرات منها باب زويلة وأرض الطبالة ، وباب اللوق ، والخليج الناصرى . قال ابن حجر فى شأن والى مصر والقاهرة قديدار سنة ٧٣٤ هـ : « وكبس

---

(١) السلوك ٥٥٤ .

(٢) خطط المقريزى ٢/١٢٦ .

باب اللوق ، فأحرق الحشيش ، وأقام قدر شهر لا يخلو باب زويلة فى يوم منه من كسر جرار الخمر وتحريق حشيش »[١] .

* * *

ومن مفاسد المجتمع السائدة والتى تنوعت وازداد خطرها السرقة بأنواعها ، فقد انتشر اللصوص والحرامية ، وكونوا عصابات أو مناسر ، ونهبوا أموال الناس ، وانتهزوا فرص الفوضى التى كانت تعم أحياناً والاضطرابات بين المماليك حيث يختل الأمن ، فيعيثون فساداً . وظهر من أخطر اللصوص والحرامية فى عصر السلطان الناصر من يسمى ابن سالم ، والمخدوم . قال ابن الوردى : « ولهما أتباع حرامية كانوا يخطفون العمائم ؛ فأمسكوا وسمر بعضهم »[٢] .

وما زال الناس يعتقدون فى التنجيم والمنجمين فى هذا المجتمع الغريب الذى جمع المتناقضات والبدع ، وروج المنجمون لأنفسهم وشعوذاتهم ، وآمن بهم عامة الناس بل كثير من خاصتهم ، وعلى رأسهم السلاطين والملوك والأمراء . وكان للتنجيم آثاره على النساء خاصة . قال ابن كثير : فى حوادث سنة ٧٣٣ هـ « وفى نصف شعبان أمر السلطان بتسليم المنجمين إلى والى القاهرة ، فضربوا وحبسوا لإفسادهم حال النساء ، فمات منهم أربعة تحت العقوبة ثلاثة من المسلمين ونصرانى »[٣] .

---

(١) الدرر الكامنة ٣/٢١٦ .

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٩٠ .

(٣) البداية والنهاية ١٤/١٦١ .

الأسواق والعمران

كانت القاهرة فى عصر المماليك مركزاً كبيراً للنشاط التجارى والعمرانى فى العصر المملوكى وربما كانت أعظم المراكز العربية الإسلامية فى ذلك الحين ، إذ خلفت بغداد فى عظمتها وسعة نشاطها بعد غزو التتار ، وكانت تصب فيها التجارة من سائر بلاد المشرق والمغرب .

وكانت مصر والقاهرة إلى ذلك الحين مدينتين منفصلتين ، كانت مصر أو « الفسطاط » جنوبى القاهرة تطل على النيل وتقابل جزيرة الروضة وبها المسجد العتيق جامع عمرو بن العاص ، تفصلها عن القاهرة بطائح وفضاء متسع من الأرض يمتلئ من رشح الأرض أيام الفيضان ، وتصب فيها بعض خرارات القاهرة ، ولذلك كانت تلك المنطقة وسخة بها عفونة تحملها إلى بيوت القاهرة الريح الجنوبية .

وتمتاز الفسطاط بقدمها ، وكانت أكثر ازدحاماً بالسكان ، كثيرة العمران ، مرتفعة البيوت ، ضيقة الدروب والحارات ، وأرقى أماكنها ما كان محيطاً بالجامع العتيق إلى النيل .

وكانت كذلك المدينة الصناعية التجارية ، تتركز فيها كثير من الصناعات منذ عهد الطولونيين والإخشيديين كصناعة الزجاج والفخار والجلود ، ويسكنها أصحاب المهن والحرفية من أبناء البلد ، يقول المقريزى : « والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط ، فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة »[1] .

وقد نزح علية القوم وأرباب الوظائف من الوزراء والكتاب والأمراء

(١) خطط المقريزى ١/٣٦٧ .

من مدينة الفسطاط إلى القاهرة بعد إنشائها وإقامة ملوكها بقصورها أو بالقلعة أيام المماليك ، وتجمع حول حى القلعة هؤلاء وابتنوا قصورهم ، ولهذا كان أعمر أحياء القاهرة وقتئذ بين القصرين ، والقرافة . كذلك ابتنى أعيان الناس وسراتهم دوراً ومناظر على الخليج الناصرى ، وبركة الحبش وبركة الفيل خارج سور القاهرة .

وكان بالفسطاط مطابخ السكر ، ومصانع الورق المنصورى ، ومصانع الجلود .

وأقيمت القاهرة شمالى الفسطاط بحيث يقع شرقيها جبل المقطم يعوق عنها ريح الصبا ، وكانت بعيدة عن النيل ، وجميعها مكشوف للهواء ، ولم يكن ارتفاع الأبنية بها بقدر الفسطاط ، وإنما كانت شوارعها أنظف وأبعد عن العفن . وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، وإن كان بعض السراة يشربون من النيل وخاصة أيام دخول الخليج فى الفيضان . وقد جر المماليك ماء النيل إلى القلعة بقناة تديرها السواقى وترفعها من درجة إلى درجة حتى تصل القلعة .

ويقول المقريزى : « والقاهرة أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات . وهى سكنى الأمراء لأنها قرب القلعة » [١] ويقول « وقد اتسع عمران القاهرة أيام الناصر ، وامتد العمران بين القاهرة والفسطاط فصارا بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع ، والقياسر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس ، والترب والحوانيت والمطابخ ، والشون ، والبرك ، والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات متصلا جميع ذلك بعضه ببعض » [٢] .

---

(١) المقريزى الخطط ١/٣٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٦٨ — ٣٦٩ .

وامتد عمران القاهرة أيام الناصر من شاطئ النيل بالجيزة إلى المقطم، ومازالت فى عهده وما بعده هذه الأماكن فى كثرة العمارة وزيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتهم وتختال عجباً بهم لما بلغوا فى تحسينها وتأنقوا فى جودتها وتنميقها . وظلت كذلك إلى أن حدث الفناء الكبير سنة ٧٤٦ ﻫ فخلا كثير من هذه المواضع .

وكان حى بين القصرين قلب القاهرة عامراً حافلا بالقصور والدور ، وخاصة الجزء الذى يلى القلعة . وكانت به المدارس والمساجد والحمامات ، وأما ماعداه من الأحياء فكانت ضيقة الدروب والحارات ، ويزيدها ضيقاً ازدحامها بالدكاكين والأسواق ، وكثرة المارة بدوابهم .

ويصف المقريزى ما يلى حى بين القصرين فى عصره فيقول : « ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذ ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة، كان ذلك مما تضيق منه الصدور وتسخن العيون . ولقد عاينت يوماً وزير الدولة ، وبين يديه أمراء الدولة ، وهو فى موكب جليل ، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت الطرق بين يدى الدكاكين،ووقف الوزير وعظم الزحام ، وكان فى موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك فى جملتهم » .

ويقول : « وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسالك الهواء والضوء بينها ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ، وتدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين » .

وذكر المقريزى أن جو القاهرة كان لا يبرح كدراً بما تثيره الأرجل من التراب الأسود . وكان المسافر إذا أقبل عليها من السفر رأى سوراً أسود كدراً وجوًّا مغبراً ، فتضيق نفسه ويفر أنسه .

وكان مما يضيق النفس بالقاهرة ما تحمله إليها ريح الجنوب من العفونة المتصاعدة من المياه الراكدة جنوبيها فيما بينها وبين الفسطاط ، ولما كان يطرح فى الفضاء المتسع بينهما من الأقذار .

ومع تلك الصورة القاتمة التى رسمها المؤرخ لقاهرة المماليك فقد كان يراها أحياناً أعدل هواء وأصلح حالا من كثير غيرها . وكان أحسن أماكنها صلاحية للسكنى القرافة والجهة البحرية لبعدها عن تجار الفسطاط وهبوب رياح الشمال . كذلك كان أرق أحيائها ما جاور النيل من جهة الشمال وعلى الخليج الناصرى ، وخارج سورها بأرض الطبالة التى كانت تكسوها النباتات الجميلة فى غير أقات الفيضان ، وخاصة نبات القرطم والكتان فتبدو أزهارها يانعة رائقة على ضفتى الخليج ، والخليج بينها يضعف ويضعف حتى يصير كما قال الرصافى :

ما زالت الأنحال تأخذه حتى غدا كذؤابة النجم

واشتهرت أسواق القاهرة بازدحامها بالتجارة ، وعمرانها بمختلف السلع من أنحاء المعمورة ، والصناعات من كل صوب . قال المقريزى : « وهى الآن بخير ، يجيئها من الشرق والغرب والجنوب والشمال مالا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا » ، بها الطرز وسائر الأشياء التى تتزين بها النساء والرجال ، وبها قيساريات وأسواق للأجناد يباع فيها الفراء والجوخ والسلاح من سيوف ورماح ولوازم الخيل من سروج ومهاميز ولجم ، وإلى جانب هؤلاء من يتبعهم من باعة التبن التبانين ، والقماحين ومن إليهم .

وفى القيسارية الصباغون والخراطون والخيميون والخشابية ، والخلعيون ، والحدادون والحجارون والقصارون ، والفحامون والغرابلية والمنخليون ، والسراجون والشماعون باعة الشموع وكان لهم شأن . يقول المقريزى : « وكان سوق الشماعين كبيراً فيه صفان عن اليمين والشمال من حوانيت باعة الشمع ، وكانت سوق البزازين حافلة عامرة بأصناف الثياب ، وسوق الحرير وسوق

الأكفانيين ، والحلاويين ، والكعكيين والعطارين ، وبها قيسارية العنبر ، وقيسارية الصنادقيين وسوق الطيوريين والوزازين والدجاجيين . . . إلخ قال المقريزى : « ويباع فيها الأوز والدجاج والعصافير وغير ذلك من الطيور » ، قال « وأدركناه سوقاً عامراً كبيراً من جملته دكان لا يباع فيه غير العصافير فيشتريها الصغار للعب بها » . وسوق المرحِّلين ، وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج إليه فى ترحيل الجمال » .

وبها سوق الكفتيين الذين يكفتون الأوانى النحاسية بمختلف النقوش المحفورة ، والمطعمة وكانت حالهم رائجة .

وسوق الكتبيين ، وكان به ربع تباع فيه الكتب .

وسوق الرقيق ويسمى « دكة المماليك » وهو موضع لجلوس من يعرض من مماليك الترك والروم ونحوهم للبيع .

ويقول المقريزى : إن الخبز بالقاهرة رخيص وكثير .

ويوجد بها أنواع الملاهى والمغانى ، والفرح فى ظاهرها وداخلها .

وكان التحرر يسود القاهرة بخلاف غيرها من المدن وعواصم البلاد الإسلامية فيستطيع الإنسان على حد قوله أن يفعل فيها ما يشاء من رقص فى السوق وتجريد أو سكر من حشيشة وغيرها أو صحبة المردان وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب .

ولازدهار التجارة فى هذا العصر نشأت طبقة من كبار التجار عرفت بالكارمية احتكروا تجارة بعض السلع المستوردة التى تدر ربحاً كبيراً وفى مقدمتها الرقيق . فأثروا ثراء فاحشاً حتى بلغت ثروة بعضهم أرقاماً خيالية كالتاجر اليهودى الأصل عبد العزيز بن منصور الكريمى التاجر الكارمى ، الذى قيل إنه كان لديه ستة خدام بيد كل واحد منهم مائتا ألف دينار للتجارة ثم ازداد ماله وصار يضرب به المثل فى الغنى وكثرة المال ، وعجز عن حصر أمواله حتى إنه بلغ مكس ما أحضره مرة إلى مصر فى سنة واحدة أربعين

ألف دينار . وكان متسعاً في نفقاته على خلاف طرائق التجار كما يقول ابن حجر [١] . ومات هذا التاجر بالإسكندرية فأخذ كريم الدين الكبير من ماله صندوقاً كبيراً مملوءاً جواهر نفيسة لا يقدر ثمنها .

ولعب كبار التجار دوراً في العلاقات السياسية بين المماليك والدول المجاورة ، كذلك الدور الذي لعبه تاجر إفرنجي يدعى « سكران » بين الملك الناصر محمد وملك التتار الذي تم بزواج السلطان من ابنة أخ « أزبك » . كذلك حمل الهدايا إليه من الناصر [٢] .

كذلك يرجع للتاجر مجد الدين السلامي التاجر السفّار فضل عقد الصلح بين السلطان الناصر محمد والتتار سنة ٧١٣ هـ . قال : « وذلك بحسن تدبير مولانا السلطان وبركة سياسته التي تحير فيها الأفكار ، حتى عادت أسماراً على ألسنة السمار » [٣] .

وكانت العلاقات التجارية قائمة بين مصر والشام وسائر دول المشرق والبحر المتوسط وأوربا من الهند والفرس والتتار واليونان والفرنجة . وعاشت بعض الجاليات الفرنجية المشتغلة بالتجارة في ثغور مصر وعاصمتها ، وكان بينهم تجار من جنوة [٤] .

وكان لأولئك التجار الأجانب علاقات خاصة بكبار أمراء المماليك ورجال الدولة أمثال الوزير الخطير كريم الدين الكبير الذي كانت له علاقات مالية وثيقة بتجار الفرنجة « فإنه كان يودعهم الأموال العظيمة ، وكان بنيته الهروب إلى بلاد الإفرنج في السنة التي مسك فيها ، فلم يمهل، فإنه قصد أن يدخل الجزائر ماراً من ثغر الإسكندرية ، فلم يمكنه ذلك لما في الثغر من الاحتراز » [٥] .

---

(١) الدرر الكامنة ٢/٣٨٤ .
(٢) تاريخ ابن الدواداري ص ٣٠٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣١٣ .
(٤) السلوك ٢/١٠٢ .
(٥) تاريخ ابن الدواداري ٣١٥ .

وكان للنشاط الزراعى بمصر والشام نصيب فى دولة المماليك ، وكانت أرض مصر مقسمة بين السلطان والأمراء وبيت المال . وقام سلاطين المماليك بكثير من الإصلاحات الزراعية ، إذ شرع الملك المنصور قلاوون فى حفر ترعة الطبرية بالبحيرة سنة ٦٨٢ هـ ، وقد أفادت البحيرة فائدة جلى بعد أن كادت أرضها تضيع — كما يقول محيي الدين بن عبد الظاهر « وإن الشراقى والبور والخرس استولى عليها وصارت مراعى لجمال العربان ولمواشيهم ، وأهملت »[١] ، ولكن بعد حفر الترعة المذكورة رويت الشراقى ، ورغب الناس فى الحضور إلى الزرع فجاءوا من كل جهة ، وعمرت بذلك بلاد ، واتسعت مزروعات » .

وبعد الملك المنصور قلاوون ، وفى عهد السلطان حسام الدين لاجين ، أراد أن يعيد حصر الأرض الزراعية وقياسها ، وإثبات ذلك فى سجلات الديوان مع تثمينها ، وتقدير درجة خصوبتها لوضع الخراج عليها ، وهو ما اصطلح على تسميته فى عصر المماليك بـ « الروك » . وبدئ فى عمل الروك الحسامى نسبة إلى السلطان سنة ٦٩٦ هـ واستمر إلى نهاية سنة ٦٩٧ هـ . وانتهى بأن قرر للسلطان أربعة قراريط من أربعة وعشرين ، أى سدس الأرض الزراعية ، وعشرة للجند ، أى أقل من النصف بقليل ، وباقى الرعية عشرة قراريط . وطمع الجند فى أن يزاد نصيبهم إلى أحد عشر قيراطاً ، ويكتفى للرعية بتسعة[٢] . ولذلك ثار بعض الأمراء احتجاجاً بأن هذا الروك أدى إلى تقليل أنصبة الجند إلى النصف مما قر قبل[٣] .

وكان روك مصر قبل ذلك ٢٤ قيراطاً منها ٤ قراريط للسلطان ، وللأمراء وبرسم الإطلاقات والزيادات عشرة قراريط ، ولأجناد الحلقة عشرة قراريط ، ولبقية الرعية التراب . فأدمج لاجين ما يستحقه الأمراء وأجناد

---

(١) تشريف الأيام والدهور بسيرة الملك المنصور ص ٢٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/٩٢ — ٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ٨/٩٥ .

الحلقة معاً فجعله عشرة قراريط ، وترك العشرة الباقية للرعية يجبى خراجها لبيت المال (١) .

وذكر ابن إياس أن الجند عندما اشتكوا قلة نصيبهم زادهم السلطان قيراطاً على العشرة فأصبحوا أحد عشر قيراطاً وللرعية تسع ضمها السلطان إليه ، واستحلها لنفسه ، فكأن نصيبه كان فى الواقع ثلاثة عشر قيراطاً (٢) .

ولما جاء السلطان الناصر محمد وجد الأمراء والجند غير قانعين بالروك الحسامى فأمر بعمل « روك » آخر هو « الروك الناصرى » سنة ٧١٥ هـ . ففى شهر شعبان من تلك السنة برزت المراسم الشريفة السلطانية بقياس الديار المصرية بسبب الروك المبارك ، وتوجه الأمراء إلى سائر الأقاليم بسبب ذلك (٣) ، فزاد عن الروك الحسامى فى مواضع ونقص فى مواضع (٤) .

وبعد أن توجه كل أمير إلى عمله ونزلوا البلاد استدعى كل أمير مشايخ البلاد ودلاليها وقياسيها ، وعدولها ، وسجلات كل بلد ، وعرف متحصلها ، ومقدار فدنها ، ومبلغ عبرتها ، وما يتحصل منه للجندى من العين والغلة والدجاج والوز والخراف ، والكشك ، والعدس ، والكعك . ثم قاس الأمير تلك الناحية وكتب بذلك عدة نسخ ، ولا زال يعمل ذلك فى كل بلد حتى انتهى أمر عمله وعادوا بعد خمسة وسبعين يوماً بالأوراق فتسلمها فخر الدين ناظر الجيش ، وطلب التقى كاتب برغلى وسائر مستوفى الدولة ليفرد للخاص السلطان بلاداً ، ويضيفوا الجوالى الغربية على القبط للبلاد وكانت الجوالى قبل ذلك إلى وقت الروك لها ديوان مفرد يختص بالسلطان ، فأضيف جوالى كل بلد إلى متحصل خراجها ، وأبطلت جهات المكوس التى كانت أرزاق الجند عليها (٤) ، منها ساحل الغلة وكانت هذه الجهة

---

(١) السلوك ١/٨٤٢ .

(٢) تاريخ ابن إياس ١٣٧ .

(٣) سيرة الملك الناصر ٢٨٦ .

(٤) تاريخ ابن إياس .

مقطعة لأربعمائة جندى من أجناد الحلقة سوى الأمراء ، وكان متحصلها فى السنة أربعة آلاف ألف وستمائة درهم »[١] .

وقام السلطان الناصر بعمل كثير من الإصلاحات الزراعية ، فزادت الديار المصرية فى أيامه بمقدار النصف »[٢]. ومنها قيامه بحفر الخليج الناصرى إلى سرياقوس سنة ٧٢٤ هـ [٣] وعمل بالجيزة الجسور ، وأقام القناطر لرى البلاد والقرى التى لا تصلها مياه النيل . ويقول ابن تغرى بردى « واستجدت فى أيام الملك الناصر عدة أراض أيضاً فى الشرقية ونواحى فوه وغيرها أقطعت للأجناد ، وكانت قبل ذلك بسنين كثيرة خراباً لا ينتفع بها . وعمل أيضاً سد شبين القصر فزاد بسببه خراج الشرقية ، وأحكم عامة أراضى مصر بحريها وقبليها بالترع والجسور حتى أتقن أمرها ، فزاد فى أيامه خراج مصر زيادة هائلة فى سائر الأقاليم : وكان إذا سمع بشراقى بلد أو قرية من القرى أهمه ذلك ، وسأل المقطع بها عن أحوال القرية المذكورة غير مرة ، ولا يزال يفحص عن ذلك حتى يتوصل إلى ريها بكل ما تصل قدرته إليه »[٤] .

وكانت الحاصلات الزراعية فى أيامه وافرة ، والرخاء الزراعى عاما . ذكر المقريزى أن أرض الصعيد كانت كثيرة المواشى والضأن وغير ذلك لكثرة إنتاجه . وقال : « وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها كان يمر من القاهرة إلى أسوان فلا يحتاج إلى نفقة بل يجد فى كل بلد وناحية عدة دور للضيافة ، إذا دخل داراً منها أحضر لدابته علفها وجيء بما يليق به من الأكل ونحوه »[٥] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٩/٤٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ٩/١٩٨ .
(٣) تاريخ ابن الدواداری ٣١٥ .
(٤) النجوم الزاهرة ٩/١٩٨ .
(٥) خطط المقريزى ١/١٩٠ ط . بولاق .

ويقول ابن الدواداري في ذكر الرخاء الذي عم مصر في عصر الناصر سنة ٧٢٦ هـ « وفيها رخصت الأسعار بالديار المصرية ، وبلغ القمح الطيب الصعيدي ثماني دراهم للأردب ، والشعير والفول أربعة دراهم للأردب ، وبلغ الخبز العلامة العال عشرين رطلا بدرهم . وربما عمل معدل الخبز الذي للشحاذين ويبيعونه فجاء سبعين رطلا بدرهم ، وعاد الصعلوك لا يقبل الكسرة ، ولا الرغيف ، ولا يأخذ إلا الفلس ، فما عز شيء إلا وهان ، ولا هان شيء إلا وعز » [١] .

وعمرت بالبلاد أماكن كانت خراباً بسبب الغلاء والمحن التي حلت في العصور السابقة ، ومنها أرض الطبالة ظاهر باب الشعرية بالقاهرة ، وبنيت فيها مناظر على الخليج الناصري وسوق كبيرة ودكاكين ومنازل [٢] .

وكذلك كانت الحال بأرض الشام وحواضرها مثل دمشق وحلب وبيت المقدس وطرابلس وغيرها . وزاد في ازدهار بلاد الشام ورخائها وقوعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، ووجود جاليات إفرنجية كبيرة ، اشتغلت بالتجارة ، كانت تخلفت عن الحروب الصليبية وإمارات الصليبيين في الشام وسكن أكثرها ثغور الشام على البحر .

ولما عمل الناصر الروك أبطل كثيراً من المظالم والضمانات والمكوس وغيرها ؟[٣] . وكانت فرضت قبله ضرائب كثيرة شكا منها الناس ، لكثرتها وثقلها . ويذكر ابن تغري بردي ما أبطله منها فيقول : « منها رسوم الولايات والمقدمين والنواب والشرطة ، وهي إنما كانت تجبى من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش ، وكان عليها أيضاً جند مستقطعة وأمراء ، وكان فيها من

---

(١) كان سعر الأردب من القمح يتراوح سعره في سنوات الرخاء بين ست دراهم ومائة وخمسين درهماً وقت الغلاء (الدرر الكامنة ٣/٢٢٨).

(٢) تاريخ ابن الدواداري ص ٣٢٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ٩/١٧٧ .

الظلم والعسف وهتك الحرم وهجم البيوت وإظها الفواحش مالا يوصف ، فأبطل ذلك كله » (١) .

وذكر السبكى زيادة المكوس وما فيها من الظلم لأنها تفيض على الزكاة المفروضة ، وقال إنها حرام يقول « وقد علم أن المكوس حرام ، فإن ضم الوزير إلى أخذها الإجحاف فى ذلك وتشديد الأمر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراماً إلى حرام » (٢) .

وما زاد الحكام تلك الأموال والضرائب وتشددوا فى جبايتها إلا لكثرة نفقات الحروب ، ووقوع كثير من النكبات الطبيعية كانخفاض النيل ، وانتشار الجراد ، ووقوع وباء الطواعين والأمراض المهلكة مما أدى إلى سلسلة من النكبات والمحن ، الذى أعقبه الغلاء الشديد . وقد وقعت بعض تلك المحن المهلكات فى دولة المماليك الأولى منها سنة ٦٩٦ هـ فى عهد كتبغا ، والثانية سنة ٦٣٧ هـ فى عهد الناصر محمد وثالثتها سنة ٧٧٦ هـ فى عهد الأشرف شعبان .

وزاد تلك المحن قسوة فساد تدبير السلاطين والأمراء والموظفين، وجشع المستغلين من التجار والأعيان وخزنهم السلع ومواد الطعام لبيعها بالثمن الفاحش، حتى يحصلوا على الثراء الحرام دون حساب لحياة الآدميين ومعاناتهم.

ولقى الفلاحون من مظالم الجباة والكشافين وأصحاب الأرض كل عسير حتى اضطر كثير منهم إلى ترك الأرض والهرب ، وهجر الفلاحة ، فبارت أكثر الأرض الزراعية فى أوقات كثيرة من عصر المماليك ، ووصف المؤرخون والأدباء هذه المحن المتعاقبة أوصافاً حية تظهر مرارتها وبشاعتها ، وظلت تلك الأوصاف جزءاً من أدب العصر ، كما أدت إلى ظهور لون من التأليف المتصل بالمحن يميل فيه المؤلف إلى تقصى أسباب ذلك فيراه غضباً من السماء وعدم رضى من الله على الناس لخروجهم عن طاعته ، وانحرافهم

---

(١) المصدر نفسه ٤٦/٩ .

(٢) معيد النعم ص ٤٠ .

عن حدود دينه ، فيكتب ليعظهم ويبصرهم ويبعدهم إلى حظيرة الدين ، وينظر إليها آخرون من المصلحين الاجتماعيين نظرة أخرى إذ يرجعون أسباب الفساد إلى الاضطراب السياسى والمالى والإدارى .

وذكر المقريزى أن المحنة التى حدثت سنة ٦٩٥ هـ فى عهد كتبغا قد حصر عدد من مات بها فى شهر واحد فبلغ مائة وسبعاً وعشرين ألف إنسان ، وعظم الموتان فى أعمال مصر كلها حتى خلت القرى»[1] وقال فى موضع آخر : « ثم وقع غلاء بالدولة التركية بسلطنة العادل كتبغا فى سنة ٦٩٦ هـ » وأرجع أسبابه إلى جفاف أصاب الأرض لقلة المطر ، « مما دفع أهل برقة فى شرق مصر إلى النزوح للوادى ، وجفاف بعض بلاد الشام ونزوح أهلها إلى مصر كذلك ، وصاحب هذا انخفاض نيل مصر فى السنتين السابقتين ٦٩٤ ، ٦٩٥ قال « ودخلت سنة ٦٩٥ هـ وبالناس شدة من الغلاء وقلة الواصل من الغلال ، إلا أنهم يمنون أنفسهم بمجىء الغلال الجديدة ، وكان قد قرب أوانها فعند الإدراك هبت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوباً عاصفاً وحملت تراباً أصفر كما زروع تلك البلاد فهافت كلها ، ولم يكن بها إذ ذاك إلا زرع قليل ففسدت بأجمعها ، وعمت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة والغربية ، وإقليم الشرقية ، ومرت إلى الصعيد الأعلى ، فهاف الزرع وفسد الصيفى من الزرع كالأرز والسمسم والقلقاس وقصب السكر ، وسائر ما يزرع على السواقى ، فتزايدت الأسعار. وأعقبت تلك الريح أمراض وحميات عمت سائر الناس فنزع سعر السكر والعسل وما يحتاج إليه المرضى وعدمت الفواكه »[2] .

وقال ابن تغرى بردى : « وأما أمر الديار المصرية فإنه عظم أمر الغلاء بها حتى أكل بعضهم الميتة والكلاب ، ومات خلق كثير بالجوع . والحكايات فى ذلك كثيرة . وانتشر الغلاء شرقاً وغرباً »[3] وقال كذلك :« ولم تطل

(١) السلوك ١ /٨١٥ .

(٢) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٣٤ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢٥٧/٨ .

مدة سلطنة كتبغا حتى وقع الغلاء والفناء بالديار المصرية وأعمالها ، ثم انتشر ذلك بالبلاد الشامية جميعها فى شوال من هذه السنة ٦٩٥ هـ وارتفع سعر القمح من خمس وعشرين درهماً للأردب إلى مائة وعشرين درهماً ومائة وستين درهماً، أما الموت فإنه فشا فى القاهرة وكثر ، فأحصى من مات بها وثبت اسمه فى ديوان المواريث فى ذى الحجة سبعة عشر ألفاً وخمسمائة، وهذا سوى من لم يرد اسمه فى ديوان المواريث من الغرباء والفقراء . ورحل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عظم الغلاء ، وتخلخل أمر الديار المصرية » (١) .

وحدث الغلاء الآخر فى عهد الناصر كما قلنا سنة ٧٣٦ هـ ويقول فيه المقريزى : « وفى أول شهر رجب سنة ٧٣٦ هـ وقع الغلاء بالديار المصرية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وعز القمح ووصل الأردب إلى سبعين درهماً . . وعدم القمح من الأسواق وصار على كل دكان من دكاكين الخبازين عدة من الناس ، وصار الخبز كالكسب من السواد ، فرتب الوالى على كل حانوت أربعة من أعوانه معهم المطارق لدفع الناس عن حوانيت الخبز لئلا ينهب ، فضج الناس للسلطان واستغاثوا . فجمع الأمراء وقال لهم : يا أمراء شهر عليكم وشهر على ، وشهر على الله ، نفتح الأمراء الشون ، وباعوا كل أردب بثلاثين درهماً ، فرج عن الناس ، وفتح السلطان حواصله فى شعبان ؛ وباع كل أردب بخمسة وعشرين درهماً ، ودخل الفول الجديد والشعير ، فأكل الناس منه ، إلى أن دخل شهر رمضان فجاء القمح الجديد وانحل السعر » (٢) .

وظلت بقية أيام الناصر أيام رخاء . وبعد انقضاء دولته واضطراب أمور السلطنة بين أبنائه والطامعين من الأمراء عادت المحن ، وعاد الغلاء

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) إغاثة الأمة ص ٤٠ .

فى سنوات ٧٦٢ هـ و ٧٧٦ هـ وكان غلاء هذه المحنة الأخيرة أشد ، وقد وقعت فى حكم السلطان الأشرف شعبان . يقول المقريزى : « وسببه قصور النيل فلم يبلغ ستة عشر ذراعاً ، وكسر الخليج فانحط الماء وارتفع السعر فبلغ القمح كل أردب إلى مائة وخمسين درهماً ، والشعير إلى مائة ، والخبز إلى رطل ونصف بدرهم ، وعزت الأقوات ، وقل وجودها ، فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات ، وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس . وفى هذا الغلاء بلغ الفروج إلى مائة درهم فما فوقها ، والبطيخة إلى مائة وخمسين ، وكان السائل يطلب اللبابة ليشمها ويصيح حتى يموت . فأمر السلطان بجمع الفقراء وفرقهم على الأمراء ومياسير التجار ، ودام هذا الغلاء نحو سنتين ، ثم أغاث الله الخلق وأجرى النيل فارتوت الأراضى وحصل الرخاء بعد ما خامر اليأس القلوب ، وظن الناس دوام تلك الشدة ، واستبعد حصول الفرج . وهى حادثة شاهدناها ، ومحنة أدركناها »(١).

وكان وقع الطاعون والأوبئة أشد على الناس من وقع الغلاء والمجاعات ، فقد حصدت الأنفس وقل سكان المدن ، وأقفرت القرى من فلاحيها ، وعزت الأيدى العاملة ، وشحت المحاصيل ، وطم الغلاء . وكان أشد طواعين هذا العصر الطاعون العظيم سنة ٦٣٢ — ٦٣٣ هـ فى أخريات حكم الأيوبيين ويقول ابن تغرى بردى « مات فى شهر نيف وثلاثون ألف إنسان » ، ويقول : « وفى هذه السنة كان الطاعون العظيم بمصر وقراها ، مات فيه خلق كثير من أهلها ، وغيرها حتى تجاوز الحد » (٢) .

ثم كان الطاعون الكبير سنة ٧٤٩ هـ « الذى لم يسمع الناس بمثله ، وقد عم سائر الدنيا حتى قيل إنه مات فيه نصف الناس حتى الطيور والوحوش والكلاب »(٣) وكان بدء هذا الوباء بمصر بالشرقية أول الصيف وظل طوال الصيف والخريف

(١) إغاثة الأمة ٤١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٠/٢٠٨ .

(٣) شذرات الذهب ٦/١٥٨ .

ثم الشتاء التالى ، وانتقل إلى الشام . ومات به جماعات كثيرة من الأعيان والعلماء والأدباء والشعراء ، ومن بينهم الشاعر الكاتب الفقيه عمر بن الوردى . وكان قد عمل مقامة فيه قبيل موته به . ويقول الشاعر فى وصفه وصنعه بمصر وأهلها :

أسفى على سكَّان مصرٍ إذ غـَدا ... للطعن فيها ذات وخزٌ سارى
الموت أرخص ما يكون بحبـَّةٍ ... لكنَّ هذا صار بالقنطار[1]

وقال جمال الدين بن نباتة فيما عمله الطاعون بالشام ودمشق :

سِرْ بنا عن دمشقٍ ياطالبَ العيشِ ... فما فى المـُقام للمرْء رغْبه
رخـُصتْ أنفسُ الخلائق بالطـَّا ... عون فيها فكلُّ نفس بحبـَّه[2]

وهكذا كان حال الناس مع حكم المماليك بين رخاء وعسرة ، هدوء حيناً واضطراب أحياناً . وأدى اضطراب أحوال المماليك فى أوقات الفتنة إلى أن يقف الشعب مواقف متباينة منهم ، مرة يثور على ظلم السلطان ، وأخرى يثور له إذا ظلمه الأمراء ، أو كادوا له دون وجه حق . فقد وقف مع الناصر ضد تحكم الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار عند ما كان يافعاً فى سلطنته الأولى ، وإن لم تفلح وقفته لتغلب الأميرين بالكبت والقهر . وكانت وقفته من السلطان الأشرف شعبان متناقضة ، نصره عند ما كان محقـًّا ، ثم انقلب الشعب عليه عند ما ظلم ونصر ظلم والى القاهرة عليه .

وترى الشعب يقف من الأحداث الخطيرة الجارية موقف السلبية وعدم المبالاة يرقب الأمور ، والقوى تتصارع ، لا يهتم أتولى هذا المملوك أو أنزل ، سقط ذاك ، أو صودر هذا ، إذا أحس بأن لا ناقة له فى الأمر ولا جمل ، وأن الصراع على الحكم ، أو المال ، أو على قوته . وقد فقد

---

(١) صفحات غير منشورة ٧٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٠/٢١٠ .

الشعب الإحساس بالرغبة فى المشاركة فيما يجرى عندما فقد الصلة بينه وبين الحاكم فلا يهتم بتولية أو عزل ، ولم يعد خير عنده فى قائم أو معزول ، فكل طالب سلطة . وصور ابن حجر هذا الموقف عند سقوط كتبغا وقيام لا جين فقال : « ومن العجيب أن الكتاب – بعزل السلطان – قرئ على أهل البلد بالجامع فسمعوه وافترقوا ، ولم يبالوا بشىء مما وقع ، ولا أغلق سوق ، ولا عند أحد من الناس بسبب ذلك حركة ، ولو اتفق ذلك ببلاد المغرب لا شتعلت البلاد ناراً للفتنة ، وانقطعت المعائش ، وما ذاك إلا لقلة فضولهم واشتغالهم بما يعنيهم »[١] .

وحدثنا ابن الدوادارى بلسان العلماء وأهل المعرفة وأعيان الناس ممن لم يعتادوا المشاركة فى الأحداث بين المماليك ، فلا يقتربون من سلطة ، ولا يخدمون سلطاناً ، قال : فسبحان الدائم بلا زوال ، وما أحسن قول الحكماء هاهنا : إن شبيه أصحاب السلطان هاهنا كقوم رقوا إلى جبل ثم سقطوا منه ، فكان أبعدهم إلى الرقى أقربهم إلى التلف ، وبقدر الصعود يكون السقوط . وقولهم : صاحب السلطان كراكب الأسد ، الناس تهيبه ، وهو لمركوبه أهيب . وقولهم : السلطان كالنار إن قربت منها احترقت ، وإن بعدت عنها لم تنتفع بها ، والعاقل من اقتبس منها وهو على حذر . وقولهم مرقة السلطان حارة ، ومن حساها بلا حساب احترقت شفتاه ، قلت أنا : مال السلطان مسموم ، من أكله تخرطت أمعاؤه ، ولا يفيد فيه الجواهر ، فلو أفادت فيه الجواهر لما هلك الظاهر . ومن قول الشاعر :

إذا ما خطوْتَ إلى رُتْبـــةٍ فإيّاك والدَّرجَ العاليــهْ
ولكنْ بمنزلةٍ إن وقعْـــتَ تقومُ ورجلاكَ فى عافيــهْ[٢]

---

(١) النجوم الزاهرة ١٠/٢١٠ .

(٢) ابن الدوادارى ٣١١.

وبلغ الإحساس بالسخط والتذمر أحياناً بين الناس مبلغاً عظيماً ، حتى عمت عبارات التشاؤم والسخر على الألسنة فقال الشاعر :

زمانننا هــذا خــرا وأهله كمــا تــرى
ومشيهم جميعهــم إلى ورا إلى ورا

وأتم الصفدى البيتين فقال :

إلى ورا بحيث لم تجــد لخير خبــرا [1]

---

(١) شرح اللامية للصفدى ٢/١٣٠ .

الباب الثالث

الحياة الثقافية

التعليم والمدارس ، البيئات الثقافية ، علوم السنة ، العلوم الإنسانية علوم العربية ، العلوم العقلية ، مشاهير الفقهاء والعلماء

١

بعد استيلاء صلاح الدين على مصر وسقوط الدولة الفاطمية ؛ انقلبت طبيعة الثقافة من اللون الشيعي إلى السني ، ولم يكن هذا الانقلاب شاملاً في وقت واحد ، بل ظلت رواسب الثقافة الشيعية متغلغلة في الفكر المصرى فترة طويلة حتى العصر المملوكي .

والحق أن صلاح الدين وجد نفسه إزاء تيار ضخم عميق الجذور من الفكر الشيعي ، فقابله بحرب لا تهدأ ، لإحلال الفكر السني محله والتركيز على نشر الحديث والمذاهب الأربعة في الفقه ، والتركيز على الفقه الشافعي .

ولم يكن في مصر عند استيلائه على الحكم مدارس بالكثرة التي وجدت بها من بعده ، ولم تحظ علوم السنة باهتمام كبير ، ولم ينبغ من علمائها أحد من ذوي الشأن إلا جماعة قليلة تركزت بالإسكندرية خاصة ؛ على رأسهم الحافظ السِّلَفى .

وبذل صلاح الدين ورجال دولته كل طاقة في إنشاء المدارس ودور الحديث في مصر والشام ؛ واستدعى علماء السنة والفقهاء ؛ وأغراهم بالحضور

وسار خلفاؤه على سنته ونهجوا نهجه . وبذلك أصبحت المدن الكبرى فى مصر والشام كالإسكندرية والقاهرة وقوص وأسيوط وبيت المقدس ودمشق وحلب وطرابلس مراكز نابضة لعلوم السنة والفكر السنى . وكانت ملتقى العلماء الوافدين من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه .

واستمرت سياسة المماليك فى نشر مذاهب أهل السنة والتمكين لها فى مصر والشام ببناء المدارس والمساجد الكبرى التى تنهض بهذا العبء . وازدادت أهمية مصر فى العالم الإسلامى باعتبارها قلعة الإسلام والمسلمين ، وموئل الثقافة الإسلامية خاصة بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ، وحرق التتار الكتب والمكتبات التى ضمت كنوز الفكر الإسلامى وألقوها فى دجلة طعاماً للماء والنار .

وفر عن وجه الزحف التترى المخرب جماعات كثيرة من العلماء تحمل علمها وكتبها إلى مصر ليلجأوا إليها بذلك التراث الذى تقدسه وتحافظ عليه وتعض بالنواجذ . ولقى أولئك العلماء بمصر كل تشجيع من أهلها وحكامها على السواء .

وكان الحال كذلك مع الراحلين عن الأندلس فى وجه زحف الفرنجة ، أو مع الراغبين من علماء المغرب عامة فى الحج والوافدين إليها فى الطريق ، يمرون ، ويزورون ، وينفعون بعلمهم وكتبهم فيخلفون آثاراً تروى ، وتدون .

وقال ابن خلدون فى القرن التاسع فى ظل دولة المماليك : « واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » .

وورثت مصر العراق فى الزعامتين الدينية والسياسية للعالم الإسلامى والعربى ، كما عقد لها لواء الزعامة الفكرية والحضارية ، وصارت القاهرة خليفة بغداد منذ منتصف القرن السابع وطوال قرون طويلة تالية .

ونذكر للتمثيل لا الحصر بعض من وفدوا من مشرق العالم الإسلامى

فاشتهروا وألفوا ودرسوا بمصر فى هذا العصر ؛ كالخطيب القاضى جلال الدين القزوينى ، وسعد الدين التفتازانى والتبريزى . . . وغيرهم من الأدباء كصفى الدين الحلى .

وكانت مصر بمدنها الكبرى من الإسكندرية شمالا حتى قوص جنوباً محطاً لكثير من علماء المغرب والأندلس . وممن جاءها فى هذا العصر من كبارهم ابن دحية المحدث ، أقام بالقاهرة أيام الكامل الأيوبى وتولى تدريس الحديث بالكاملية ، وتوفى سنة ٦٣٤هـ ، وهو صاحب كتاب « المطرب من شعر أهل المغرب » . وابن سراقة الشاطبى الأندلسى « قدم الديار المصرية وولى المشيخة لدار الحديث الكاملية إلى حين وفاته سنة ٦٦٢هـ ، وكان أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة ، وتفقه على مذهب مالك »[١] .

ومنهم ابن سعيد على بن موسى توفى سنة ٦٧٣هـ العالم الأديب ، الذى جاء من المغرب وجال الديار المصرية والشام والعراق ، وجمع وصنف ، والتقى بكثير من أجلة علماء مصر وأدبائها وترجم لهم ونقل عنهم فى كتابه المشهور « المغرب فى حلى المغرب » ، وله كتاب « المشرق فى أخبار المشرق » و « المرقص والمطرب » ، و « ملوك الشعر »[٢] .

ومنهم ابن عصفور على بن مؤمن النحوى الحضرمى الأشبيلى ، حامل لواء العربية بالأندلس الذى أقام بالشام فى حلب ، والشريشى محمد بن أحمد النحوى المالكى الأندلسى . توفى سنة ٦٨٥هـ . جاء من المغرب وطاف البلاد وسمع الحديث ببغداد ودمشق وإربل وحلب والقاهرة ، وجمع ودرس بمدارس تلك البلاد ، ففى دمشق بالرباط الناصرى والنورية ، وفى القاهرة بالفاضلية . ثم استقر بين دمشق وبيت المقدس ، وتتلمذ عليه ابن تيمية ، وألف شرحاً جليلاً لابن معطى وكتاباً فى الاشتقاق[٣] .

---

(١) فوات الوفيات ٢/٣٠٦ والنجوم الزاهرة ٧/٢١٦ .

(٢) نفح الطيب ٣/٢٩ ، وفوات الوفيات ٢/١٧٨ .

(٣) بغية الوعاة ١٨٥ .

ومنهم ابن جابر الضرير صاحب البديعية المعروفة ، وكتاب فى نقد الشعر ، وأثير الدين أبو حيان العالم النحوى الأديب المشهور . وأبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسينى توفى سنة ٧٦١هـ . وقيل إنه كان آية الله الباهرة فى العربية والبيان والأدب[١] ، وقد شرح مقصورة حازم القرطاجنى .

وكانت القاهرة عامرة بدور العلم والعلماء والمكتبات ، حافلة بمجالس العلم والأدب ، وكان اهتمام الناس بالكتب أمراً يسترعى الانتباه ، فالقاهرة غاصة بأسواق الكتبيين والوراقين ، وكذلك كان الحال بدمشق . ويذكر المقريزى أن سوق الكتبيين احترقت بدمشق سنة ٦٨١هـ واحترق فيها لواحد من الكتبية وهو شمس الدين إبراهيم الجزرى خمس عشرة ألف مجلدة سوى الكراريس[٢] .

وبنى الظاهر بيبرس مدرسته الكبيرة سنة ٦٦١هـ وأنشأ بها خزانة كتب عظيمة ، وورثت قاهرة المماليك تراثاً عامراً من دور الكتب فى العصر الأيوبى ، من أضخمها مكتبة القاضى الفاضل التى ألحقها بالمدرسة الفاضلية ، واحتوت من مكتبة القصر الفاطمى مائة ألف كتاب[٣] .

وكان إقبال الناس على العلم ملحوظاً ، وعبر الشاعر عن حبهم له وإقبالهم عليه بقوله :

هذب النفس بالعلوم لترقى ... وترى الكل وهو للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعقـ ... ـل سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حى ... وإذا أظلمت فإنك ميت

وانتشرت المدارس فى عواصم البلاد وأمها طلبة العلم ، دون أن يتكافوا

---

(١) شذرات الذهب ٦/١٩٣ .
(٢) السلوك ١/٧٠٩ .
(٣) الخطط ٢/٢٥٥ .

شيئاً ، فقد كان السلاطين والحكام يقومون بتكاليف المدارس وشيوخها ، ويقفون عليها الأوقاف الكثيرة ، ويرتبون الرواتب الشهرية للفقهاء والعلماء ، بل ربما أجريت الرواتب والجوامك على الطلبة كذلك .

وأوقفت بعض المدارس على علوم بعينها كالفقه والحديث أو التفسير أو تعليم القرآن ، ولا يجوز عند السبكي تدريس غير هذه العلوم الموقوفة عليها المدرسة أو التي اشترطها الواقف . ويجوز إلقاء أو تدريس بعض العلوم الجانبية لمساعدة العلم الأصلي الذي أوقفت من أجله للتنوير (١) .

ويقوم بالتدريس شيوخ ومدرسون ومعيدون ، والشيخ أستاذ المادة ، يساعده المدرس ، ويعيد المعيد دروس الشيخ لتفهيم الطلبة . يقول السبكي : « وعليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة ، وإلا فهو والفقيه سواء ، فما يكون قد شكر نعمة الله على حق وظيفة الإعادة »(٢) . ويقوم بتسجيل دروس الشيخ « كاتب الغيبة » وكانت العادة أن يجلس الشيخ على كرسي عال ، ويتحلق الطلبة حوله حلقة ينقسمون فيها إلى مراتب هي : المبتدئ ، والمفيد ، ثم المنتهي (٣) .

ويلحق الطالب بهذه المدارس بعد إلمامه بمبادئ العلوم والمعارف وإجادة القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، والإلمام بطرف من اللغة والنحو والحساب ، وكتب في اللوح ، واستوعب بعض حديث الرسول (٤) .

وكانت القاهرة مركز الثقل الفكري بجلال مدارسها وكثرة شيوخها المبرزين . وكانت أقدم مدارس القاهرة العامرة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وتعقد فيه حلقات الدرس للمذاهب الأربعة ، وكانت له مكانة خاصة في

---

(١) معيد النعم ١٥٣ .

(٢) معيد النعم ١٥٥ .

(٣) Bayard Dodge : Muslim Education in Medieval Times, p. 20-21.

(٤) سيرة القاهرة لاستانلي لانبول ٥٨ .

نفوس الناس ، وحرص السلاطين على الاهتمام به وتجديده[١] وتصدر للتدريس به جماعة من أجلة شيوخ العلم ، ومنهم ابن برى فى العصر السابق ، وفى هذا العصر كثير من القضاة وعثمان بن على السرقوسى الصقلى النحوى ، علم به القراءات[٢] .

ويلى جامع عمرو جامع ابن طولون ، واهتم به المماليك فأمر السلطان لاجين بتجديده سنة ٦٩٦هـ . قال المقريزى : « وتقدم السلطان إلى علم الدين سنجر الدوادارى بعمارة الجامع الطولونى ، وعين لذلك عشرين ألف دينار عيناً ، فعمره وعمر أوقافه ، وأوقف قرية منية أندونة من الأعمال الجيزية عليه ، ورتب فيه درس تفسير وحديث نبوى ، وأربعة دروس فقه على المذاهب الأربعة ، ودرساً للطب ، وشيخ ميعاد ، ومكتب سبيل لقراءة الأيتام القرآن »[٣] .

والجامع الأزهر الذى بناه جوهر الصقلى بأمر المعز ، وظل منذ بنائه جامعة إسلامية يقصدها الطلاب من أنحاء العالم الإسلامى فيجدون زاد القلب والعقل ، ويجرى عليهم من الرزق ما يكفل مواصلة الدرس دون عناء . وجاء صلاح الدين فمنع الخطبة بالأزهر سنة ٥٦٧ هـ ، ولكن ظل الدرس به قائماً . وجاء المماليك فازدهر . وتولى التدريس به جماعة من كبار العلماء ، وألقى به ابن عطاء الله السكندرى مواعظه وحكمه المشهورة .

وقبة الشافعى الملحقة بضريحه بالقرافة ، أنشأها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ ، وعظمت واشتهرت فى عصر المماليك . وصفها ابن جبير بقوله : « وبنى بإزائه "الضريح" مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة ، ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من

---

(١) إرشاد الأريب ٤/٢٨٩ .
(٢) المصدر نفسه ٤/٣٨ .
(٣) السلوك ١/٨٢٧ ، والنجوم الزاهرة ٨/١٠٧ .

مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة سنة ٥٧٨هـ والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالا وتأنقاً ، وعلينا القيام بمئونة ذلك كله »[1] . وكان صلاح الدين شافعياً ، اهتم بالتمكين للمذهب فى مصر ، وجعل قضاتها من الشافعية ، وعلى ذلك سار خلفاؤهم ، ولكن بقية مذاهب السنة لم تهمل مع ذلك فى العصر الأيوبى . فقد بنيت مدرسة للمالكية وغيرهم أيامهم .

وبنى صلاح الدين من مدارس الشافعية الأخرى مدرستين ، وبنى ابن أخيه مدرسة سنة ٥٦٦ هـ .

والمدرسة الفاضلية بناها القاضى الفاضل فى زمن الأيوبيين ، وظلت عامرة فى عصر المماليك ، وممن تولى التدريس بها من مشاهير العلماء عثمان بن الحاجب صاحب كتابى « الكافية » و « الشافية » فى النحو والعربية .

ودار الحديث الكاملية بناها الملك الكامل بن العادل الأيوبى . ويقول المقريزى : « أنشأ الكامل بن العادل المدرسة الكاملية بخط بين القصرين من القاهرة سنة ٦٢٢هـ . وتعرف بدار الحديث الكاملية وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى داراً للحديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق . وبنى الكامل هذه الدار ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم لفقهاء الشافعية »[2] ، وكان طلبة هذه الدار يتقاضون أجراً كما اشترط الواقف المبيت فيها[3] .

والصالحية بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ بمنطقة بين

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٨ وراجع « مصر فى العصور الوسطى » ص ٤٣٢ ، و « الروضتين » ١/١٩١ و ١/٥٦٨ .

(٢) خطط المقريزى .

(٣) الدرر الكامنة ٣/٢٥٠ .

القصرين ورتب فيها دروساً أربعة لفقهاء المذاهب الأربعة سنة ٦٤١هـ . وأنشد فى افتتاحها الشاعر أبو الحسين الجزار قصيدة مطلعها :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتعالى فى الثواب وفى البنا

ودفن بها صاحبها الملك الصالح جوار المكان المخصص للمالكية . ويقول أحد الشعراء فى ذلك بعد زيارته قبر الصالح :

بنيت لأرباب العلوم مدارساً لتنجو بها من هول يوم المهالك
وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلا تحل به إلا إلى جنب مالك

وتولى التدريس بها والإقامة من علماء العصر كمال الدين الأدفوى (توفى سنة ٧٤٨هـ) صاحب « الطالع السعيد »[١] .

والعزيّة بناها عز الدين أيبك التركمانى مطلة على النيل بمصر القديمة .

والظاهرية بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى بين القصرين ، وكمل بناؤها سنة ٦٦٢هـ ، وجعل بها خزانة كتب جليلة ، وبنى بجانبها مكتباً للسبيل ، وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز كل يوم ، والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف[٢] . وعند تمام البناء حضر القراء وجلس أهل كل مذهب فى إيوانهم ، وأنشد أبو الحسين الجزار قصيدة[٣] . وتولى التدريس بها من العلماء الحافظ الدمياطى[٤] ، ودرس بها الحديث فى أخريات القرن الثامن ابن العجمى (٧٥٤ — ٧٩١هـ)[٥] :

والمنصورية بحى بين القصرين ، أقامها المنصور قلاوون ، وقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بعمارتها ، ورسم بعمارتها مارستاناً وقبة ومدرسة ، ولهذا فقد يطلق عليها اسم « المارستان المنصورى و المنصورية ، والقبة المنصورية . ودفن بها

---

(١) خطط المقريزى ٢/٣٧٤ والطالع السعيد ، وحسن المحاضرة ٢/١٤٤ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢٤٢ .
(٣) السلوك ٥٠٤ .
(٤) البداية والنهاية ١٣/٢٤٢ .
(٥) الدرر الكامنة ١/٣٣٦ .

قلاوون نفسه . وجعلت القبة للقراءة وتلاوة القرآن ، والمدرسة للعلوم . وتم بناؤها جميعاً فى أحد عشر شهراً وبضعة أيام ، وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع ، وافتتحها قلاوون فى حفل جليل . ووصفه الشيخ محيي الدين ابن عبد الظاهر فقال: « ولما كان فى يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأولى اهتم مولانا بما يدخر عند الله نفعه ، وتشيع له فى السماوات والأرض به أحسن سمعة، فتقدم إلى أستاذ داريته بنقل كل شيء يميز الفقيه والفقير ، والملك والأمير ، من رواتب وأسمطة وغرائب أطعمة متنوعة ، ومآكل كثيرة ، ونفقات مفرطة . ونقلت جميع البيوتات السلطانية على اختلاف مواعينها وتغاير مكاييلها وموازينها، ولم يبق شيء من الأصناف التى يحصل بها التكاثر ، ويكثر لها التحصيل إلا شمله الاستفادة ، وعزرت له المواد . وما نزل مولانا السلطان فى يوم الثلاثاء المذكور إلا وقد نجزت جميع الأمور ، فوجد الأسمطة وقد مدت ، والحواشى للقيام بوظائفها وقد أعدت ، وفرقت التشاريف والخلع على القضاة الأربعة المدرسين بالمدرسة الشريفة ، وعلى المعيدين وعلى الأئمة وعلي المحدث بالقبة الشريفة والمفسر للقرآن بها ، وعلى الحكماء ، والصناع وكل من له وظيفة من جميع المشدين وأرباب الوظائف وكل من له خدمة ، وكل ولى نعمة من مؤذنين وجرائحيين وكحالين ، وشرف الأمير علم الدين سنجر بتشريف يليق به ويتم تحمله بسببه ، ونصبت مراتب الملك بكل مكان من هذه الأمكنة ، وأحييت تلك الليلة بقراءة القرآن والبحث فى المسائل ، والاستدلال ، والشموع توقد والبخورات تستوقد ، والأدعية إلى الله لمولانا السلطان ترفع فتسمع وبالقبول تشفع .

وحضر مولانا من جهة باب النصر ، والناس قد ترتبوا فى أماكنهم ، فدخل هو والملوك أولاده نصرهم الله ، وأكابر الأمراء وحواشيه ، وهو لله تعالى مخبت ، ولصدقاته منبت ، ولقدمه فى الجنان مثبت . فابتدأ بالمدرسة التى بها الأئمة الأربعة ، وجلس فى المحراب على الأسمطة الممتدة من المحراب إلى البركة ، فأكل الناس بين يديه وفرقت النوالات على الفقراء والفقهاء وعلى كل ذى

مسكنة ، قد جعل بهذه الأماكن مسكنه .

ولما استنفدت الصدقة ، وشملتها التفرقة ، شرع المدرسون فى ذكر الدروس واحداً بعد واحد بين يديه ، وقرأ القراء صوتاً واحداً فملأوا الدنيا بحسن أصواتهم وطيب أنغامهم ، ودعى له والإجابة تتلقى حسن أفهامهم . وقام من مجلسه هذا إلى المارستان فجلس بالإيوان الكبير وأجريت المياه ، وكانت تخوت المرضى الجدد قد فرشت بالفرش العتابى ، واللحف العتابى ، والكلكجات المطرزة والمخاد العتابى والنطوع على قدر المرضى وعلى طبقاتهم .

واستدعى مولانا السلطان القضاة الأربعة والأئمة والعلماء والحكماء جميعهم ، وأحضرت الأشربة فأخذ مولانا السلطان كأساً بيده فيها شراب وقال : قد وقفت هذا المكان على من يكون مثلى فمن دونى إلى أنهى طبقات الغنى والفقر والمسكنة فى هذا المكان من الحاضرين به والمقيمين فيه ، إلا ما كان من ترياق أو مفرح أو غير ذلك من العقاقير معدومة الوجود عند العطارين وفى الأسواق وأشهد على نفسه بذلك ، وأحضر إليه المختص بنفسه على عادته فأكل وأطعم الناس ، وفرقت الأشربة على الحاضرين . ثم قام ودخل الشرابخاناه فرأى ما جيء به من الأشربة والعقاقير والأدوية ، والآلات والأوانى ، ثم خرج وطاف بالمارستان ، ثم خرج إلى القبة الشريفة فجلس بها وقرأ القراء ، وذكر مدرس الحديث بها أحاديث ، وتكلم عليها ، ودرس المفسر بها وأخذ شيئاً من التفسير والفقه .

وخرج مولانا السلطان وقد تنوعت له الحسنات ، وتضاعفت له المبرات ، وسمعت فيه صالح الدعوات ، وكان يوماً يفتخر على الأيام ، ويسمو الإنعام به على كل إنعام »[1] .

---

(١) تشريف الأيام والدهور ١٢٦ — ١٢٨ .

وذكر المقريزى أن قلاوون رتب بها إماماً شافعى المذهب له كل شهر ثمانون درهماً ، ورئيساً ومؤذنين يعلنون الأذان بالمئذنة الكبرى هم ومؤذنو القبة بالتربة ، وهم رئيس وأربعة مؤذنين .

ورتب بها لإقراء كتاب الله عز وجل قراء ، لكل واحد فى الشهر أربعون درهماً ، ورتب بها دروساً للمذاهب الأربعة ، الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، لكل طائفة مدرس له فى كل شهر مائتا درهم ، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهماً ، وخمسون طالباً لجميعهم فى كل شهر سبعمائة وخمسون درهماً ، وغير هؤلاء من القومة والفراشين ، وبواب واحد »[١] . وتولى التدريس بها جماعة من كبار العلماء والقضاة والفقهاء .

والشيخونية بناها الأمير شيخون (توفى سنة ٧٥٦هـ) وهى مدرسة هائلة جمع فيها المذاهب الأربعة ، وداراً للحديث ، وخانقاه للصوفية ، ووقف عليها كثيراً ، وقرر فيها معاليم وقراءة دارة »[٢] .

ومدرسة السلطان حسن بالقلعة ، وصارت بعد بنائها أضخم مدارس القاهرة وأفخمها ، قيل إن إيوانها بنى على قدر إيوان كسرى أنوشروان فى الطول والعرض . وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به . قال ابن حجلة بمناسبة بنائها :

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوماً على الأنساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل فوق ما فعلوا[٣]

والصرغتمشية بناها الأمير صرغتمش فى رمضان سنة ٧٥٦ هـ ، وتولى مشيختها الأتقانى الحنفى ، وشرط على صرغتمش قصرها على الحنفية ،

---

(١) السلوك المقريزى اقسم ٣/١٠٠١ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٥٨ .
(٣) تاريخ ابن إياس ص٢٠٤ .

وكان معادياً للشافعية[1] .

والعاشورية بحارة زويلة بالقاهرة ، نسبة إلى السيدة عاشوراء زوجة الأمير ايازكوج ، وقد وقفتها على الأحناف . قال المقريزى : «كانت من الدور الحسنة ، ودرس بها ابن النقيب الشاعر العالم المتوفى سنة ٦٩٨هـ[2] »

تلك أشهر مدارس القاهرة ، وأما مدارس الإسكندرية ، فكانت كثيرة ، منها ما بنى قبل هذا العصر ، ومنها ما استجد ، إلى جانب جوامعها التى حفلت بكثير من العلماء الأجلاء كجامع العطارين وغيره . وخرجت تلك المدارس جماعات من كبار العلماء ، ووفد إليها من المشرق والمغرب خاصة ومن بين من خرجتهم ابن المنير قاضى الإسكندرية (توفى سنة ٦٨٣هـ) ، ووفد إليها من المغرب أبو الحسن الشاذلى وتلميذه أبو العباس المرسى ، كما خرج منها ابن عطاء الله السكندرى .

وغلب عليها مذهب مالك الذى ساعد على نشره والتمكين له علماء المغاربة .

وظهر بالإسكندرية بعض كبار الزهاد كالقبارى . ووصفها الشاعر مجير الدين بن تميم فقال :

لما قصدت الإسكندرية زائراً ملأت فؤادى بهجة وسرورا
ما زرت فيها جانباً إلا رأت عيناى فيها جنة وحريرا[3]

واشتهر بالصعيد عاصمتان من عواصم الثقافة تجتذبان العلماء وتخرجان الأفاضل من الفقهاء هما قوص وأسيوط وإن كانت قوص أوسع شهرة ، وأبعد ذكراً وأعمر بدور العلم ، لأنها كانت مستقر نائب السلطنة بالصعيد .

---

(١) الدرر الكامنة ١/٤١٥
(٢) فوات الوفيات ٢/٤٣٠
(٣) النجوم الزاهرة ٦/٣٤٧

وازدهرت أسيوط فى عصر المماليك بالعلم ، وكان بها نائب حكم يعينه قاضى القضاة . وعرفت بها المدرسة الفائزية أشهر مدارسها . وهى قديمة تنسب إلى الخليفة الفائز الفاطمى . درس بها جماعة مثل نجم الدين الفتح ابن موسى بن حماد المغربى الحضراوى (توفى سنة ٦٦٣هـ) وكان عالماً فاضلا ، ولد بالجزائر فى بلاد المغرب ، سنة ٥٨٨ هـ وتفقه بدمشق ، وكان شافعى المذهب ، وتولى القضاء بأسيوط نائباً للأحكام ودرس بالفائزية ، وكان فقيهاً أصولياً نحوياً ، وتوفى هناك[١] .

ومن رجال الصوفية عرف ابن الحطاب السيوطى (توفى سنة ٦٧٨هـ) ، وهو من الرجال الصالحين المتصوفة غادر أسيوط مع شيخه وأقام فى قنا .

وأقامت بأسيوط فى النصف الثانى من القرن السابع إحدى المحدثات وتسمى ست الشام بنت أبى صالح رواحة بن على (ولدت سنة ٦٣٧هـ)[٣]، سمعت الحديث وروته عن أبى القاسم عبد الله بن الحسن بن رواحة عن السلفى . وخرج عنها مغلطاى حديثاً[٢] .

ودرس بها الحسن بن عبد الرحيم بن الأثير القرشى (توفى سنة ٧٩٧ هـ) وكان فقيهاً شافعياً صالحاً ، وكان ممن يتبرك الناس به ، ويقصدون الدعاء منه[٤] . ويحيى بن عبد الرحيم بن الأثير أخو الحسن وكان كذلك من فقهاء الشافعية الممتازين ودرس بمدارس أسيوط سنين كثيرة وتولى الحكم بأطفيح وبمنفلوط وتوفى سنة ٧٠٨ هـ[٤] .

وخرج منها القاضى عز الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم (توفى سنة ٧٣٥هـ) وكان من جلة العلماء وولى قضاء الكرك[٥] ، وزين الدين محمد بن أبى بكر

(١) حسن المحاضرة ١٧٤ وطبقات الشافعية ١٤٦/٥ .
(٢) الدرر الكامنة ١٢٦/٢ .
(٣) الطالع السعيد للأدفوى .
(٤) المصدر نفسه ٧٠٨ .
(٥) الدرر الكامنة ٢٧٢/٣ .

ابن على بن محمود الجعفرى الأسيوطى الشافعى ، أخذ على العلامة الدمنهورى وتولى قضاء أسيوط زمناً : وبنى بها مدرسة تشير إليه[١] .

وولد بها ونشأ محمد بن حمزة بن عبد المنعم الأسفونى النسبة ، وكان فقيهاً فاضلاً تولى الحكم بأبى تيج من نواحى أسيوط ، وبإسنا ، وأعاد بمدارس أسيوط[٢] ؛ وخرج منها يوسف بن محمد السيوطى ، وكان يشتغل بالفقه وتولى القضاء بأبى تيج وطما وغيرهما من نواحى أسيوط ، ثم توجه إلى مصر واشتغل بها وقرأ وكتب ، وتولى قضاء أسوان ثم إسنا ، ودرس بمدرستها البانياسية وظل كذلك حتى توفى سنة ٧٢٤ هـ[٣] .

ومنها المحدث عمر بن على بن أبى بكر شرف الدين السيوطى تفرد بالسماع عن العز الحرانى وابن خطيب المزة وتوفى سنة ٧٦٩ هـ . ومن أعيان الشافعية الإمام عز الدين بن عبد العزيز بن عبد الحق الأسيوطى الشافعى : وقد تصدر للإفتاء والتدريس بعدة مدارس وتوفى سنة ٧٨٤هـ[٤] .

قوص : وأما قوص عاصمة الصعيد فى عصر المماليك فقد ضمت كثيراً من المدارس وخرجت عديداً من العلماء ، ووصفها ابن جبير بأنها مدينة حفيلة بالأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها محط للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ، ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ؛ وإليها انقلابهم فى صدرهم من الحج[٥] .

ومن مدارسها المشهورة الكبيرة فى هذا العصر « المدرسة النجيبية » التى

---

(١) شذرات الذهب ٢٧٢/٦ .

(٢) الطالع السعيد ٥١٨ .

(٣) المصدر نفسه ٧٢٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١١ .

(٥) رحلة ابن جبير ٦٥ .

بناها النجيب ابن هبة الله رئيس قوص والمتوفى سنة ٦٢٢ هـ . ودار كبيرة للحديث ، والمدرسة الأفرمية[1] .

وخرج منها ودرس بها جماعة من الأفاضل فى القرنين السابع والثامن ، فمنها خرج البهاء زهير ، وأقام بها فترة مع زميله الصاحب جمال الدين بن مطروح ، كما تولى القضاء بها زمناً العلامة الفقيه القاضى ابن دقيق العيد .

ومنها ابن اللمطى عمر بن عيسى الشاعر الأديب ، قد التقى بابن دقيق العيد زمن عمله بقوص قاضياً ؛ وتتلمذ له ، فدرس عليه النحو . والتقى كذلك بأثير الدين بن حيان النحوى الأندلسى فى مدرسة الأفرم سنة ٦٨٠ هـ . وأنشده من شعره :

أبى الدمع إلا أن يفيض وأن يجرى   على ما مضى فى مدة النأى من عمرى

وولاه ابن دقيق العيد نظر رباع الأيتام بالقاهرة ، فأقام بها زمناً عند تولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة ، وعاد ابن اللمطى إلى قوص بعد وفاة أستاذه ، وأقام بها حتى وفاته سنة ٧٢١هـ[2] .

وأحصى الأدفوى جماعة فى الطالع السعيد من علماء قوص وشعرائها .

وخرج من بلاد قوص كأدفو وبما يليها جنوباً حتى أسوان كثيرون ؛ منهم موفق الدين الأدفوى وكان خطيب أدفو ، وله نظم ونثر توفى سنة ٦٩٧هـ . وصاحب الطالع السعيد . ومن أرمنت أحمد بن عبد الحميد بن على الهذلى الذى اشتغل وأفتى بقوص زمناً وكان إماماً فى الفقه مع علم بالأصول والنحو ، وإحسان فى المحاضرة وإجادة للنظم والنثر وتوفى سنة ٧٢٥[3]هـ .

وللمستزيد عن علماء الصعيد أن يرجع إلى كتاب الأدفوى .

دمشق : وكانت دمشق عاصمة بلاد الشام ومقر نائب السلطنة بها عامرة بالمدارس الكبرى وقبلة للعلماء يؤمونها من كل مكان بالمشرق والمغرب . وكثر

---

(١) الدرر الكامنة / ٣٢٣

(٢) فوات الوفيات ٢/٢١٣

(٣) الدرر الكامنة ١/١٦١

تنقلهم خاصة بينها والقاهرة . ومن أشهر مدارسها دار الحديث الظاهرية ، ودار الحديث الأشرفية التي بناها الأشرف موسى بن العادل الأيوبي بجوار قلعة دمشق[١] ، والناصرية البرانية بسفح جبل قاسيون ، وكانت أغرب الأبنية وأحسنها بنياناً . والناصرية الجوانية داخل باب الفراديس ، وكانت كذلك من أحسن المدارس . والنجيبية ، وكانت للشافعية داراً عامرة ، وقفها النائب الأمير جمال الدين آقوش النجيبي حوالى سنة ٦٦٢هـ وإليه تنسب ، وأقام بها المؤرخ الكبير ابن كثير ودرّس[٢] .

وكان الجامع الأموي الكبير بدمشق جامعة عامرة تلقى به الدروس فى شتى العلوم والفنون يتنافس كبار العلماء لينالوا حظوة التدريس به . وتولى التدريس به الخطيب القزويني ، وتقي الدين السبكي ، وفسر القرآن العلامة المفسر عماد الدين ابن كثير . وجرت العادة بأن يوقف على الطلبة بالمسجد الأموى من سائر المذاهب راتب شهرى قدره عشرة دراهم ، وللمعيد عشرون درهماً ، ولكاتب الغيبة عشرون ، وللمدرس ثمانون[٣] .

حلب : وكذلك كانت حلب ثانية عواصم الشام الثقافية حافلة بالمدارس والعلماء ، وفد إليها وأقام بها ودرس جماعة من الفقهاء والعلماء والأدباء المشهورين يرد ذكرهم بعد قليل .

٢

ولم يقتصر اهتمام الناس بالعلم على الانتظام فى الدرس بالمدارس والجوامع بل شغفوا بالكتب واقتنائها ، فراجت تجارتها ، وقرأ طلاب العلم كل ما كان يقع تحت أيديهم من الكتب الدينية والأدبية واللغوية والطبيعية والفلكية . ونعى

---

(١) البداية والنهاية ٦/٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٣/٢٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٤/٣٢١ .

السبكي على النساخ والوراقين ترويجهم كتباً غير نافعة للناس كسيرة عنترة وغيرها . قال عن الناسخ : « ومن حقه أن لا يكتب شيئاً من الكتب المضللة ، ككتب أهل البدع والأهواء ، وكذلك لا يكتب الكتب التى لا ينفع الله بها ، كسيرة عنتر ، وغيرها من الموضوعات المختلفة التى تضيع الزمان ، وليس للدين بها حاجة ، وكذلك كتب أهل المجون ، وما وضعوه فى أصناف الجماع ، وصفات الخمور ، وغير ذلك مما يهيج المحرمات ، فنحن نحذر النساخ منها فإن الدنيا نغرهم ، وغالباً مستكتب هذه الأشياء يعطى من الأجرة أكثر مما يعطاه مستكتب كتب العلم ، فينبغى أن لا يبيع دينه بدنياه »[١] .

وكان لبعض كتب العلم حظ الرواج فى هذا العصر ، ومنها فى الفقه والحديث : « مشارق الأنوار » للصاغانى ، و « مصابيح السنة » للبغوى ، و « جامع الأصول » لابن الأثير ، و « علوم الحديث » لابن الصلاح ، ومختصره المسمى بـ « التقريب » ، و « التيسير » للنووى .

وزاد اهتمام العلماء بالكشاف للزمخشرى ، فتناوله بالرد والتعليق والشرح جماعة من علماء العصر ، منهم ابن المنيّر السكندرى ، وعلم الدين العراقى عبد الكريم بن على خطيب جامع مصر الذى دفع عن الزمخشرى ورد على ابن المنير فى كتاب سماه « رد الرد »[٢] .

وأخذ السبكى على أمثال العراقى ممن يهتمون بكشاف الزمخشرى فقال : « ومن العلماء فرقة ضمت إلى هذا القدر من الحكمة النظر فى كتاب الكشاف للزمخشرى فى التفسير ، وقالت نحن متشرعون عارفون بتفسير كتاب الله تعالى . وأعلم أن الكشاف كتاب عظيم فى بابه ، ومصنفه إمام فى فنه إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته ، يضع من قدر النبوة كثيراً ، ويسىء أدبه إلى أهل السنة والجماعة ، والواجب كشط ما فى كتابه الكشاف من ذلك كله[٣] .

---

(١) معيد النعم ١٨٦ .

(٢) الدرر الكامنة ٢/٤٠٠ .

(٣) معيد النعم ١١٥ .

وقال السبكي : إن الأعاجم اتخذت من دراسته فى زمانه ديدنها .

وكانت محاربة علماء السنة لكتاب كشاف الزمخشرى معلماً من معالم الفكر الدينى فى العصر الذى غلب عليه الاتجاه السنى والسلفى ، وتغايب علوم الحديث والأثر على علوم الرأى والفلسفة والمنطق . ولهذا نجد حرباً لا تتوقف من فقهاء السنة والمحدثين للعلم الطبيعى ، والبحث المجرد ، وأكدوا ضرورة أن يكون العلم نافعاً فى الدنيا والآخرة ، ويقصدون العلم الدينى .

وكان يقوم بالمساجد قراء يقرأ أحدهم على الناس ما يفيدهم فى أمور دينهم يقول السبكى : « بحيث يكون مبسطاً مفهوماً مثل "إحياء علوم الدين للغزالى"، و" رياض الصالحين" و" الأذكار" للنووى، و " سلاح المؤمن " فى الأدعية للسبكى ،" وشفاء السقام فى زيارة خير الأنام" للسبكى ، وكتب ابن الجوزى [1] فى الوعظ » ، وأمثال تلك الكتب المبسطة التى يمكن لعامة الناس فهمها . . . وذلك كله غير ما يدرس من العلوم فى المدارس بواسطة كبار العلماء المختصين .

ويلاحظ السبكى ملاحظات على علماء عصره فيقول : « وحق الحق أنى لأعجب من عالم يجعل علمه سبيلا إلى حطام الدنيا وهو يرى كثيراً من الجهال وصلوا من الدنيا إلى مالا ينتهى هو إليه ، فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل فما بالنا نشتريها بأنفس الأشياء وهو العلم فينبغى أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى والترقى إلى جوار الملأ الأعلى »[2] .

وينبه إلى أن العلماء ينبغى أن يقصدوا بعلمهم واجتهادهم وجه الله والنفع العام للناس لا الوصول إلى وظائف الدولة أو جمع المال ، لأن باستطاعة الجهال أن يصلوا ، وهذا كثير فى عصره ، وباستطاعتهم أن يثروا ، وهو كثير كذلك ، لكن ينبغى أن يكون علم العالم عفا ، وأن يتخذه سبيلا

---

(١) معيد النعم ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ٩٦ .

إلى النجاة . قال : « فهذه تنبيهات على ما يستقبح ويستهجن من علماء هذا الزمان ، والغرض بها أنه ينبغى لكل ذى فن أن يتخذه سبيلا إلى النجاة ، ومرقاة إلى الزلفى عند الله تعالى ، لا صنعة يتهوس بها »[١] .

ويقرر الأدفوى أن بعض علماء مصر فى عصره انحرفوا عن الجادة ، ودخلوا متاهات خرجت بهم عن سبيله . يقول :

إن الدروس بمصرنا فى عصرنا ... طبعت على لغط وفرط عياط
ومباحث لا تنتهى لنهاية ... جدلا ، ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها ... نشأت عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد صار غاية علمه ... أجزاء يرويها عن الدمياطى
وفلانة تروى حديثاً عالياً ... وفلان يروى ذاك عن أسباط
والفرق بين غريرهم وغزيرهم ... وانصح عن الخياط والحنّاط
الفاضل النحرير فيهم دأبه ... قول لرسطاليس أو بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة ... هذا زمان فيه طىٌّ بساطى
ولىّ زمانى وانقضت أوقاته ... وذهابه من جملة الأشراط

ولما كان الغالب على العصر التعليم الدينى السنى ، فقد تصدرت علوم القرآن والتفسير والحديث ، ثم الفقه والأصول وكل ما يتصل بأمور الدين والشرع . وكان الاهتمام بهذه العلوم امتداداً لاهتمام الأيوبيين بها ، ونبغ فيها جماعة من المشاهير المتقدمين .

ففى علوم القرآن والتفسير نبغ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ) الذى صنف كتابه المشهور « الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز »[٢] .

وابن النقيب ، جمال الدين محمد بن سليمان (توفى سنة ٦٩٨هـ) ، وكان صالحاً زاهداً درس بالعاشورية بالقاهرة ، ثم بالجامع الأزهر ، وصرف همته

---

(١) المصدر نفسه ١٤٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨ .

إلى التفسير ، وصنف تفسيراً حافلا فى خمسين مجلدة « ذكر فيه أسباب النزول ، والقراءات ، والإعراب ، واللغات ، والحقائق ، وعلم الباطن »[١] . ويقول المقريزى إنه فى ستين مجلدة[٢] .

والكواشى ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن يوسف ، الإمام العالم المفسر . له تفسيران كبير وصغير من أحسن تفاسير عصره ، وكانت له اليد الطولى فى القراءات ، أقام بالجامع العتيق بالموصل يدرس التفسير[٣] .

وأبو حيان أثير الدين ، العالم النحوى المفسر الأندلسى الأصل ، القاهرى المقر . ألف تفسيراً كبيراً[٤] .

وابن كثير العالم المؤرخ الفقيه الدمشقى المفسر ، صاحب التفسير المعروف[٥]

والزركشى ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (٧٣٥ — ٧٩٤هـ) ، صاحب كتاب « البرهان فى علوم القرن » ، و « تفسير القرآن » وصل فيه إلى سورة مريم[٦] .

واشتهر بمصر والشام جماعة من كبار المحدثين والحفاظ ورواة الحديث ، نذكر منهم محدث القرن السابع عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى استادار الحديث بالقاهرة ، ورئيس المدرسة الكاملية للحديث بين القصرين ، الشافعى المذهب (٥٨١ — ٦٥٦هـ) .

وابن دحية الأندلسى الأصل الذى ولى الكاملية زمناً ثم صرفه الملك الكامل وكان بصيراً بالحديث متقناً له ، معروفاً بالضبط ، مع حظ وافر فى اللغة ، ومشاركة فى العربية[٧] . ويقول ابن حجر إنه كان يتطاول على رجال الحديث أحياناً

(١) فوات الوفيات ٢/٤٣١ .

(٢) السلوك ٨٨١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٤٩ .

(٤) راجع ترجمته بين النحاة .

(٥) يرد ذكره بين المؤرخين .

(٦) النجوم الزاهرة ٦/٢٥٨ .

(٧) النجوم الزاهرة ٦/٢٥٨ .

ويطعن فيهم .

والقسطلانى قطب الدين ، محمد بن أحمد بن على التوزرى الأصل ، المصرى (ولد ٦١٤ وتوفى ٦٨٦هـ) وسمع الحديث ببغداد والشام ومصر، وتولى مشيخة الحديث الكاملية بالقاهرة حتى توفى[١] ، وألف فى الحديث والتصوف .

والقسطلانى تاج الدين أبو الحسين على بن أحمد بن على أخو قطب الدين (ولد بمصر سنة ٥٨٨ وتوفى سنة ٦٦٥هـ) وتفقه وسمع الحديث من جماعة كثيرة ، وحدث ودرس وأفتى ، وتولى مشيخة الكاملية زمناً ، ودفن بسفح المقطم[٢] .

والقسطلانى ، شرف الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن على بن العلامة قطب الدين (ولد سنة ٦٤٨هـ بمصر) وسمع عن جماعة وعن والده وعن ابن عساكر ويعقوب الطبرى وابن دحية . وحدث بقوص والقاهرة ومكة . وتوفى سنة ٧١٤هـ[٣] .

والدمياطى ، شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ العلامة النسابة المشهور ، الحجة علم المحدثين فى عصره وصاحب التصانيف . ولد سنة ٦١٣ هـ بقرية تونة ببحيرة البرلس جوار مدينة دمياط ، واشتغل بدمياط وسمع الحديث ، وسمع بالإسكندرية من أصحاب السلفى ، وبالقاهرة من جماعة ، ولازم الحافظ المنذري حتى صار معيداً ، وتخرج عليه ، وأتقن الحديث رواية ودراية . وسمع منه خلائق بمصر ومكة وحلب وحماة ودمشق والعراق . قالوا فيه : إنه آخر من بقى من الحفاظ وأهل الحديث وتولى مشيخة الحديث بظاهرية بين القصرين . وأخذ عنه جماعة من أعلام العصر كالقونوى وأبى حيان وابن سيد الناس ، وتقى الدين السبكى والمزى ، والبرزالى، ومحيى الدين النووى ، والحافظ الذهبى واليونينى . وطال عمره وتفرد بأشياء ،

(١) فوات الوفيات ١/٣٦٧ ، وحسن المحاضرة ١/١٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ٧/٢٢٣ .

وحمل على الظعائن عشرين مجلداً من تصانيفه فى الحديث واللغة ، وجمع معجم شيوخه فى أربعة مجلدات .

ومن كتبه « كتاب الصلاة الوسطى » وهو مجلد لطيف ، و« كتاب الخيل » و « قبائل الخزرج وقبائل الأوس » ، و« العقد المثمن فيمن اسمه عبد المؤمن » ، و« مختصر السيرة النبوية » ، و « الأربعون المتباينة الإسناد فى حديث أهل بغداد » .

وتوفى بعد أن عمر بدمشق سنة ٧٠٥هـ[١] .

والجعبرى ، برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن معضاد بن شداد الجعبرى الأصل والمولد المصرى الدار والوفاة (توفى سنة ٦٨٧هـ)[٢] .

والحافظ عبد الغنى المقدسى (ولد سنة ٦٥٦ — وتوفى سنة ٧١٠هـ) .

والباجى على بن محمد بن الخطاب الأصولى المحدث (ولد سنة ٦٣١هـ وتوفى سنة ٧١٤هـ) وتتلمذ عليه جماعة كأبى حيان وتقى الدين السبكى . وله تصانيف فى الحديث والفقه ، منها كتاب « المحرر » و« علوم الحديث » ، و « المحصول فى أصول الفقه » ، و « الأربعين »[٣] .

وابن منير الحلبى المصرى ، عبد الكريم بن عبد النور (توفى سنة ٧٣٥هـ) الحافظ المؤرخ ، وله فى الحديث شرح لشطر من صحيح البخارى ، و « تاريخ مصر » فى عدة مجلدات ، بيض أوائله . وله أربعون تساعيات فى الحديث خرجها لنفسه[٤] .

وابن قايماز الذهبى ، محمد بن أحمد بن عثمان (ولد سنة ٦٧٣ ، وتوفى سنة ٧٤٨ هـ) ومهر فى فنون الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة . كما ألف فى غيره من العلوم وخاصة التاريخ حتى صار أكثر أهل عصره

---

(١) فوات الوفيات /٣٨ — ٣٩ ، والدرر ١ /٤١٨ ، والنجوم ٨ /٢١٨ ، شذرات ٦ /١٢ وحسن المحاضرة ١ /١٠٥ والشوكانى ١ /٤٠٤ .

(٢) النجوم ٧ /٣٧٤ .

(٣) فوات ٢ /١٥٠ .

(٤) النجوم ٩ /٣٠٦ .

تأليفاً . جمع تاريخ الإسلام ؛ فأربى فيه على من تقدم بتحرير أخبار المحدثين واختصر منه مختصرات كثيرة ، منها « العبر في أخبار من غبر » ، و« سير النبلاء » . و « طبقات الحفاظ » ، و« طبقات القراء » ، واختصر السنن الكبير للبيهقي ، وله « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » أجاد فيه ، واختصر تهذيب الكمال للمزي شيخه ، وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير[١] . ودرس الحديث بالقاهرة بتربة أم الصالح ، وبالمدرسة النفيسية . قال عنه الصفدى : « لم يكن عنده جمود المحدثين ولا كوذنة النقله ، بل كان فقيه النفس له دربة بأقوال الناس » .

وقال السبكي : « كان علامة زمانه في الرجال وأحوالهم ، حديد الفهم ، ثاقب الذهن » .

مغلطاى بن قليج بن عبد الله البكجرى (ولد بعد سنة ٦٨٠ ، وتوفى سنة ٧٦٢هـ) .

وكان عارفاً بالأنساب من رجال الحديث ، وأما غيرها من متعلقات الحديث فله بها خبرة متوسطه . وله شرح البخارى ، وقطعة من أبى داود وقطعة من ابن ماجة . قال ابن حجر : وله تصانيف كثيرة جداً تقرب من المائة[٢] .

والعسقلانى ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ، الكنانى العسقلانى الأصل ثم المصرى ، الشافعى ، قاضى القضاة ، وشيخ الإسلام . فريد زمانه وحامل لواء السنة فى أوانه . قال السيوطى : ذهب هذا العصر ونضاره . أقبل بكليته على الحديث فصنف فيه التصانيف الباهرة . ودرسه بالشيخونية ، وبجامع القلعة ، وبالجمالية ، والبيبرسية ومن كتبه المشهورة « فتح البارى فى شرح البخارى » . توفى سنة ٨٥٢هـ[٣] .

الحافظ العراقى ، عبد الرحيم بن الحسين . ولد بمصر سنة ٧٢٥هـ وتوفى سنة ٨٠٦هـ وله عدة مصنفات[٤] .

---

(١) طبقات الشافعية .
(٢) الدرر الكامنة ٤/٤٥ .
(٣) أعيان الأعيان ٤٥ .
(٤) البدر الطالع للشوكانى ١/٣٥٤ .

وعمرت الشام كمصر بجماعة من كبار رجال الحديث ، ففى دمشق كان ابن القلانسى مؤيد الدين أبو المعالى أسعد بن المظفر (ولد سنة ٥٩٩ وتوفى سنة ٦٧٢ هـ) ، وحدث بدمشق والقاهرة ، وبيته من البيوتات المشهورة[١] .

والبرزالى ، القاسم بن محمد بن يوسف الإشبيلى الأصل الحافظ المحدث المؤرخ . سمع صحيح البخارى ، وأحب الحديث ، ونسخ الأجزاء ، ودار على الشيوخ . وسمع على ابن الجزولى وغيره ، وكتب كثيراً وحصل كتباً جيدة ، وخرج لنفسه ولشيوخه كثيراً من الحديث . وبلغ ما جمع من الكتب ملء أربع خزائن ، وبلغ ثبت شيوخه ومن لقيه أو كان يسمع معه ٢٤ مجلداً . وله تاريخ جمع فيه من عام مولده سنه ٦٦٥ هـ ، بعد وفاة أبى شامة ، فجعله صلة لتاريخه فى خمسة مجلدات . وله مجاميع وتعاليق كثيرة . وكان عالماً بالأسماء والألفاظ ، ولا ينتقص فاضلا ، بل يوفيه حقه . تتلمذ له الذهبى وقال فيه : هو الذى حبب إلى طلب الحديث . وولى دار الحديث الأشرفية بدمشق مقرئاً ، وقرأ بالظاهرية ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية ، والنفيسية . وتوفى سنة ٧٣٩ هـ[٢] .

والقيسرانى ، فتح الدين . أبو محمد عبد الله بن عز الدين . عنى بالحديث ، وروى عنه الدمياطى وابن سيد الناس والبرزالى والذهبى ، وجمع وألف كتاباً فى معرفة الصحابة ، وخرج لنفسه أربعين حديثاً . وتوفى بالقاهرة[٣] .

والحافظ المزى ، يوسف بن الزكى بن عبد الرحمن . سمع من جماعة من علماء الحديث بالشام والحرمين ومصر والإسكندرية . وسمع الكتب الطوال والأجزاء ، وأتقن اللغة والتصريف ، وتبحر فى الحديث ، وبلغ عدد شيوخه

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ /٢٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ٨/٢١٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٨٥ .

(٣) شذرات الذهب ٦/١٢٢ .

فيه ألف شيخ بينهم النووى . ودرس ببعض مدارس دمشق كدار الحديث الأشرفية ، ولما ولى تدريسها قال ابن تيمية : لم يلها من حين بنيت إلى الآن أحق بشرط الواقف منه . وكان صديقاً لابن تيمية ، وأوذى بسببه .

وله مصنفات كثيرة منها « تهذيب الكمال » واشتهر فى زمانه ، وحدث به خمس مرات وكتاب « الأطراف » وهو كتاب مفيد[١] .

ومن فقهاء مصر والشام من اشتغلوا بالحديث ، أو اقتصروا على الإلمام ببعض الحديث وانتبحر فى علوم الفقه . وأنجب العصر جماعة من كبار الفقهاء فى البلدين ، ممن عدوا مفخرة للدراسات الفقهية ، وخلفوا من مآثرهم فى الكتب والرأى المتداول ما يغنى عن كل تعريف .

منهم فى مصر : محيى الدين النووى ، ويحيى بن شرف الدين المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وكان شيخ الشافعية فى زمنه ، وكبير فقهاء عصره . وتولى دار الحديث الأشرفية بدمشق زمناً[٢] .

وابن بنت الأعز : عبد الوهاب بن خلف قاضى القضاة بالديار المصرية تولى مشيخة الشيوخ وبعض المناصب كالقضاء والوزارة . وكان فقيهاً باعاً وشاعراً . ودرس بمدارس القاهرة كالصلاحية والشافعية (قبة الشافعى) ، والشريفية ، والمشهد الحسينى . وتولى خطابة الجامع الأزهر ، وتقدم عند السلطان الملك الظاهر ، وعزل فى عهد الأشرف خليل عن القضاء ، ثم أعيد إليه بعد وفاته . وتوفى سنة ٦٩٥ هـ ودفن بسفح المقطم[٣] .

وابن الرفعة ، نجم الدين أحمد بن محمد بن على المصرى الشافعى ، ولد سنة ٦٤٥ هـ قال ابن حجر : « واشتهر بالفقه حتى صار يضرب به المثل ، وإذا أطلق الفقيه انصرف إليه من غير مشارك » ، مع مشاركة فى العربية

---

(١) شذرات الذهب ، والبداية والنهاية لابن كثير .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٧٩ .
(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ٢٢٣ .

والأصول . وندب لمناظرة ابن تيمية ، فسئل عنه بعدها فقال : « رأيت شيخاً تتقاطر فروع الشافعية من لحيته »[١] . وأثنى عليه ابن دقيق العيد . وقال فيه الأسنوى : « ما أخرجت مصر بعد ابن الحداد أفقه منه »[٢] . وقال السبكى : « حامل لواء الشافعية بمصر . وكان شافعى زمانه وإمام أوانه ومصره ، بل سائر الأمصار »[٣] . وقال ابن العماد : « صنف التصنيفين العظيمين : « الكفاية فى شرح التنبيه » ، و « المطلب فى شرح الوسيط » فى نحو أربعين مجلداً فى فقه الشافعى »[٤] .

وابن جماعة ، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد ، قاضى القضاة الشافعى (ولد سنة ٦٦٤ – وتوفى سنة ٧٣٣) بمكة ، وأكثر السماع ، وصنف فى الحديث ، وإن كانت معرفته فى الحديث أقل من معرفته فى الفقه . وله رسالة فى الأسطرلاب .

وابن جماعة ، عز الدين بن بدر الدين (توفى سنة ٧٦٧ ﻫ) ، وولى قضاء مصر وألف فى الحديث « تخريج أحاديث الرافعى » ، وبلغ عدد شيوخه ألفاً وثلاثمائة . ودرس بالخشابية .

ومن كبار الشافعية بمصر ابن دقيق العيد ، تقى الدين محمد بن مجد الدين على بن وهب . . المنفلوطى الفقيه الشافعى ، قاضى القضاة (ولد ٦٢٥ ﻫ – وتوفى سنة ٧١٢ ﻫ) وكان مالكيًّا ثم انتقل إلى مذهب الشافعية ، وصار من أئمة العلماء فى المذهبين . ودرس بالإمام الشافعى ، ودار الحديث الكاملية . وصنف التصانيف المشهورة كالإلمام فى الحديث ، وشرحه « الإمام » ، و « الاقتراح » فى أصول الدين ، « وشرح مختصر بن الحاجب » فى فقه

---

(١) الدرر الكامنة ١/ ٢٨٥ .

(٢) الطالع السعيد .

(٣) طبقات الشافعية .

(٤) شذرات الذهب ٦/ ٢٢ .

المالكية ولم يكمله . و « شرح عمدة الأحكام » للحافظ عبد الغنى [١] . وشرح مقدمة المطرز فى أصول الفقه .

قال فيه عز الدين بن عبد السلام : ديار مصر تفخر برجلين فى طرفيها ، ابن المنير بالإسكندرية وابن دقيق العيد بقوص . وذكر الصفدى أنه كان مغرماً بالكيمياء ، وأنفق فيها مالا وعمراً [٢] . وله ديوان شعر جيد ، وروى عنه جماعة من كبار فقهاء العصر كابن سيد الناس وعلاء الدين القرنوى ، وعلم الدين الإخنائى .

وابن سيد الناس ، أبو الفتح فتح الدين محمد بن محمد اليعمرى الإمام الحافظ الأديب (ولد ٦٧١ هـ – وتوفى سنة ٧٣٤ هـ) . أشبيلى الأصل ، وقدم إلى مصر بصحبة والده ، وتعلم بمصر والشام . قال الذهبى : ولعل مشيخته يقاربون الألف .

وكان طيب الأخلاق ، بساماً ، صاحب دعابة ولعب ، صدوقاً ، حجة فيما ينقله .

قال عنه البرزالى : كان أحد الأعيان إتقاناً وحفظاً للحديث ، وفقيهاً فى علله وأسانيده ، عالماً بصحيحه وسقيمه ، مستحضراً للسيرة ، له حظ من العربية ، حسن التصنيف ، صحيح العقيدة ، سريع القراءة .

له الشعر الرائق والنثر الفائق . يقول عنه ابن فضل الله : « كان أحد أعلام الحفاظ ، وإمام أهل البلاغة الواقفين بعكاظ ، بحر مكثار ، وخبير فى نقل الآثار » .

وصنف « السيرة النبوية » ، واشتهرت فى عصره وتداولها أيدى الناس ، وشرع فى شرح الترمذى ، وكتب منه مجلداً إلى أول الصلاة ، وديوان شعر

---

(١) راجع فى ترجمته (النجوم الزاهرة ٨/٢٠٧ ، وفوات الوفيات ٢/٤٨٥ ، تاريخ ابن الوردى ٢/٢٥٢ شذرات الذهب ٦/٣٤ ، السلوك ٩٢٩ ، البدر الطالع ٢/٢٢٩) .

(٢) شرح لامية العجم ١/١٢ .

فى المديح النبوى سماه « بشرى الكئيب بذكر الحبيب » ، و « منح المدح» و « المقامات العلية فى الكرامات الجلية » .

وتولى التدريس بمدارس القاهرة ، كالظاهرية ، ولقيه فيها الصفدى ، وأقام عنده قريباً من سنتين[١] .

وآل السبكى : وهم جماعة توارثوا العلم والأدب من بيت مصرى عريق من بلدة السبك المصرية بمديرية الشرقية . وتنتسب الأسرة إلى الخزرج . ورأس هذه الأسرة فى القرن السابع ضياء الدين على بن تمام بن حامد ابن يحيى . . . الأنصارى الخزرجى السبكى . وكان قاضياً . ومنها :

زين الدين السبكى ، أبو محمد عبد الكافى بن ضياء الدين ، وكان قاضياً ومحدثاً . انتقل من سبك إلى القاهرة وأقام بها يعمل بالتدريس ، واشتغل بالحديث ، ثم انتقل إلى المحلة حيث توفى سنة ٧٣٥ ﻫ .

تقى الدين السبكى ، على بن عبد الكافى بن زين الدين ، (ولد سنة ٦٧٣ ﻫ وتوفى سنة٧٥٦ ﻫ) من أشهر رجال الأسرة، ومن أعيان العصر. ولد ببلدة السبك ، وانتقل مع والده إلى القاهرة حيث تلقى تعليمه ، فأخذ عن والده ، وعن جماعة من الشيوخ كابن بنت الأعز ، وعلم الدين العراقى ، وتقى الدين الصائغ ، والدمياطى ، والباجى ، وأبى حيان . وكان عالماً محدثاً ، قاضياً ، فقيهاً ، مفسراً للقرآن ، منطقيا نحوياً .

ودرس بمدارس القاهرة كالمنصورية، والهكارية ودار الحديث الظاهرية، وتولى قضاء دمشق سنة ٧٣٩ ﻫ وظل به مدة ١٦ عاماً ، وكان يدرس فى أثناء توليه القضاء بكثير من مدارس دمشق كالغزالية ، والعادلية ، والأتابكية الكبرى ، والمسرورية ، والشامية البرانية ، ودار الحديث الأشرفية .

---

(١) راجع ترجمته فى النجوم الزاهرة ٩/٣٠٣ وفوات الوفيات ٢/ ٣٤٥ — ٣٤٩ ، الدرر الكامنة ٤/٣١٢ حسن المحاضرة ١٥٠ ، البدر الطالع ٢/٢٤٩ ، شذرات الذهب ٦ / ١٠٨ .

وأراد أن يتولى خطابة الجامع الأموى بدلاً من ابن جلال الدين القزوينى ، فرفض العامة فنزل عن الخطابة ففرح العامة لذلك .

وعاد تقى الدين بعد استعفائه من القضاء لشيخوخته إلى مصر فى محفة، وتوفى بعد عودته بقليل ، وبلغ من العمر ثلاثاً وتسعين سنة .

وكان يقرأ ويؤلف، وله تصانيف كثيرة قيل إنها بلغت نحو مائة وخمسين كتاباً ، مطولا ومختصراً ، منها تفسير القرآن ، وشرح المنهاج فى الفقه ، وبعض الرسائل فى اللغة والنحو وعلق تاريخاً للمتجددات فى أيامه .

وقال عنه ابن حجر : « كان أنظر من رأيناه من أهل العلم ، ومن أحبهم للعلوم وأحسنهم كلاماً فى الأشياء الدقيقة ، وأجلدهم على ذلك ، وكان فى غاية الإنصاف والرجوع إلى الحق فى المباحث ولو على لسان آحاد الطلبة »[1] .

وعرف من أبنائه ثلاثة ذكور وامرأة هم : بهاء الدين أبو حامد ، وجمال الدين (٧٢٢ — ٧٥٥) وتاج الدين (٧٢٨ — ٧٧١ هـ) ، وستيتة (٧١٦ — ٧٧٦ هـ) .

ستيتة بنت تقى الدين . ولدت بالقاهرة سنة ٧١٦ هـ ، وحضرت على حسن بن عمر الكردى وسمعت من غيره ، وتكنى أم الخير ، وسمع منها أبو حامد بن ظهيرة ، وحدث عنها ، وماتت بالقاهرة سنة ٧٧٦ هـ[2] .

بهاء الدين السبكى ، أبو حامد ، أحمد بن على بن عبد الكافى (ولد سنة ٧١٩ هـ وتوفى سنة ٧٦٣ هـ)، القاضى الشافعى العلامة المدرس ، بدأ دراسته فى الخامسة ، وسمع على جماعة من الشيوخ كالحجار والدبوسى وابن جماعة بالقاهرة ، وابن الجزرى والمزى بدمشق .

---

(١) راجع فى ترجمته : تاريخ ابن إياس ١/٢٩٧ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٨٣ ومواضع أخرى ، وشذرات الذهب ٦ / ١٨ ، ١٤١٩٦ ، والنجوم الزاهرة ١٠/٣١٩ بغية الوعاة ٣٤٢ ، السلوك ٢/٣٨٩ .

(٢) الدرر الكامنة ٢/١٣٠ .

قال الذهبي : له فضائل وعلم جيد ، وفيه أدب وتقوى ، وساد وهو ابن عشرين سنة .

وقال ابن حجر : وكانت له اليد الطولى فى علم اللسان ، والعربية والمعانى والبيان . وله « عروس الأفراح » فى شرح تلخيص المفتاح أبان عن سعة دائرة فى علوم البلاغة ، وله تعليق على « الحاوى » ، وعمل قطعة على « شرح المنهاج » لأبيه . وكان شرع فى شرح مختصر الحاجب ، فكتب منه قطعة لطيفة فى مجلد .

وكان خبيراً فى درسه . قال والده ففضله فى درسه على نفسه :

دروسُ أحمدَ خيرٌ من دروس علي ... وذاكَ عند عليٍّ غايةُ الأمَلِ

واعتزل القضاء ، وسافر إلى مكة ليجاور وتوفى بها وله أربع وخمسون سنة[١] .

تاج الدين السبكى ، أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى (ولد سنة ٧٢٧ وتوفى سنة ٧٧١ هـ) وذهب مع والده إلى دمشق سنة ٧٣٩ هـ ، فاشتغل هناك عليه وعلى جماعة من علمائها كالحافظ المزى والحافظ الذهبى وقد لازمه وتخرج به ، وناب عن أبيه فى قضاء دمشق زمناً ، ثم عين قاضياً بعد عزل أخيه بهاء الدين .

واهتم بطلب الحديث فكتبَ الأجزاء والطباق حتى مهر وهو شاب ، واشتغل بطلب الفقه والأصول والعربية . وكان ماهراً فى الأدب ، جيد النظم والنثر ، سريع البديهة، ذا بلاغة وطلاقة لسان ، وجرأة جنان ، وذكاء مفرط وذهن وقاد ، كما يقول ابن العماد .

وصنف كثيراً من التصانيف المفيدة فى شتى فروع العلم والأدب ،

---

(١) راجع ترجمته فى : الدرر الكامنة ١/٢١٢ ، بغية الوعاة ١٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٩٥ ومواضع متفرقة أخرى ، وحسن المحاضرة ١/١٨٥ والنجوم الزاهرة ١٢٢ .

منها طبقات الشافعية الكبرى والصغرى ، وشرح مختصر ابن الحاجب ، وشرح منهاج البيضاوى ، وكتاب فى الأشباه والنظائر ، وجامع الجوامع فى أصول الفقه ٧ مجلدات أتمها سنة ٧٦٢ هـ بالنيرب قرب دمشق ، وهو فى أصول الفقه الشافعى ، ويعد أشهر مؤلفاته فيه ، وهو عمدة فقهاء الشافعية فى زمنه[١] . وشرح السيف المشهور فى عقيدة الأصول لأبى منصور الماتريدى فى فقه الحنفية ، وقصيدة فى الأشعرى ، ومجموعات متفرقة من الشعر ، وفى النحو « ترشيح النحو » ومقامة عن « الطاعون » ، وكتاب « معيد النعم ومبيد النقم » .

وانتشرت تصانيفه فى حياته ، ورزق فيها السعد ، كقول ابن حجر . وتوفى بدمشق سنة ٧٧١ هـ ودفن بمقبرة السبكية بقاسيون[٢] .

وثالث الإخوة جمال الدين الحسين السبكى ابن تقى الدين ، القاضى والأستاذ ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٢ هـ ، وأخذ عن أبى حيان ، وبعض أساتذة أخيه بهاء الدين ، وصحب والده إلى دمشق سنة ٧٣٩ هـ ، وأخذ فيها عن المزى والذهبى ، والنقيب ، ثم عاد إلى القاهرة ، واشتغل بالتدريس فى الهكارية ، ثم عاد ثانية إلى دمشق ودرس بمدارس العذراوية ، والشامية البرانية وساعد والده فى القضاء ، وتوفى سنة ٧٥٥ هـ ودفن فى مقبرتهم .

والفرع الثانى من البيت السبكى من أبناء صدر الدين بن ضياء الدين (توفى سنة ٧١٥ هـ) وصدر الدين ، يحيى بن ضياء الدين السبكى ، ولد بالقاهرة وتعلم بها ، ودرس فى بعض مدارسها كالفاضلية ، والقطبية ، والشافعية (قبة الشافعى) ، واشتغل بقضاء المحلة زمناً ، ثم عاد إلى التدريس وظل يعمل

---

(١) راجع مقدمة الطبعة الأوربية لكتاب (معيد النعم) .

(٢) ترجمته فى البدر الطالع للشوكانى ١/ ٤١٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٢٩٩ ، النجوم الزاهرة ١١/ ١٠٩ ، الدرر الكامنة ٢ /٤٢٧ ، شذرات الذهب ٦/ ٢٢٢ ، حسن المحاضرة ١/ ١٨٥ .

به حتى توفى سنة ٧٢٥ هـ[١] . وأنجب سديد الدين عبد البر وعبد اللطيف .

وأنجب سديد الدين بهاء الدين أبو البقاء، محمد السبكى (٧٢٧–٧٧٧هـ) ويتشابه مع قريبه بهاء الدين فى اللقب . ولد بالقاهرة ، وتلقى العلم ، واشتغل بالقضاء والوعظ والتدريس بمدارس القاهرة ، ثم انتقل مع عمه تقى الدين وأبنائه إلى دمشق ، وناب عنه فى القضاء فجمع بين القضاء والتدريس بمدارس دمشق الأتابكية ، والظاهرية ، والشامية البرانية ، والقيمرية والغزالية والعادلية . ثم عين سنة ٧٦٥هـ قاضياً للعسكر ، فعاد للقاهرة ، وانتهى به الأمر فى القضاء إلى تعيينه قاضياً للقضاة بمصر سبع سنوات ، ثم قاضياً للقضاة بالشام ، ٧٧٥ هـ وعاد للتدريس مع القضاء بالغزالية والعادلية ودار الحديث الأشرفية ، وتولى خطابة الجامع الأموى الكبير قبيل وفاته . وتوفى سنة ٧٧٧هـ . وقال ابن العماد إنه لم يصنف شيئاً[٢] .

تقى الدين أبو الفتح محمد السبكى (٧٠٤ – ٧٤٤ هـ) ابن عبد اللطيف ابن صدر الدين محدث ، وأستاذ ، اشتغل بالتدريس بالقاهرة مع جده صدر الدين ، وعمه تقى الدين ، ومع قطب الدين السنباطى وأبى حيان . ولازم أبا حيان أثير الدين فى العربية والنحو سبعة عشر عاماً . ثم ذهب مع بنى عمومته إلى دمشق ، وصاهر عمه تقى الدين وناب عنه بدمشق فى القضاء ولازم الشيخ تاج الدين التبريزى . ودرس بمدارس دمشق السيفية ، والركنية ، وبالمشهد الحسينى والجامع الطولونى بالقاهرة .

وكتب تاريخاً ، أرخ فيه أحداث عصره .

---

(١) راجع مقدمة معيد النعم .

(٢) راجع فى ترجمته : الدرر الكامنة ٣/٤٣٣ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٥٤ ، تاريخ ابن إياس ١/٢٩٦ ، النجوم الزاهرة ١١/٢٨ ، بغية الوعاة ٦٦ ، وذكر أنه صنف قطعة من مختصر (المطلب) ، وقطعة من شرح الحاوى ، وقطعة من شرح ابن الحاجب. وترجم له ترجمة مطولة .

وابن كثير ١٤/٢٥٣ ، ٢٦٢ .

قال فيه ابن فضل الله العمرى : « ليس فى الفقهاء بعد ابن دقيق العيد آدب منه . وكان قد تأدب بشافع بن على ، مع الدين المتين والورع التام [١] .

ولى الدين عبد الله بن بهاء الدين محمد بن عبد البر السبكى (٧٣٥هـ-٧٨٥هـ) ولد بالقاهرة وأخذ عن والده بهاء الدين وعن المزى بدمشق ، وعين قاضياً ، وناظراً لديوان المكرس وتولى خطابة جامع دمشق سنة ٧٧٧ هـ مع قضائها ، ودرس ببعض مدارسها كالشامية الجوانية ، والأتابكية ، والقيمرية ، ودار الحديث الأشرفية [٢] .

بدر الدين السبكى محمد بن بهاء الدين ولد سنة ٧٤١ هـ ، وأخذ عن والده وغيره ، وشارك والده فى التدريس والقضاء بالقاهرة ودمشق ، وتولى قضاء دمشق بعد ابن جامع ثم عزل بعد سنة ، وظل بعيداً عن الوظائف ثلاث سنوات ثم ولى قضاء القضاة سنة ٧٨١ هـ ، ثم عزل ، وتولى خطابة الجامع الكبير بدمشق ، ثم استدعى إلى القاهرة لتولى منصب قاضى قضاة مصر حتى توفى سنة ٨٠٣ ، ودرس فى مصر بالمنصورية ، والشافعية (قبة الشافعى) ، وفى دمشق درس بالغزالية .

وبلغ عدد من اشتهر من أفراد هذه الأسرة فى القرنين السابع والثامن ما يقرب من اثنى عشر عالماً وفقيهاً وقاضياً ومدرساً ، تولى بعضهم المناصب الدينية والمدنية الكبرى .

ومن فقهاء الشام المعدودين فى هذا العصر ابن تيمية [٣] ، وابن قيم

---

(١) راجع ترجمته فى الدرر الكامنة ٤ / ٢٦ .

(٢) راجع مقدمة معيد النعم .

(٣) راجع فوات الوفيات ١ / ٥٧٠ والسلوك ١ / ٣٩٦ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٦٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٤ / من صفحة ١٣٥-١٤١ ، تاريخ ابن الوردى ٢ / ٢٨٥ ، ٢٨٩ وشذرات الذهب ٦ / ٨١ ، الدرر الكامنة ١ / ١٤٤ .

الجوزية[١] ، وابن كثير[٢] ، من الحنابلة ، ونجم الدين بن صصرى (٦٥٥ – ٧٢٣ هـ)[٣] .

والبارزى نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم (توفى سنة ٧٣٨ هـ)[٤] ، وكان شيخ الشافعية بالشام ، وله تفسير قرآن سماه « روضات الجنات » عشرة مجلدات ، وكتاب « الوفا فى أحاديث المصطفى » فى مجلدين و « بديع القرآن » ، وشرح الشاطبية ، و « الناسخ والمنسوخ » . ومجموعة أخرى[٥] . قال الصفدى : « برع فى الفقه وكان من بحور العلم » .

وعلاء الدين القونوى ، على بن إسماعيل الشافعى الفقيه[٦] تولى قضاء دمشق ، وألف كثيراً من كتب الفقه . وقال المقريزى : كان كثير الإنصاف ، كثير الكتب .

وابن الأذرعى ضياء الدين أبو الحسن على بن سليمان الشافعى (٦٤٦ – ٧٣١ هـ) ، تولى القضاء ستين سنة ، ومن كتبه « نظم التنبيه » فى الفقه منظومة بلغت ١٦ ألف بيت . وله أزجال وموشحات[٧] .

والأذرعى ، شهاب الدين أحمد بن حمدان . سمع من جماعة من كبار شيوخ العصر وأفتى وراسل السبكى تاج الدين وجمعها فى كتاب « المسائل الحلبية » وتوفى سنة ٧٨٣ هـ[٨] .

---

(١) ترجمته فى : البداية والنهاية لابن كثير ١٤ /٢٣٤ وتاريخ ابن إياس ١٩٥ ، وبغية الوعاة ٢٥ ، النجوم الزاهرة ٨/٢٤٩ ، السلوك ٢/٢٧٣ قسم ١ ، وشذرات الذهب ٦ / ١٧٠ .

(٢) سنذكره مع المؤرخين .

(٣) البدر الطالع للشوكانى ١/١٠٧ .

(٤) شذرات الذهب ٦/١١٩ .

(٥) النجوم الزاهرة ٩/ ١١٩ وراجع نكت الهميان ٣٠٢ .

(٦) ترجمته فى السلوك ٢/٣١٥ ، والبدر الطالع ١/٤٤١ .

(٧) السلوك ٢/٣٣٨ .

(٨) الدرر الكامنة ٢/١٢٦ .

والغزى ، عيسى بن عثمان ، لازم تاج الدين السبكى بدمشق ، ودرس بالجامع الأموى ، وأفتى وصنف « شرح المنهاج » الكبير والمتوسط والصغير ، واختصر مهمات الأسنوى ، وله « آداب القضاء » ولخص زيادات الكفاية عن الرافعى فى مجلدين(١) .

وابن مفلح الحنبلى شمس الدين أبو عبد الله المقدسى ، شيخ الإسلام العلامة ، قال فيه أبو البقاء السبكى : ما رأت عيناى أحداً أفقه منه ، وقال ابن القيم: ما تحت قبة السماء أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح . وصنف « الفروع » فى ٤ مجلدات وقد اشتهر فى الآفاق ، و « الآداب الشرعية »(٢) .

٣

العلوم الإنسانية ، التاريخ والمؤرخون

ويهتم علماء العصر بالتاريخ فى صوره المختلفة ، من تاريخ عام للدول الإسلامية إلى جمع لتاريخ البشر منذ بدء الخليقة ، منضماً إليه تاريخ بعض الأمم المجاورة . ومن رواد هذا الاتجاه أبو الفداء صاحب « المختصر فى تاريخ البشر » ، وابن كثير صاحب « البداية والنهاية » . ومنهم من اتجه إلى التأريخ لدولة أو لبلد أو إقليم فى فترة من الزمن ، أو عصر من العصور ، كأبى شامة صاحب الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية . وابن واصل فى « مفرج الكروب » فى أخبار بنى أيوب ، وابن العديم فى « تاريخ حلب » ، والأدفوى فى الطالع السعيد ، وإن كان هذا الأخير يتجه إلى ترجمة الرجال.

وأما السير والتراجم ، فمنها السير العامة مثل « وفيات الأعيان » للقاضى ابن خلكان و « فوات الوفيات » لابن شاكر ، و « الوافى بالوفيات » لابن شاكر

---

(١) البدر الطالع ١/٥١٥ .

(٢) شذرات الذهب ٦/٢٠٠ .

الكردى ، و « العبر فى أخبار من غبر » ، ومنها السير الخاصة لجماعة من الرجال تربطهم رابطة ما ، كسير رجال المذاهب ومنها طبقات الشافعية للسبكى و « طبقات الحنابلة » لابن رجب ، و « الديباج المذهب فى أهل المذهب » فى طبقات رجال المالكية .

وجمع الصفدى بعض الأعيان ممن كان ضريراً أو أضر فى حياته وسماه « نكت الهميان فى نكت العميان » . ومن ذلك طبقات الصحابة ، والقراء ، والمحدثين . واهتموا بكتب الطبقات والرجال لاهتمامهم بالحديث ورواته ، وتعصبهم للسنة ، وافتخارهم بالشيوخ ، مما دفع إلى ظهور لون من الترجمة يختلف عن كتب الطبقات العادية عرف بمعجم الشيوخ ، وكان ظهوره قبل هذا العصر فى القرن السادس ولكنه انتشر بعد ذلك ، وعدت معاجم الشيوخ من بين كتب الطبقات الهامة ، خاصة فى عصر المؤلف . وبلغ عدد شيوخ بعضهم ما يزيد على الألف والألفين أحياناً .

ولم يكن المؤرخون جميعاً يخلصون النقل ، أو يتصفون بالإنصاف فى الحكم على الأحداث والرجال ؛ بل قد يغلب بعضهم هواه عصبية لمذهب أو رأى أو كراهة لجماعة أو إنسان أو لمحبة وولاء . وممن اتهم فى السير بالتحامل ابن قايماز الذهبي[1] ، والسخاوى ، كما أن بعض سير السلاطين امتلأت بعبارات الملق والثناء الزائد ، والزلفى التى تخرج بالمؤرخ عن حدود الصدق ، وجادة الحق . يقول السبكى وقد ذكر المؤرخين : « ومنهم المؤرخون ، وهم على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وربما نقلوا بمجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق . فلابد أن يكون المؤرخ عالماً عدلا ، عارفاً بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه ، وربما كان الباعث له على الغض من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على خلاف شنيع ، فيقع

---

(١) تتبع الشوكانى كثيراً من نقائصه هو وابن حجر فى البدر الطالع .

فيهم ، أو يقصر فى الثناء عليهم لذلك . وكثيراً ما يتفق هذا لشيخنا الذهبى رحمه الله تعالى فى حق الأشاعرة »[١] .

التاريخ العام :

ومن أشهر المؤرخين فى التاريخ العام يوسف قزاوغلى بن عبد الله البغدادى ، ثم الدمشقى الحنفى المعروف بسبط ابن الجوزى .ولد سنة ٥٩٧ وتوفى سنة ٦٥٤هـ. ونشأ ببغداد واشتغل فيها بالعلم ثم قدم دمشق واستوطنها . ورحل كثيراً وسافر للبلاد ،وجلس للوعظ وكان له لسان حلو فيه . وفى التذكار . ومن مصنفاته : مرآة الزمان . قال ابن تغرى بردى : « وهو من أجل الكتب » ، ونقل منه فى النجوم الزاهرة[٢] .

وابن الساعى ، على بن أنجب (ت ٦٧٤ هـ) . وقرأ على ابن النجار تاريخه الكبير لبغداد ، وألف كتاباً كبيراً فى التاريخ فى ٢٦ مجلداً[٣] .

وأبو الفداء ، الملك المؤيد، إسماعيل بن الأفضل على بن الملك المظفر محمود الأيوبى (ولد سنة ٦٧٢– وتوفى ٧٣٢ هـ) . وبرع فى كثير من العلوم كالتاريخ وعلم الهيئة إلى جانب الفقه والعلوم الدينية . وقرب كثيراً من أهل العلم والأدب ، كابن نباتة الذى لازمه فترة من الزمن وأجرى عليه راتباً[٤]. وأعطاه السلطان الناصر محمد حماة سنة ٧٢٠ هـ ، وجعله بها سلطاناً يفعل بها ما يشاء ، وليس لأحد من الدولة المصرية له معه حديث ، وأركبه فى القاهرة بشعار المملكة ، وأبهة السلطنة ، ولقب بالملك الصالح ثم بالمؤيد . وكان الناصر يكتب إليه « أخوه محمد بن قلاوون ، أعز الله المقام الشريف العالى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى »[٥] .

---

(١) معيد النعم ١٠٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣٩/٧ .

(٣) شذرات الذهب ٣٤٤/٥.

(٤) النجوم ٢٩٣/٩ .

(٥) فوات الوفيات ٣١/١ .

وكان ممدحاً من الشعراء . قال ابن حجر : « ولا أعرف في أحد من الملوك من المدائح ما لابن نباتة والشهاب محمود وغيرهما فيه إلا سيف الدولة . وقد مدح الناس غيرهما من الملوك كثيراً ولكن اجتمع لهذين من الكثرة والإجادة ما لم يتفق لغيرهما »[1] .

وألف كثيراً من الكتب ، نذكر منها في التاريخ « المختصر في أخبار البشر » . قال الذهبي علقت منه أشياء[2] .

وابن الفوطي ، عبد الرازق بن أحمد بن محمد المروزي الأصل ، البغدادي (ولد ٦٤٢ – وتوفي ٧٢٢ هـ) الحافظ المؤرخ الأخباري ، قال ابن العماد: مهر في التاريخ والشعر ، وأيام الناس . ونشأ ببغداد واشتغل بها حتى أسر في غزو التتار سنة ٦٥٦ هـ ، فاتصل في دولتهم بالعلامة نصير الدين الطوسي . وكانت له يد طولى في التراجم . وله شعر كثير ومجموع أدبيات سماه « الدرر الناصعة في شعر المائة السابعة » ، قال عنه ابن العماد إنه في عدة مجلدات[3] .

وله تاريخ كبير جداً في عدة مجلدات على ترتيب الحوادث من آدم إلى خراب بغداد . واختصره في كتاب سماه « مجمع الآداب ومعجم الأسماء والألقاب » في خمسة مجلدات[4] . وتاريخ آخر سماه « درر الأصداف في نحور الأوصاف » رتبه على وضع الأجود من المبدأ إلى المعاد في عشرين مجلداً . وكتاب « تلقيح الأفهام في المختلف والمؤتلف » مجدول ، وذيل على تاريخ بغداد لابن الساعي نحو من ثمانين مجلداً[5] .

---

(١) الدرر الكامنة ١/٣٧٢ .

(٢) فوات الوفيات ١/٣١ ، وراجع النجوم الزاهرة ٩/٢٩٥ ، وشذرات الذهب ٦/٩٨ ، والبدر ١/١٥١.

(٣) النجوم ٩/٢٦٠ .

(٤) شذرات ٦/٦٠ .

(٥) وقيل إنه في خمسين مجلداً . النجوم ٩/١٦٠ .

وساعده فى جمع مادة كتبه مباشرة خزانة كتب مراغة ، وكان بها أربعمائة ألف مصنف .

والبرزالى ، أبو محمد القاسم بن محمد (توفى سنة ٧٣٩ هـ) وله تاريخ مشهور ذيل به على أبى شامة من وفاته وتاريخ ولادة المؤلف[١] .

وابن الجوزى ، شمس الدين محمد بن إبراهيم (توفى سنة ٧٣٩ هـ) ، وله كتاب « المنتظم » وهو كتاب جليل نقل عنه جماعة من مؤرخى العصر كالبرزالى ، والحافظ المزى ، والحافظ الذهبى[٢] .

وابن الوردى ، عمر ، وله كتاب مختصر فى التاريخ[٣] .

والذهبى ، شمس الدين ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ولد سنة ٦٧٣ هـ ، وتوفى سنة ٧٤٨ هـ) ، واختص برجال الحديث وطبقاتهم ، وبرع فى هذا حتى صار حجة . قال فيه الصفدى : « ويصح إلى الذهب نسبته وانتماؤه »[٤] . سمع كثيراً بدمشق وبعلبك ، وحمص وحلب وحماة وطرابلس وبلبيس والإسكندرية والقاهرة والقدس . قال الصفدى : « وأكثر من التصنيف » واجتمع به الصفدى وأخذ عنه وقرأ له كثيراً وقال عنه : « لم أجد عنده جمود المحدثين ولا كوذنة النقلة » .

وكتابه الكبير فى التاريخ « تاريخ الإسلام » مرجع عظيم ، قال ابن تغرى بردى : « وهو أجل كتاب نقلت عنه فى هذا التاريخ يعنى النجوم الزاهرة »[٥] .

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ٦٠ وراجع ترجمته فى : النجوم ٩/ ٢٦٠ ، الدرر الكامنة ، وشذرات الذهب ٦/ ٦٠ ، والبدر الطالع ١/ ٣٥٧ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٨٦ .

(٣) سيرد ذكره فى الشعراء .

(٤) نكت الهيمان ٢٤٢ .

(٥) النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٢ وراجع ترجمته فى : تاريخ ابن إياس ص ١٩٩ ، ونكت الهيمان ٢٤٢ وفوات الوفيات ١/ ٣٧١ .

وقرأه كمال الدين ابن الزملكانى جزءاً جزءاً وقال : هذا كتاب علم . وله « طبقات القراء » و « طبقات الحفاظ » و « ميزان الاعتدال فى الرجال » و « سير النبلاء » و « المشتبه فى الأسماء والأنساب »، و « تهذيب التهذيب » و « العبر فى خبر من غبر » .

وابن كثير ، إسماعيل بن عمر المفسر صاحب التواريخ ، وأشهرها « البداية والنهاية » (ولد سنة ٧٠٠ أو فى حدودها وتوفى سنة ٧٧٤ هـ » البصرى الأصل ، الدمشقى الدار . قدم دمشق صبيًّا ، وعمره سبع سنوات ، وسمع من ابن الشحنة ، وابن عساكر ، ولازم المزى وتزوج بابنته ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وسمع على برهان الدين العزازى . وانتهت إليه رياسة العلم والتاريخ والحديث والتفسير . ومن جملة شيوخه ابن تيمية ، وقد فتن بحبه ، ولقى المحن بسببه . واشتهر بالضبط والتحرير . وكان حسن المفاكهة .

واحتذى فى « البداية والنهاية » حذو ابن الأثير فى الكامل[١] ، وجعله ٥٤ جزءاً فى عشرة مجلدات . وله « طبقات الشافعية » . وسارت كتبه فى الناس ، وانتفعوا بها فى حياته وبعد وفاته .

وشهاب الدين ابن فضل الله العمرى[٢] وله كتاب « مسالك الأبصار » وشهاب الدين النويرى ، أحمد بن عبد الوهاب صاحب « نهاية الأرب »[٣].

وفى التاريخ الخاص ألف أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل (توفى سنة ٦٦٥ هـ) كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، واختصر تاريخ دمشق لابن عساكر[٤] ، وذيل الروضتين . وهو دمشقى تعلم وأقام ببلده

---

(١) راجع ترجمته فى : شذرات الذهب ٦/ ٢٣٠ والدرر ١/ ٣٧٤ ، النجوم ١١/ ١٢٤ ، البدر الطالع ١/ ١٥٣ وابن إياس ١/ ٢٩٨ .

(٢) سترد ترجمته بين الأدباء .

(٣) السلوك ٢/ ٣٦٣ قسم ٢ .

(٤) البداية والنهاية ١٣ /٢٥٠ وراجع النجوم ٧ / ٢٢٤ ، شذرات الذهب ٥ / ٣١٩ .

ودرس بدار الحديث الأشرفية[١] .

كذلك ألف ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (توفى سنة ٦٩٧هـ) مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب . وهو من حماة ، وتعلم بدمشق ، وقدم القاهرة سنة ٦٩٠ هـ وسمع عليه جماعة بحماة ودمشق ، وسمع منه أبو حيان بالقاهرة وقال فيه : « وهو من بقايا من رأيناه من أهل العلم الذين ختمت بهم المائة السابعة »[٢] . وكان من أذكياء الناس . وغلب عليه الفكر إلى أن صار يذهل عن أحوال نفسه ، وعمن يجالسه .

وابن منير الحنفى قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور بن منير (توفى سنة ٧٣٥ هـ) وألف فى تاريخ مصر[٣] .

والدوادار بيبرس بن عبد الله المنصورى ، من مماليك المنصور قلاوون ، ألف تاريخاً سماه « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » فى أحد عشر مجلداً ، أعانه على تأليفه كاتبه ابن كبر النصرانى[٤] .

والإدفوى ، جعفر بن ثعلب (توفى سنة ٧٤٨ هـ) ، ألف « الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد » ، ولد وتعلم بإدفو ثم أتم تعليمه بقوص ، وانتقل إلى القاهرة مع أستاذه ابن دقيق العيد ، وله كتاب « البدر السافر عن أنس المسافر » جمع فيه مختارات من الشعر[٥] .

وكمال الدين بن العديم عمر بن أحمد بن هبة الله (توفى ٦٦٦ هـ) ألف « تاريخ حلب » ولم يتمه ، وروى عنه الدوادارى ، وذيل له القاضى علاء الدين على بن خطيب الناصرية ، ولكنه قصر فيه . قال ابن تغرى بردى : « وقفت عليه – الذيل – فلم أجده جال حول الحمى ولا سلك فيه

---

(١) بغية الوعاة ٢٩٧ .

(٢) « نكت الهيمان » ٢٥٠ .

(٣) السلوك للمقريزى ٢/٣٨٨ ثان وحسن المحاضرة ١٥٠ .

(٤) ترجمته فى الدرر الكامنة ١/٥١٠ ، والنجوم الزاهرة ٩/٢٦٤ .

(٥) البدر الطالع ١/١٨٣ .

مسلك المذيل عليه من الشروط »[١] . وله كتب أخرى فى التاريخ مثل « الدرارى فى الذرارى » صنفه للملك الظاهر غازى وقدمه له يوم ولد ولده العزيز . وكتاب « الأخبار المستفادة » فى ذكر بنى جرادة . وكان لا يمل القراءة أو التأليف ؛ وإذا سافر يركب فى محفة تشيله بين بغلين ويجلس فيها ويكتب . وكان يسافر فى البلاد ، ويتردد بين مصر وحلب ، فإذا جاء مصر يلازمه أبو الحسين الجزار الشاعر . وتوفى بمصر ودفن بسفح المقطم[٢] .

الطبقات والسير :

واهتم مؤرخو العصر بكتابة الطبقات والسير ، ومنهم من اشتهر بين الدارسين فى مختلف العلوم ؛ كابن خلكان ، وجمال الدين القفطى ، وابن شاكر ، وصلاح الدين الصفدى وتاج الدين السبكى .

وقد ألف ابن خلكان كتابه الفريد « وفيات الأعيان » الذى صار عمدة الباحثين فى التراجم والسير . وكان قاضياً تولى قضاء دمشق مرتين ، وجاء إلى القاهرة وناب فى الحكم بها عن قاضى القضاة بدر الدين السنجارى . وتصدى للتدريس والفتوى ، وأقام بها سبع سنوات . وكان محبباً إلى الناس ، حلو المذاكرة . مدحه بعض شعراء عصره . وله شعر ، ونثر جيد .(وتوفى ودفن بدمشق سنة ٦٨١ هـ)[٣] .

وألف القفطى جمال الدين بن يوسف (توفى ٦٤٦ هـ) كتاباً فى طبقات النحاة سماه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » ، وله كذلك « أخبار المصنفين وما صنفوه » ، و « تاريخ اليمن » و « تاريخ مصر إلى أيام صلاح الدين » ، و « تاريخ بنى بويه » ، و « أشعار اليزيديين »[٤] .

---

(١) فوات الوفيات ٢/٢٠١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٢٠٩ .

(٣) السلوك ٥٤٢ .

(٤) راجع ترجمته فى شذرات الذهب ٥/٣٧٢ ، النجوم الزاهرة ٧/٣٥٤ ، السلوك ١/٧١١ تاريخ ابن الوردى ٢/٢٣٠ .

وابن أبى شهبة صاحب طبقات الشافعية ، وتاج الدين السبكى صاحب الطبقات الكبرى والصغرى ، وابن رجب الحنبلى صاحب طبقات الحنابلة .

وابن حجر العسقلانى صاحب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، و « رفع الإصر عن قضاة مصر » .

وشارك فى كتابة السيرة جماعة من كتاب العصر وأدبائه مثل ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار ، ومحيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء، صاحب « سيرة الظاهر بيبرس » ، و « سيرة المنصور قلاوون » ، و « شرف الدين محمد بن موسى المقدسى الكاتب » صاحب « السيرة المنصورية » .

وابن الدواداري صاحب « سيرة الملك الناصر محمد » .

٤

علوم اللغة

النحو والنحاة

كان الاهتمام بعلوم اللغة واضحاً فى هذا العصر، وخاصة بالنحو ورجاله . وكان هذا الاهتمام لازماً لخدمة علوم السنة ، القرآن والحديث والتفسير ، وظهر جماعة من كبار أئمة النحو وبلغ اهتمامهم بالنحو درجة من الهوس حتى انحرف جماعة عن الجادة ، واهتموا بالقشور دون اللباب . قال السبكى : « ومن العلماء طائفة استغرق حب النحو واللغة عليها ، وملأ فكرها فأداها إلى التقعر فى الألفاظ وملازمة حوشى اللغة ، بحيث خاطب به من لايفهمه . ونحن لاننكر أن الفصاحة فن مطلوب ، واستعمال اللغة عزيز حسن ، ولكن مع أهله ومن يفهمه »(١) . وقال : « ومنهم من شغل نفسه بالألفاظ وأعرض عن معانيها بحيث انتهى به الحال إلى ضرب غريب من الخطأ » . وتندر الأدباء والمتأدبون بالنحويين واللغويين المتقعرين ، ورووا النوادر والحكايات الساخرة وصنع أحد متأدبى المصريين مقامة هزلية فى لقاء بين لغوى نحوى من المتقعرين وإسكاف ، رواها ابن شاكر(٢) ، وروى السبكى جملة من النوادر عن نحويى عصره .

ويكاد لايخلو عالم أو فقيه من اهتمام بالنحو، ونجد كثيراً من الفقهاء علماء فى النحو. وبلغ اهتمامهم باللغة والنحو حفظ أمهات كتبهما ، وخاصة المختصرات المشهورة التى بدأت تظهر فى هذا العصر والعصور التالية «كألفية ابن مالك» .

ومما اشتهر من كتب فى هذين العلمين : الكافية والشافية ، لابن الحاجب،

---

(١) معيد النعم ١٣٢ .

(٢) فوات الوفيات . .

والألفية لابن مالك ، وتناولها بالشرح جماعة . وكثرت الشروح ، خاصة على الألفية .

ومن النحويين ابن الحاجب ، عثمان بن عمر (توفى ٦٤٦ هـ) صاحب «المقدمة» و «الكافية» فى النحو ، و «المقدمة» ، أو الشافية فى التصريف وشرحهما . وشرح مقدمة الزمخشرى فى النحو ، و «فوائد مجموعة» تكلم فيها عن آيات وأحاديث . قال الإدفوى : و «كلها متقنة كثيرة التحقيق والتدقيق» .

وابن النحاس ، بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبى نصر الإمام العلامة الحجة الحلبى الأصل المصرى شيخ العربية فى عصره بالديار المصرية (ولد سنة ٦٢٧ هـ بحلب) وكان يمشى بالقاهرة بين القصرين بقميص وطاقية على رأسه فقط . وكان حسن الأخلاق ، فيه ظرف النحاة وانبساطهم . وكان له صورة كبيرة فى صدور الناس ، معروفاً بحل المشكلات ، لم يتزوج قط واقتنى كتباً نفيسة ، وكان كثير الذكر ، كثير الصلاة ، ثقة ، حجة ، يسعى فى مصالح الناس ، ولا يدخر شيئاً . وكان عنده من أصحابه ومن الطلبة من يأكل على مائدته .

وكان لايكلم أحداً فى حل النحو إلا بلغة العوام ، لا يراعى الإعراب .

أخذ عنه أثير الدين أبو حيان النحوى الأندلسى الأصل المصرى الدار . وقال فيه : «ولم ألق أحداً أكثر سماعاً لكتب الأدب من الشيخ بهاء الدين وانفرد بسماع الصحاح للجوهرى .

تولى التدريس بمدارس القاهرة ، والفسطاط ، منها جامع ابن طولون ، والقبة المنصورية وكان يتولى بها درس التفسير . وقصده كثير من التلاميذ ، ولم يهتم بالتصنيف إلا إملاء .

قال ابن شاكر : وكان من أذكياء العالم . وروى الصفدى أن بعض العامة رأوه جالساً قرب مقياس النيل بالروضة يقطع أبياتاً من الشعر فظنوه

يسحر للنيل ، فدفعوه فوقع فى الماء وغرق وكانت وفاته سنة ٦٨٩ هـ[١] .

وابن مكتوم ، أحمد بن عبد القادر (ولد سنة ٦٦٢ هـ) وأخذ عن بهاء الدين بن النحاس ، وغيره ، ولازم أبا حيان دهراً طويلا . وتقدم فى الفقه والنحو واللغة . ودرس وناب فى الحكم . وشرع فى الجمع بين « العباب » و « المحكم » فى اللغة . وله كتاب « المتناه فى أخبار النحاه » . قال ابن حجر : « رأيت منه الكثير بخطه ، من ذلك مجلدة فى المحمدين خاصة . وجمع من تفسير أبى حيان مجلداً سماه « الدر اللقيط من بحر المحيط » قصره على مباحث أبى حيان مع ابن عطية والزمخشرى »[٢] .

وأبو حيان ، أثير الدين محمد بن يوسف بن على ، الغرناطى (ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ) وتعلم القرآن وعلوم الدين واللغة بالأندلس والمغرب والجزائر ، ثم وفد إلى مصر ، وأقام بالإسكندرية زمناً ثم ذهب إلى القاهرة، وجعلها مقاماً . وسافر إلى كثير من بلدان المشرق ، الحجاز ، والعراق، والشام وطلب العلم واجتهد فيه وحصل كثيراً ، وحصل على إجازات العلماء . وصار إمام النحويين فى وقته . قال الصفدى : « الشيخ الإمام الحافظ العلامة ،فريد العصر وشيخ الزمان ، وإمام النحاة » . وقال ابن شاكر : « وأما النحو والتصريف فهو إمام الدنيا فيهما . حصّل الكتب الكثيرة، وأكثر من الاطلاع . وقد لازم ابن النحاس بمصر ، وأخذ عنه النحو والأدب ، وبلغ شيوخه ٤٥٠ شيخاً » . وذكر الصفدى أنه لم يره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر فى كتاب .

وكان ثبتاً فى اللغة عارفاً بما ينقله منها ، وخدم النحو أكثر عمره حتى صار لايذكر أحد فى أقطار الأرض غيره كما قال ابن حجر . وخدم مؤلفات ابن مالك فى النحو والتصريف . وهو الذى جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك،

---

(١) راجع ترجمته فى بغية الوعاة ص ٦ ، والسلوك ١/٨٨١ ، فوات الوفيات ٢/٣٥١ .

(٢) الدرر الكامنة ١/١٧٦ .

ورغبهم فيها وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لججها وفتح لهم مغلقها ، والتزم ألا يقرئ أحداً إلا إن كان فى سيبويه أو فى التسهيل لابن مالك أو فى مصنفاته ويقول عن مقدمة ابن الحاجب : هذه نحو الفقهاء .

وتتلمذ عليه جماعة من العلماء والأدباء فى النحو واللغة والأدب ؛ قرأ عليه صلاح الصفدى الأشعار الستة ، والمقامات الحريرية ، وسقط الزند للمعرى[1] .

وسمع منه تقى الدين السبكى وولداه ، وجمال الدين الأسنوى ، وابن عقيل[2] . قال الصفدى : قرأ الناس عليه وصاروا أئمة وأشياخاً فى حياته .

وبلغت مؤلفاته نحواً من خمسين كتاباً فى اللغة والنحو والأدب والتفسير والتاريخ . قال الصفدى : « وله التصانيف التى سارت وطارت ، وانتشرت ، وانتثرت ، وقرئت ودريت ، ونسخت وما نسخت ، أخملت كتب الأقدمين وألهت المقيمين بمصر والقادمين » .

ومنها « البحر المحيط » فى التفسير ، وهو كتاب جامع ، تعرض فيه لآراء كثير من المفسرين السابقين وناقشهم ؛ من أمثال الزمخشرى وابن عطية . وله « إتحاف الأريب بما فى القرآن من الغريب » و « شرح كتاب سيبويه » ، و « التجريد لأحكام سيبويه » ، و « التذييل والتكميل فى شرح التسهيل » ، و « التسجيل فى شرح التسهيل » . وله كتب فى القراءات ، نافع ، وابن كثير وأبى عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة الكسائى ، وزيد بن على . وله « الإدراك فى لسان الأتراك » ، و « منطق الخرس بلسان الفرس » ، و « مسلك الرشد » ، و « منهج السالك إلى ألفية ابن مالك » ، و « نهاية الإعراب » ، و « خلاصة التبيان » .

وعن كتابته للسير والتاريخ قال ابن حجر : « وله اليد الطولى فى تراجم

---

(١) نكت الهيمان ٣٨٣ .

(٢) بغية الوعاة للسيوطى ١٢٢ .

الناس ومعرفة طبقاتهم وخصوصاً المغاربة »[1]. وقال ابن شاكر إن له اليد الطولى فى تراجم الناس وطبقاتهم وتواريخهم، وتغيير أسمائهم خصوصاً المغاربة على مايتلفظون به من إمالة وترخيم وترقيق وتفخيم .

وله النظم والنثر والموشحات . قال ابن حجر: « وكان كثير النظم من الأشعار والموشحات » . قال ابن تغرى بردى : « ومذهبى فى أبى حيان أنه عالم لاشاعر».

ويعلق على موشح له أورده فى تاريخه بقوله : « ولم أذكر هذه الموشحة هنا لحسنها ، بل قصدت التعريف بنظمه بذكر هذه الموشحة ، لأنه أفحل شعراء المغاربة فى هذا الشأن » .

وتوفى أبو حيان بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ[2] .

وابن المرحل ، شهاب الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز أبو الفرج المحقق النحوى المصرى . ذكر ابن العماد أنه قد انتهت إليه وإلى أبى حيان مشيخة النحو بالديار المصرية وأخذ عنه ابن هشام ، وهو الذى نوه باسمه ، وعرف بقدره ، وقال إن الاسم كان فى زمانه لأبى حيان والانتفاع بابن المرحل[3] .

وقد تصدر للتدريس بجامع الحاكم بالقاهرة ، وانتفع به الناس ، وكان فاضلا فى اللغة والبيان والقراءات إلى جانب النحو . وكان يشتغل بالتجارة فى الكتب . واهتم بألفية ابن مالك فكان فيها ماهراً ، وأقرأها ودّرسها . وكان شديد التثبت فى النقل .

أخذ عنه العلامة النحوى الشيخ جمال الدين ابن هشام المصرى ، وكان يفضله على أبى حيان وغيره — وتوفى سنة ٧٤٤ هـ بالقاهرة .

وابن هشام ، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن

---

(١) الدرر الكامنة ٤/٣٠٥ .

(٢) راجع ترجمته فى الوفيات ٢/٥٥٥ ، النجوم الزاهرة ١٠/١١٢ ، الدرر الكامنة ٤/٣٠٥ ، شذرات الذهب ٦/١٤٦ ، بغية الوعاة ١٢٢ ونكت الهيمان ٣٨٣ .

(٣) شذرات الذهب ٦/١٤٠ .

هشام الأنصارى ، الحنبلى النحوى العلامة . ولد بمصر سنة ٧٠٢ ﻫ ولزم ابن المرحل ، وسمع من أبى حيان ديوان زهير بن أبى سلمى ، ولم يلازمه ، ولا قرأ عليه . وتفقه فى الشافعى والحنبلى وكان حنبلياً . وحدث عن ابن جماعة بالشاطبية .

أتقن العربية ففاق أقرانه فى النحو ، بل فاق الشيوخ ، وكان كثير المخالفة لأبى حيان ، شديد الانحراف عنه . قال الشوكانى « ولعل ذلك — والله أعلم — لكون أبى حيان كان منفرداً بهذا الفن فى ذلك العصر غير مدافع عن السبق فيه ، ثم كان المنفرد بعده ابن هشام »[١] .

وتفرد بالفوائد الغريبة ، والمباحث الدقيقة فى علم النحو ، والاستدراكات العجيبة فيه والتحقيق البالغ ، والاطلاع المفرط ، والاقتدار على النظر فى الكلام ، والملكة التى كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد ، مسهباً وموجزاً ، مع التواضع والبر والشفقة : ودماثة الخلق ، ورقة القلب . قال عنه ابن خلدون: « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » .

وله مؤلفات عدة فى النحو والإعراب أشهرها ، « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » قال الشوكانى : وهو كتاب لم يؤلف فى بابه مثله ، واشتهر فى حياته ، وأقبل الناس عليه . و « شرح شواهد المغنى » وله تعليق على ألفية ابن مالك سماه « التوضيح » ، و « شذور الذهب » مختصر فى النحو وشرحه . و « شرح بانت سعاد » ، و « شرح البردة » للبوصيرى . و « عمدة الطالب فى تحقيق تصريف ابن الحاجب » . مجلدان ، « رفع الخصاصة عن قراءة الخلاصة » أربعة مجلدات . و « التحصيل والتفصيل لكتابى التذييل والتكميل عدة : لمدات . و « قواعد الإعراب » ،و « شرح الجامع الصغير » و « الكواكب الدرية فى شرح اللمحة البدرية » ، و « التذكرة » فى خمسة عشر مجلداً .

---

(٣) البدر الطالع ١/٤٠١ .

وتخرج به جماعة من أهل مصر وغيرهم ، وتوفى سنة ٧٦١ هـ[١] .

وابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل (توفى سنة ٧٦٩ هـ) الحلبي الأصل المصرى الدار والإقامة ، ينتسب إلى عقيل بن أبي طالب . اشتغل بالعلم ، واهتم بالنحو وكان من فرسانه مع أبي حيان وابن هشام . قرأ على أبي حيان بالقاهرة ولازمه اثنى عشر عاماً حتى تخرج عليه ، وقال فيه أبو حيان « ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل » .

لازم جلال الدين القزوينى عندما كان قاضى القضاة بمصر ، وناب عنه فى الحكم بالحسينية وناب عن قاضى القضاة ابن جماعة بالقاهرة والجيزة ، ولازم الفقيه القونوى عند حضوره للقاهرة وكان يتعانى التأنق البالغ فى ملبسه ومأكله ومسكنه .

ولى القضاء بعد عزل ابن جماعة سنة ٧٥٩ هـ ، وسار سيرة حسنة ، وكان قوى النفس يتيه على أرباب الدولة ، وهم يخضعون له ويعظمونه . وكان جواداً لايبقى شيئاً ، ومات وعليه دين .

درس بمدارس القاهرة ، فدرس التفسير بالجامع الطولونى وختم به القرآن فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، وبالقطبية ، والخشابية ، والجامع الناصرى بالقلعة وختم حياته بالتدريس فى الشافعية .

وصنف فى النحو واللغة والتفسير : « شرح الألفية » ، « شرح التسهيل » وله قطعة فى التفسير ، شرع فيها من أول القرآن ، ومات فى أثناء كتابته .

وكان ينظم الشعر . كتب إلى بهاء الدين السبكى بدمشق يقول :

تقضت شهور بالبعاد وأحوال　　　جرت بعدكم فيها أمور وأحوال

فإن يسر الله التلاقى ذكرتها　　　وإلا فلى فى هذه الأرض أمثال

وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة قرب الإمام الشافعى[٢] .

---

(١) راجع ترجمته فى : الدرر الكامنة ٢/٣٠٩ شذرات الذهب ٦/١٩٢ ، بغية الوعاة ٢٩٢ ، البدر الطالع ١/٤٠١ .

(٢) ترجمته فى : شذرات الذهب ٦/٢١٤ ، الدرر الكامنة ، بغية الوعاة ٢٨٥ ، النجوم ١١/١٠١ والبدر الطالع ١/٣٨١ .

واشتهر بالإسكندرية جماعة من النحاة كابن عرام ، أحمد بن أبي بكر (توفى سنة ٧٢١ هـ)[١] والمارنى ، محيي الدين محمد بن عبد العزيز شيخ النحاة بالإسكندرية .

وجاء إلى مصر من النحاة ابن الجزرى ، شمس الدين ، سكن قوص زمناً ثم ذهب إلى القاهرة ودرس بمدارسها ، الشريفية ، والمعزية ، وانتصب للإقراء ، فكان لايفرغ لنفسه ساعة واحدة ، يقرأ عليه المسلمون واليهود والنصارى .

واتصل ببيبرس الجاشنكير وارتفعت عنده منزلته ، وخطب بمسجد القلعة ثم عزل إلى خطابة الطولونى ، و « مشى حاله فى دولة الناصر » .

وصنف جملة من الكتب منها شرح منهاج البيضاوى ، فى مجلدة لطيفة. وقد اعتذر فى خطبته بكبر السن[٢] .

وترافق مدرسة مصر فى النحو وتعاصرها « مدرسة الشام فى النحو » و زعيمها ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله (ولد سنة ٦٠٠ هـ) الشافعى الجيانى الطائى العالم المشهور بالألفية . نزل دمشق ، وسمع بها فترة ، ثم رحل إلى حلب فتصدر لإقراء العربية بها زمناً ، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها يشتغل ويصنف بالجامع . قال ابن شاكر : وانفرد عن المغاربة بشيئين : الكرم ؛ ومذهب الشافعى .

وتولى فى دمشق التدريس بالجامع الأموى ، والعادلية .

وصرف همته فى إتقان اللغة حتى بلغ الغاية وأربى على المتقدمين ، وكان إليه المنتهى فى الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها . وأما النحو والتصريف فكان فيهما « بحرًا لايجارى وحبراً لايبارى » . قال ابن الوردى : «كان تاج الدين العزازى يقول مثل مالك فى النحو مثل الشافعى فى الفقه »[٣] . وأتقن القراءات وصار فيها إماماً . وأما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد

(١) السلوك ٢/٣١٢ .

(٢) الدرر الكامنة ٤/٣٠٠ .

(٣) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٢ .

بها على النحو فكان أمره عجيباً ، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون فيه ويتعجبون من أين يأتي بها ؟

روى عنه ابنه بدر الدين ، وابن جماعة ، وابن العطار والشلوبين ، وابن يعيش .ومن كتبه « الخلاصة » التى اشتهرت باسم الألفية ، والكافية الشافية ، فى ثلاثة آلاف بيت ومختصر الشافية ، وتسهيل الفوائد ، ويختصر فيسمى بالتسهيل ، وفيه نحو كثير ، وشرحه ، ولم يتم ، وأكمله بعده أبوحيان أثير الدين ، وكتاب العمدة وهو خلاصة جيدة لكنها تنقص أبواباً، وشرحها فأجاد . وله « إكمال الأعلام بمثلث الكلام » و « فعل وأفعل » ، و « إعراب مشكل البخارى» و « سبك المنظوم وفك المختوم » ، و«عدةاللافظ وعمدةالحافظ » و « النظم الأوجز فيما يهمز » ، و « الاعتقاد فى الظاء والضاد » .

وقد نظم الألفية بحماة ، وكان نظم الشعر سهلاً عليه ، وله منظومة أخرى فى القراءات فى مقدار الشاطبية . وكان مطلعاً على الحديث كثير الاستشهاد بالقرآن ، فإن كان مافيه شاهد عدل إلى الحديث ، فإن لم يكن شاهد عدل إلى أشعار العرب .

وشرح ابنه بدر الدين محمد « الألفية » شرحاً حسناً ، عرف بشرح ابن المصنف ، وكان يقول : ما زال والدى يخبط حتى نظم الخلاصة .

وتوفى ابن مالك بدمشق سنة ٦٨٦ هـ(١) .

وبدر الدين بن مالك ، المعروف بابن المصنف ، نشأ بدمشق ، وأخذ عن والده وسكن بعلبك زمناً ، ثم عاد إلى دمشق وتصدر للاشتغال بعد موت أبيه . وكان إماماً فى النحو والبلاغة والبيان والمعانى ، وشرح الألفية شرحاً فى غاية الحسن . وتوفى عن نيف وأربعين سنة .

وظهر فى المغرب واشتهر ابن عصفور ، على بن مؤمن بن محمد ،الإشبيلى الأصل (ولد سنة ٥٩٧ هـ) ، أخذ عن الشلوبين وجماعة من بلده ،

---

(١) ترجمته فى : فوات الوفيات ٢/٤٥٢ ، تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٢ ، بغية الوعاة ٥٣ النجوم الزاهرة ٧/٢٤٤ ، شذرات الذهب ٥/٣٣٨ .

(٢) شذرات الذهب ٥/٣٩٨ .

ولازم الشلوبين عشر سنين إلى أن ختم عليه كتاب سيبويه . وكان أصبر الناس على المطالعة ، لا يمل ذلك . وأقرأ ودرس ببعض بلاد الأندلس ولازمه أبو حيان فترة . ولم يكن من المتمسكين بالورع . وادعى ابن تيمية أنه لم يزل يرجم بالنارنج فى مجلس شراب إلى أن مات . وكان يخضب رأسه ولحيته بالحناء ويقول :

لما تدنست بالتفريط فى كبرى ... ورحت مغرى بشرب الراح واللعس
رأيت أن خضاب الرأس أستر لى ... إن البياض قليل الحمل للدنس [1]

وقالوا إنه لم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو ، ولا تأهل لغير ذلك .

وصنف كثيراً من الكتب منها : الممتع ، والمفتاح ، والهلال ، والأزهار ، ونثارة الدياجى ومختصر الغرة ، ومختصر المحتسب ، والسالف والعذار ، وشرح الجمل ، والمقرب فى النحو . ويقال إن حدوده كلها مأخوذة من الجزولية ، وكتاب « البديع » شرح على الجزولية ، وشرح ديوان المتنبى ، وسرقات الشعراء ، وشرح الأشعار الستة ، وشرح المقرب وشرح الحماسة ، ولم يتم هذه الشروح [2] ويقول ابن العماد إنه ألف ثلاثة شروح على كتاب « الجمل » . وتوفى بتونس سنة ٦٦٩ هـ [3] .

ومن علماء اللغة :

الصاغانى ، الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر الفقيه الحنفى اللغوى ، المتوفى سنة ٦٥٠ هـ قرأ عليه الحافظ الدمياطى [4] .

وابن الصائغ ، شمس الدين محمد بن الحسن بن سباع الجذامى المصرى الدمشقى المولد (ولد بدمشق سنة ٦٤٥ هـ) . وكان لغوياً وأديباً فاضلا ، وله النظم والنثر ومعرفة بالعروض والقوافى والبديع . قدم إلى القاهرة وأقام بالصاغة زماناً يقرئ الناس العربية والعروض والأدب . ومن كتبه : « شرح مقصورة ابن دريد » فى مجلدين ، و « مختصر صحاح الجوهرى » ، وقد جرده من الشواهد ، و « شرح ملحة الإعراب » .

---

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٠ . (٢) فوات الوفيات ٢/١٨٥ .
(٣) شذرات الذهب ٥/٣٣١ .

وله ديوان شعر فى مجلدين كبيرين ، أورد منه ابن شاكر مقطوعات ، منها قصيدة يتشوق فيها لدمشق فى أثناء إقامته بمصر ، وهى طويلة جيدة يقول فيها :

لى نحو ربعك دائماً يا جلق   شوقٌ أكاد به جوى أتحرق
وهمول دمع من جوى بأضالعى   ذا مغرق طرفى وهذا محرق
أشتاق منك منازلا لم أنسها   إنى وقلبى فى ربوعك موثق
والريح تكتب والجداول تسطر   خط [له] نسج النسيم محقق
والطير يقــرأ والنسيم مردد   والغصن يرقص والغدير يصفق

وله قصيدة تائية تزيد على ألفى بيت على وزن تائية ابن الفارض ، ولكن تائية ابن الصائغ فى العلوم والصنائع . وله مقامات .

وتوفى ابن الصائغ ودفن بمصر سنة ٧٢٠ هـ(١) .

وابن منظور ، محمد بن مكرم بن على الإفريقى المصرى (ولد سنة ٦٣٠هـ) ، وكان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة . جمع واختصر كثيراً من كتب اللغة والأدب . قال الصفدى : لا أعرف فى الأدب وغيره كتاباً مطولا إلا وقد اختصره . واشتهر كتابه « لسان العرب » وقد جمع فيه كتب اللغة بين التهذيب للأزهرى ، والصحاح للجوهرى ، والمحكم لابن سيده ، والجمهرة لابن دريد ، وجوده ما شاء ، وتم فى سبعة وعشرين مجلداً .

واختصر الأغانى والعقد الفريد والذخيرة ونشوار المحاضرة ومفردات ابن البيطار ، والتواريخ الكبار مثل تاريخ دمشق لابن عساكر اختصره فى نحو ربعه ، وزهر الآداب ، ويتيمة الدهر . قال الصفدى : وأخبرنى ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلدة . ولم يزل يكتب إلى آخر عمره .

وخدم فى ديوان الإنشاء مدة عمره ، وولى قضاء طرابلس زمناً . وقال عنه الذهبى : كان عنده تشيع بلا رفض ، وكان صاحب نكت ونوادر .

---

(١) فوات الوفيات ٢/٣٨٠ ، النجوم ٩/٢٤٨ ، السلوك ٢/٢٣٩ قسم ١ ، البداية والنهاية ١٤/٩٨ .

وروى عنه تقى الدين السبكى ، والذهبى . وعمى آخر عمره وتوفى سنة ٧١١هـ[١] .

٥

العلوم العقلية والطبيعية

كان للمد السنى أثره فى العصرين الأيوبى والمملوكى على الاتجاهات العلمية وخاصة العلوم العقلية والفلسفية على عكس الحال فى الدولة الفاطمية فى مصر ، ذلك لتشجيع الفاطميين للبحث العقلى والدراسات الفلسفية لحاجتهم إليها فى نشر عقيدة الشيعة . ونلاحظ التقارب بين علوم الشيعة والفلسفة والكلام فى القرن الرابع وما بعده .

وذكر ابن تغرى بردى موقف صلاح الدين من الفلاسفة فقال : « وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ، ومن يعاند الشريعة ، ولما بلغه عن السهروردى ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله ، وكان ذلك بحلب سنة ٥٨٨ هـ » .

وكذلك فعل الملك الصالح أحد كبار أمراء الأيوبيين بالشام وصاحب بعلبك فقد أمر بقتل وزيره رفيع الدين الجيلى لما عرف عنه أنه كان فاسد العقيدة دهرياً ، مستهزئاً بأمور الشرع ، وقد كان متميزاً فى الحكمة والطبيعة والطب[٢] .

وتحدث الشهرزورى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) عن الفلسفة حديثاً فيه بغض وكراهية ، لينفر منها الناس فقال : « إن الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن

---

(١) ترجمته فى نكت الهيمان ٢٧٦ ، وبغية الوعاة ١٠٧ .

(٢) فوات الوفيات ١/٥٩٧ .

الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج والبراهين الباهرة » . وعن المنطق قال : « وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر ، وليس الاشتغال بتعليمه أو تعلمه مما أباحه الشارع ، ولا أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ، ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، وأن يعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أوالإسلام ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله »[١] .

وبقى هذا الاتجاه نفسه فى عصر المماليك ، فتشدد سلاطينهم فى تعقب الفلاسفة والدهريين بإيعاز من فقهاء السنة وقضاتهم ، فقتل وشهر بكثيرين منهم وعذب بعضهم حتى كف عن الجهر بالفلسفة أو الاشتغال بها . ولم يمنع هذا التشدد والاضطهاد من ظهور جماعة من الفلاسفة أو المتكلمين والمناطقة ، والمشتغلين بالعلوم العقلية .

و وفد على مصر والشام فى هذا العصر جماعة من الفلاسفة والمتكلمين من المشرق والمغرب .

وكان من كبار فلاسفة العصر المشارقة ممن أثروا فى رجال عصره ، وخرجوا كثيراً من التلاميذ :

نصير الدين الطوسى : محمد بن الحسن الفيلسوف عالم الرياضة والطبيعيات الفارسى . وكان رأساً فى العلوم لاسيما فى الأرصاد والمجسطى . وقد اتصل بملوك التتار فبلغ عند هولاكو منزلة عظيمة ، وكان يشير عليه فيطيعه وبنى بمراغة قبة ومرصداً عظيماً ، وألحق بها خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها بالكتب التى نهبت من بغداد والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد (٤٠٠ ألف) وقرر بالمرصد المنجمين والفلاسفة ، وجعل له الأوقاف .

---

(١) راجع الحركة الفكرية لعبد اللطيف حمزة ص ٣٣٦ .

وألف نصير الدين كتب « المتوسطات » فى الهندسة وعلم الهيئة ، وهو كتاب جيد للغاية فى عصره وكتاب « مقدمة الهيئة » . ورد على الإمام الفخر الرازى وناقضه فى كثير من مؤلفاته وله فى المنطق وعلم الكلام « التجريد » فى المنطق ، و « قواعد العقائد »، و « التلخيص فى علم الكلام »، و « العروض» بالفارسية . وتوفى الطوسى سنة ٦٧٢هـ[1] .

وتأثر به جماعة من علماء العراق والمشرق وفدوا إلى الشام ومصر . قال تاج الدين السبكى : « إن من استشهد بكلام ابن سينا أو بقول نصير الدين فقال : قال الشيخ الرئيس يعنى ابن سينا وقال خواجا نصير الدين ، ونحو ذلك أن يضرب بالسياط ، ويطاف به فى الأسواق ، وينادى عليه هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، واشتغل بأباطيل المبتدعين »[2] .

ومن فلاسفة المشرق كذلك عضد الدين الإيجى ، عبد الرحمن بن أحمد ابن عبد الغفار قاضى القضاة، من إيج بنواحى شيراز . وكان إماماً فى المعقول قائماً بالأصول والمعانى والبيان والعربية مشاركاً فى سائر الفنون . وله كتاب المواقف « مواقف الإسلاميين » فى علم الكلام ومقدماته . قال الشوكانى « وهو كتاب يقصر عنه الوصف ، ولا يستغنى عنه من رام تحقيق الفن » .

ومن تلاميذه سعد الدين التفتازانى ، صاحب التصانيف المشهورة ، وشمس الدين الكرمانى وغيرهما[3] .

وتوفى مسجوناً بكرمان سنة ٧٥٦[4] .

ووفد جماعة من فلاسفة المشرق إلى الشام ، ومنهم قطب الدين الشيرازى محمود بن مسعود الفارسى الأصل . وفد إلى الشام رسولاً من سلطان التتار

---

(١) فوات الوفيات ٢/٣١٠ .

(٢) معيد النعم ١١٣ .

(٣) شذرات الذهب ٦/١٧٥ .

(٤) البدر الطالع ١/٣٢٦ .

الخان أحمد ، ودرس بدمشق كتاب الكشاف للزمخشرى ، وكتابى القانون والشفاء لابن سينا[١] .

وجاء إلى مصر محمد بن أبي بكر السنجارى الكلاباذى سنة ٦٨٤ هـ فسمع بها من بعض الشيوخ وعاد إلى ماردين سنة ٧٠٠ هـ[٢] .

وقد قتل بمصر والشام جماعة من المتفلسفة ، بحلب ابن صدقة ، أحمد ابن محمود الحلبي الأديب . قال ابن حجر : ضُبطت عليه ألفاظٌ موبقة فرفع أمره إلى الحكام ، فحكم القاضى المالكى بسفك دمه فقتل . كان ذكياً كثير المحفوظ ، لكنه حفظت عنه مقالات ردية وزندقة . وفى مصر قتل ابن اليقى للسبب نفسه .

وقد عبر السبكى فيما قلنا من تحذير له من قراءة كتب خواجا نصر الدين الطوسى وفى مواضع كثيرة من معيد النعم عن موقف فقهاء مصر والشام من الفلاسفة . يقول :

« ومنهم طائفة تبعت طريقة أبي نصر الفارابى وأبى على بن سينا وغيرهما من الفلاسفة الذين نشأوا فى هذه الأمة واشتغلوا بأباطيلهم وجهالاتهم وسموها الحكمة الإسلامية ، ولقبوا أنفسهم حكماء الإسلام . وهم أحق بأن يسموا سفهاء وجهلاء من أن يسموا حكماء إذ هم أعداء أنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام ، والمحرفون لكلم الشريعة عن مواضعه . عكفوا على دراسة ترهات هؤلاء الأقوام وسموها حكمة ، واستجهلوا من عرى منها ، ولا تكاد تلقى أحداً منهم يحفظ قرآناً ولا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعمر الله إن هؤلاء لأضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى ، لأنهم يلبسون لباس المسلمين ويزعمون أنهم من علمائهم فيقتدى الناس بهم ، وهم يعتقدون شيئاً من دين الإسلام ، بل يهدمون قواعده ، وينتقضون عراه عروة عروة .

---

(١) الدرر الكامنة ٤/٣٤٣ .

(٢) فوات الوفيات ٢/٤٤٠ .

قال : وقد أفتى جماعة من أئمتنا ومشيخة مشيختنا بتحريم الاشتغال بالفلسفة»[١] .

ونبغ فى مصر أطباء وصيادلة كثيرون منهم شعراء وأدباء كالدنيسرى عماد الدين محمد بن عباس (توفى سنة ٦٨٦ هـ) الحكيم البارع ، الأديب الشاعر صنف فى الطب والأدوية « المقالة المرشدة » ، و « درج الأدوية »[٢] .

وابن النفيس ، علاء الدين على بن أبى الحرم الدمشقى ، الحكيم الفاضل . لم يكن فى عصره من يضاهيه فى الطب والعلاج والعلوم . وله فى الطب جملة تصانيف مثل « الشامل فى الطب » ، و « المهذب » فى الكحل و « الموجز » ، وشرح القانون لابن سينا »[٣] .

---

(١) معيد النعم ١١١

(٢) الدرر الكامنة ٤/٣٤٣ ، وفوات الوفيات ٢/٤٤٠

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٧٧

الباب الرابع

الحياة الدينية ورجال الدين

الدين فى المجتمع المملوكى ، رجال الدين ومكانتهم ، السنة والشيعة
الطوائف غير الإسلامية

يقول المقريزى : « اعلم أن الناس فى زمننا ، بل ومنذ عهد الدولة التركية بديار مصر والشام يرون أن الأحكام على قسمين : حكم للشرع ، وحكم للسياسة »[1] وبهذا يشير إلى أن السلطة فى مصر انقسمت منذ عصر المماليك إلى سلطتين ، شرعية مستمدة من الدين الإسلامى والشريعة الإسلامية ، وزمنية مستمدة من قوانين وضعية ، وشرائع فى سياسة الحكم وتدبير الملك مستمدة من بعض الشرائع غير الإسلامية ، وخاصة الفارسية القديمة أو المغولية . وقد أسهب المقريزى فى الحديث عن تأثير المماليك فى سياسة الحكم ، واقتباسهم لقوانين جنكيزخان التى أودعها كتابه المسمى « ياسه » أو « ياسك » ، وتطبيق ما اقتبسوه فى دولتهم بمصر والشام فيما يتصل بالعقيدة أو السلوك الدينى اتصالا مباشراً ، ثم تدخلت هذه القوانين شيئاً فشيئاً فى حدود الشرع الإسلامى .

ومهما يكن من أمر فإن المماليك أرادوا الحفاظ على المظهر الإسلامى ، وإن لم يدعوا لأنفسهم السلطة الدينية ، بل احتفظوا بالسلطة الزمنية والسياسية ، وتركوا السلطة الدينية للخليفة ومن يعاونه فى تنفيذ أحكام الدين ، أوامره ونواهيه .

وسبق أن أشرنا إلى أن الظاهر بيبرس استقدم أحد أبناء الخلفاء

(١) خطط المقريزى ١/ ٢٢٠ .

العباسيين ، ونصبه خليفة ، ولم يَنصبُ أحد من الخلفاء إلى السلطة إلا فى حالة واحدة طوال العصر المملوكى ، إذ أجمع العلماء والأمراء على تولى الخليفة السلطنة ، عندما اختلف المماليك فيما بينهم على السلطان ، ولكنه لم يلبث أن عزل بعد ذلك واضطهد .

وكان منصب قاضى القضاة المنصب الهام الذى يلى الخلافة ، ويختار شافعيًّا ، وكان القضاة شافعية طوال الدولة الأيوبية ، لكن استجد المماليك نظاماً جديداً فجعلوا القضاة أربعة كباراً يمثلون المذاهب السنية : وأول من عين أربعة السلطان الظاهر بيبرس وكان بسبب توقف قاضى القضاة الشافعى آنذاك ابن بنت الأعز فى تنفيذ بعض الأحكام ، وكثرة الشكاوى فى حقه سنة ٦٦٣ هـ[١] .

وظل كبير القضاة الشافعى. وكان مرسوم تولى القضاء ، كمرسوم تولى الخلافة يعلن فى الجامع فى عواصم السلطنة . وينوب قضاة أقل درجة فى أحياء العاصمة ، والأقاليم عن كبار القضاة ، ويسمون أحياناً بنواب الأحكام .

وتولى بعض القضاة مناصب إدارية كالوزارة إلى جانب القضاء ، ونظروا فى الدواوين مثل القاضى ابن بنت الأعز[٢] . ولكن أكثرهم جمع بين القضاء والتدريس ، أو القضاء والخطابة فى المساجد الكبرى .

وكان منصب الخطابة فى العاصمة منصباً دينيًّا هامًّا ، ويختار له كبار العلماء أو القضاة ، ويلبس الخطيب خلعة العلماء ، ويسير مع القضاة فى الموكب .

ومنصب شيخ الشيوخ من المناصب الدينية الرفيعة ، عرف فى الدولة الأيوبية ، وظلت أهميته طوال العصر المملوكى ، وهو شيخ الشيوخ الصوفية فى القاهرة ودمشق . وكان شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة غالباً ،

---

(١) السلوك ، وشذرات الذهب ٥ / ٣٢٠ .

(٢) شذرات الذهب ٥ / ٣٢١ .

وأحياناً شيخ خانقاه الناصر بسرياقوس .

وكان لرجال الدين غير الرسميين تقديرهم واحترامهم فى المجتمع المملوكى ، سواء الفقهاء المشتغلون بالعلم ، أو الذين ينتسبون لآل البيت من الأشراف أو العباد والنساك والمتصوفة . وميز الأشراف فى هذا العصر بلبس عمامة خضراء ، ففى سنة ٧٧٣ هـ أمر السلطان الملك الأشرف بأن يمتازوا على الناس بعصائب خضر على العمائم ، ففعل ذلك بمصر والشام . ويقول الشاعر عبد الله بن جابر الأندلسى فى ذلك[١] :

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم ... تغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب[٢] :

عمائم الأشراف قد تميزت ... بخضرة رفت وراقت منظرا
وهذه إشـــارة أن لهم ... فى جنة الخلد لباساً أخضرا

وقال شمس الدين بن المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر كأعلام على أشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها ... شرفاً لنعرفهم من الأطراف

وقال الشيخ شهاب الدين بن حجلة :

لآل رسول الله جاه ورفعة ... بها رفعت عنا جميع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم ... إذا ما بدوا للناس تحت العصائب

فاختلف موقف الناس من هذا التمييز بين مستهجن ، ومستحسن ، وعلل ابن تغرى بردى ذلك بقوله : « إجلالاً لحقهم وتعظيماً لقدرهم ليقابلوا بالقبول والإقبال ، وليمتازوا عن غيرهم من المسلمين » .

والحق أن هذا التمييز كان مخالفاً لروح الإسلام ، وإن اتفق تماماً

(١) شذرات الذهب ٦/٢٢٦ .

(٢) تاريخ ابن إياس ٢٢٧ .

مع روح المجتمع المملوكى الذى تميزت فيه الطبقات ، ووضع كل فى مقامه وتميز بلباسه ومركبه وهيئته . وتمادى المماليك فى سلوك طريق التمييز بين الناس ، ووضع السمات والألوان لكل طبقة أو كل فريق أو طائفة من الطوائف . ولعل روح العسكرية التى غلبت على تفكيرهم هى التى أملت عليهم هذا الاتجاه ، فالتمييز ضرورى فى صفوف البناء العسكرى ، والدرجات ،أو الرتب ينبغى أن تحدد بإشارات وعلامات واضحة ، ليعرف كل مركزه ومقامه ، فى تنظيم قائم على أساس الطاعة والضبط والربط .

وفرض المماليك ألواناً لعمائم الطوائف الأخرى غير المسلمين ، فجعلوها لليهود صفراً وللنصارى سوداً ، وهؤلاء الأشراف خضراً ، فاختالت الرءوس فى تلك الألوان بين مبيض ومسود ومصفر . وما زالت آثار هذه العمائم الملونة تعيش بيننا الآن وخاصة فى الأطراف والأقاليم النائية بصعيد مصر والشام .

وظلت العلاقة بين سلاطين المماليك ورجال الدين بين شد وجذب ، وإن بدا من السلاطين حرص على الدين ورجاله ، وغيرة وحماس قد يستغربان ، ولكنهم كانوا يعلمون أن رجال الدين هم سندهم بين الناس ، ووسيلتهم إليهم ، ويدهم التى تبطش أحياناً بالشعب أو ترفق به . ولهذا فإن رجال الدين كانوا يملكون السيطرة على الناس عن طريق الدين ، ويتخذون كذلك وسيلة للسلاطين للضغط ونيل المطالب .

والأمثلة كثيرة على تلك العلاقة المثلثة الأطراف . فقد كان المماليك يعقدون مجالس الشورى تضم العلماء للبت فى الأمور الخطيرة ، وخاصة فيما يتصل بمصالح الناس مباشرة ، كالتعبئة للقتال ، أو فرض مزيد من التضحيات ، فى صورة ضرائب أو مكوس ، أو جبى أموال ، أو أحداث تغيير اجتماعى أو سلوكى .

ومن ذلك التعبئة لحرب التتار عندما أحدقت جيوش هولاكو بحدود السلطنة فى الشام، قال ابن إياس : « فلما جاءت الأخبار من القاهرة بما جرى من هولاكو ، وقد أرسل ابنه فى عسكر عظيم إلى حلب ، واستولى على ضياع

نائب حلب ، فلما تحقق الأتابكى قطز ذلك أمر بعقد مجلس وجمع سائر الأمراء والقضاة ، ومشايخ العلماء ، وكان المشار إليه فى ذلك المجلس شيخ الإسلام العز بن عبد السلام رضى الله عنه ، وكان من أكابر علماء الشافعية ، وقد تلقب بسلطان العلماء ، فلما تكامل ذلك المجلس من الأمراء وأعيان الدولة ، والقضاة ومشايخ العلماء قام مدع فى ذلك المجلس وذكر هيئة سؤال فى أمر هولاكو واستيلائه على البلاد ووصوله إلى حلب ، وأن بيت المال خال من الأموال وقد وصل العدو وطمع فى أخذ البلاد ، والسلطان صغير السن لا يقدر على مراعاة مصالح الرعية ، وأن الوقت محتاج إلى إقامة سلطان كبير تخشاه الناس ويدفع العدو ، وأن بيت المال محتاج إلى المساعدة بشىء من أموال الرعية لإقامة الجند وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك . فأجاب الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه فى ذلك المجلس وقال : « إذا طرق العدو البلاد ، وجب على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلاد ما يستعين به على تجهيزه العسكر لدفع العدو ، لكن بشرط ألا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والفضة والكبابيش الزركش ، وأسقاط السيوف الفضية وما إلى ذلك »[1] .

وروى السبكى بعضاً من الأخبار عن هيبة عز الدين لدى المماليك ، ومكانته عند الشعب فقال : إن الظاهر بيبرس قال ، لو أن هذا الشيخ كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك منى[2] .

ويعتقد المماليك أنهم بالعلماء يعرفون الدين ، وفى بركتهم يعيشون . قال المقريزى : « وحسب أعظمهم قدراً أن يقبل يد الفقير والقاضى »[3] . وكانوا يجلون الفقهاء ويعفونهم وسائر رجال الدين من أداء المراسم التى يؤديها عامة الناس والأمراء فى دخولهم على السلاطين . قال الصفدى : « حكى لى

(١) تاريخ ابن إياس ص٩٥ .

(٢) طبقات الشافعية ٥/٨٤ .

(٣) السلوك ٣/ ٣٨٣ خطية بدار الكتب .

الشيخ فتح الدين بن سيد الناس أنه لما دخل على السلطان لم يدعه يبوس الأرض ، وقال : أهل العلم منزهون عن هذا ، وأجلسه عنده[١] .

وكان السلطان لاجين يبالغ فى إكرام تقى الدين بن دقيق العيد وينزل له عن سريره عند لقائه ويقبل يده[٢] .

وكانوا يكرمون رجال الدين والعلم إذا ما بلغوا كبر السن، أو عجزوا عن القيام بمهامهم قال ابن الوردى : لما استعفى القاضى ابن جماعة بمصر لكبر سنه وضعفه رتب السلطان له كل شهر ألف درهم وعشرة أرادب قمح[٣] .

واعتقد بعض المماليك فى رجال الصوفية وبركاتهم ، وتشددوا كما قلنا من قبل فى تنفيذ أوامر الدين ونواهيه ، وحافظ أكثرهم على اتباع تعاليم الدين ، وأداء فرائضه ، وخدمة الدين وأهله والقربى من الخالق ببناء المساجد والمدارس والسبل والمارستانات والخانقاه لفقراء الصوفية .

وتشدد سلاطينهم فى الحدود حتى خرجوا عن الشرع وبالغوا . قال ابن شاكر « وكان الظاهر رحمه الله قد منع الخمر والحشيش وجعل الحد على ذلك السيف ، فأمسك ابن الكازرونى وهو سكران فصلبه وفى حلقه جرة خمر » ، فقال الحكيم شمس الدين ابن دانيال :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه ... خفيف الأذى إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى ... ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا

وقال ناصر الدين بن النقيب :

منع الظاهر الحشيش مع الخمـ ... ـر فولى إبليس من مصر يسعى
قال مالى وللمقام بأرض ... لم أمتع فيها بماء ومرعى

وقال ابن دانيال أيضاً :

نهى السلطان عن شرب الحميا ... وصير حدها حد اليمانى

---

(١) السلوك ٣٨٣/٣ خطية بدار الكتب .

(٢) النجوم الزاهرة ١٠٨/٨ .

(٣) الدرر الكامنة ٩٤/٤ .

فما جسرت ملوك الجن خوفاً　　　لأجل الخمر تدخل فى القنانى

واعتبر بعض الفقهاء ذلك التشدد فى الحدود أكثر من احتمال الشرع ، وأنه خلط من المماليك بين الشرع الإسلامى وشريعة جنكيزخان ، خاصة وأن كثيراً منهم وفدوا من بلاده[١] ، ورضى بعض الفقهاء عنه وعدوه تخويفاً للناس وردعاً للإقلاع عن الرذيلة .

وكلام ابن دانيال الأول يشير إلى أن تلك الحدود القاسية ليست من شرعنا الإسلامى لأن الجلد هو الحد فى الإسلام على الخمر وليس القتل .

ومن تشددهم فى الدين قتل المخالفين لأهل السنة ، أو للمجاهرين بالآراء المخالفة للجماعة أو التى يراها رجال الدين كذلك . فقد قتل سنة ٧٢٠هـ أيام السلطان الناصر محمد رجل يدعى إسماعيل بن سعيد الكردى المقرى المصرى ، لاتهامه بالكفر والزندقة . قال ابن حجر : « وقد نظر فى المنطق فدخل فى كلام لا فائدة له فضبط عليه »[٢] . وقال « وكان كثيراً ما يتماجن ويمزح ويجترئ على الألفاظ الموبقة حتى اشتهر بإسماعيل الكافر ، ومنهم من يقول إسماعيل الزنديق ، فاتفق أنه وقع فى حق لوط عليه السلام فرفع أمره إلى قاضى المالكية فأمر بقتله »[٣] . وقال عنه المقريزى إنه حفظت عنه عظائم فى حق الأنبياء ، وكان يتجاهر بالمعاصى ، فاجتمع القضاة وضربوا عنقه بين القصرين[٤] .

ولم يكن الوفاق دائماً بين السلطتين الدينية والزمنية ، بل قد يثور النزاع بينهما ، وروى التاريخ صوراً من هذا النزاع بين السلاطين أو أمراء المماليك ورجال الدين ، منها ما حدث بين منكوتمر نائب السلطان وابن دقيق العيد حين أراده أن يحكم فى ميراث دون بينة واضحة ، وكان قاضى القضاة ،

(١) راجع المقريزى فى الخطط ١/٢٢١ .
(٢) السلوك ١/٨٦٤ .
(٣) الدرر الكامنة ١/٣٦٧ .
(٤) السلوك ٢/٢١٢ .

فاستدعاه ، وأصر على رأيه فاستعفى من القضاء ، لكن السلطان طيب خاطره ، واستدعاه فى القلعة واسترضاه[١] .

وربما حدث النزاع لرغبة بعض رجال الدين فى تطبيق حدود الشرع على المماليك أنفسهم أو لمحاولة بعضهم ، وخاصة الحنابلة ، القيام بتنفيذ الحدود فى المخالفين لأوامر الدين ونواهيه بأنفسهم عملاً بالحديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، ومن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . ونشر هذا الاتجاه الفقيه ابن تيمية ، فكان يقوم على العمل بالمعروف وإزالة المنكر أوالنهى عنه هو وجماعته دون الرجوع إلى السلطة الزمنية ولا السلطان ولارجاله بطبيعة الحال فى تلك الأعمال ؛ فحدث بين ابن تيمية ونائب دمشق نزاع أدى بالفقيه إلى السجن مدة طويلة ، وعاود ابن تيمية الدعوة إلى ذلك بالقاهرة فسجن مرة أخرى ، ثم ثالثة بدمشق وظل مسجوناً حتى مات .

وحدث نزاع آخر فى مصر بين الفقهاء ورجال الدين من جانب ، وبين السلطان حين لاحظ رجال الدين تغول بعض أقباط المصريين ، ومناصرة السلطان لهم ومحاباته إياهم تحت ستار « حسن معاملة النصارى » وفق اتفاق عقده مع البابا فى روما ، وإمبراطور بيزنطة وإمبراطور الحبشة . ومنه ما حدث للفقيه البكرى مع السلطان . قال ابن حجر : « إنه لما كان فى النصف من شعبان سنة ٧١٤ هـ بلغه أن النصارى استعاروا من قناديل جامع عمرو بن العاص بمصر شيئاً وعلقوه فى مجمع كان بالكنيسة المعلقة ، فأخذ معه طائفة كبيرة من الناس ، وهاجم الكنيسة والنصارى فى المجمع ، ونكل بهم ، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً ، وعاد إلى الجامع ، وأهان قرمته وأكثر من الوقيعة فى خطيبه ، وشنع على كبار الأقباط ممن يتولون المناصب ، وخاصة كريم الدين الكبير ناظر النظار ، وكريم الدين الكبير ناظر الخاص ، فتكلم ووعظ ، وذكر آيات من القرآن وأحاديث واتفق أنه غلط فى عبارته

(١) السلوك ١/٨٤٨ .

للسلطان ، فاستدعاه السلطان وعقد له مجلساً من العلماء والأمراء لمحاكمته على ما نسب إليه ، فدافع عن نفسه وأغلظ للسلطان الناصر ، وقال له : إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، فقال له السلطان وقد اشتد غضبه : أنا جائر ؟ فقال : نعم ، أنت سلطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم . فلم يتمالك السلطان نفسه أن أخذ سيفه وهم بالقيام ليضربه ، فبادره أمير طغاى وأمسك بيده ، فالتفت إلى ابن مخلوف القاضي وقال : يا قاضي يتجرأ عليّ هذا ، ما الذى يجب عليه ؟ . قال : لم يقل شيئاً يوجب عقوبته . فصاح السلطان بالبكرى : اخرج عنى . فقام وخرج »[1] .

وفى دمشق قام الفقراء بتحريض من رجال الدين سنة ٧٥٢ هـ على الحشاشين والخمارات وتدخل نائب السلطان فمنعهم عن التمادى فى فعلهم ، بعد أن تظاهر أول الأمر أنه معهم[2] .

وبقى الضيق يملأ صدور الفقهاء بالرغم من كل شيء لغشم المماليك وجهلهم وتهورهم وظلمهم ، وتصرفهم فى الأمور على غير وجه للشرع . ونظم ابن النجار فى أول دولة المماليك أبياتاً تتضمن هذه المعانى فقال :

أين المراتب فى الدنيا ورفعتها ... من الذى حاز علماً ليس عندهم
لا شك أن لنا قدراً رأوه وما ... لمثلهم عندنا قدر ولا لهم
هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا ... تقودهم حيثما شئنا وهم نعم
وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا ... عنهم لأنهم وجدانهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم ... وفيهم المتعبان المال والغشم

وهى أبيات تعبر عن الحلف القائم بين السلطنة والفقهاء ورجال الدين عموماً ، وتعبر عن الضرورة التى تجمع بينهم والمصالح المشتركة لكل فريق

(١) الدرر الكامنة ٣/٢٢٤ .
(٢) البداية والنهاية ١٤/١٥٧ .
(٣) فوات الوفيات ١/١٠ .

مع الآخر . وقد عارض هذه الأبيات ، معبراً عن المضمون نفسه قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد فقال :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها ... أهل الفضائل مرذولون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم ... منازل الوحش في الإهمال عندهم
فما لهم في توقي ضرنا نظر ... ولا لهم في ترقي قدرنا هِمَم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم ... مقدارهم عندنا أولو دَرَوهُ هُمُ
لهم مريحان من جهل وفرط غنى ... وعندنا المتعبان العلم والعدم

وكشف السبكي عن الصراع الخفي بين رجال الدين والمماليك برغم الحلف الظاهر فقال :

« ومن قبائح كثير من الأمراء أنهم لا يوقرون أهل العلم ، ولا يعرفون لهم حقوقهم ، وينكرون عليهم ما يرتكبون أضعافه ، وما حق الأمير إذا كان يرتكب معصية ووجد فقيهاً يقال عنه مثلها أن يبغضه ويعيبه ، وما له لا ينظر إلى نفسه مع ما خوله الله تعالى من النعم ، أما علم أن القبيح عند الله تعالى حرام بالنسبة إلى كل أحد ، وربما كان عند الفقيه ما يستر قبيحه ، وليس عند الأمير وراء ذلك القبيح إلا أمثاله من القبائح . فما يتعين على الأمير إذا أنهي إليه عن أحد من أهل العلم سوء أن لا يصدقه ، ويحسن الظن بهذه الطائفة فإن لحومهم مسمومة ، وما رأيت أميراً يغض من جانب الفقهاء إلا وكانت عاقبته عاقبة سوء »[١] .

وقال السبكي : « ومن قبائحهم استكثارهم الأرزاق وإن قلت على العلماء واستقلالهم الأرزاق وإن كثرت على أنفسهم . ورأيت كثيراً منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة ، وهذه الطائفة من الأمراء يخشى عليها زوال النعمة عن قريب ، فإنها تتبختر في أنعم الله تعالى مع الجهل والمعصية ، وتنقم على خاصة خلقه يسيراً مما هم فيه ، أما يخشون ربهم من

(١) معيد النعم ٦٩ .

فوقهم ، ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده ، أفما يستحى هذا الأمير المسكين من الله عز وجل ؟ »[١] .

ويشير السبكى إلى جهل المماليك الأتراك ساخراً بقوله : « فإن قال حمار من هؤلاء أنا من أين أعرف هذا وأنا عامى تركى ، لا أعرف كتاباً ولا سنة ؟ قلنا له : هذا لا ينفعك عند الله تعالى شيئاً ؛ ألم يجعل الله تعالى لك عينين ولساناً وشفتين ، وهداك النجدين ؟ . إذا كنت لا تعرف فاسأل أهل الذكر ، فإن هذا شأن من لا يعلم ، وإلا فأنت تأتى يوم القيامة وغرماؤك الذين ضربتهم وعاقبتهم يجرونك فى الحبال ، وأنت تسحب على وجهك ، لا ينفعك هناك شىء من هذه الأقاويل » .

ولا شك أنه يبدو من كلام السبكى احتقاره لطائفة المماليك ، وكراهيته لكبرهم وصلفهم على أهل البلد وتيههم بجنسهم التركى ، ويظهر هذا الاحتقار وتلك الكراهية كثيراً فيما يرد على لسانه فى كتاب معيد النعم مما يصفهم به من ألفاظ الأحمق ، والجاهل ، والغبى . . وما إليها .

ويعارض فى ارتكابهم حماقات ما أنزل الله بها من سلطان الغرض منها التخويف وبث الهيبة منهم فى نفوس الرعية لتثبيت السلطان ودعمه حتى ولو على دم الشعب وجماجمه . يقول : « فمن خطر له أنه إن لم يسفك الدماء بغير حق ويضرب المسلمين بلا ذنب لم تصلح أيامه ، فعرف أنه باغ جهول حمار ، دولته قريبة الزوال ومصيبته سريعة الوقوع ، وهو شقى فى الدنيا والآخرة ، وإذا أخذه الله لم يفلته »[٢] .

ويقول إن الأخذ بالقسط ومراعاة حدود الشرع واجبة لبقاء الدول : « وقد اعتبرت – وما ينبئك مثل خبير – فما وجدت ولا رأيت ، ولا سمعت بسلطان ولا نائب سلطان ، ولا أمير ولا حاجب ولا صاحب شرطة يلقى الأمور

---

(١) معيد النعم ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ٥٩ .

إلى الشرع إلا وينجو بنفسه من مصائب هذه الدنيا ، وتكون مصيبته أبداً أخف من مصيبة غيره ، وأيامه أصلح ، وأكثر أمناً وطمأنينـــة ، وأقل مفاسد . وأنت إذا شئت فانظر تواريخ الملوك والأمراء العادلين والظالمين ، وانظر أى الدولتين أكثر طمأنينة وأطول أياماً »[1] .

وربما حمل الفقهاء ورجال الدين لواء الثورة على المماليك ، ففى سنة ٧١١ هـ ضيق نائب السلطنة على الناس وقرر على الأملاك أموالاً تؤخذ فى كل شهر ، واجتمع القضاة والخطيب والعامة وحملوا المصاحف ووقفوا له بسوق الخيل ، فلما رآهم قال لهم: انقضى الشغل . فامتنعوا ، فأشار عليهم الحاجب بعصا معه ففروا ، وهرول الذى يحمل المصحف فسقط منه ، فرجموا الحاجب فارتد النائب إلى القصر وأخرق بالقاضى ابن صصرى وبالخطيب ، فصاح فيه الشيخ مجد الدين التونسى : كفرت . فأمر بضربه ؛ فضرب ضرباً شديداً ، وأمر بإلقاء الخطيب جلال الدين القزوينى ليضربه . فشفعوا فيه ، فنقل ذلك كله إلى الناصر فأنكره أشد الإنكار ، وأرسل أراغون الدوادار بإمساك النائب ، فأمسك وقيد »[2] .

وكان المماليك لا يتورعون عن التجسس والتلصص واستراق السمع وتلقط أخبار الناس ، غير مراعين ما ينتهكون من حرمات فى سبيل مصالحهم وأمنهم ، واستقرار ملكهم . ويقف السبكى فى وجه هذه الأعمال لمنافاتها الإنسانية وتعارضها مع الحـــرية الشخصية التى كفلها الدين ، فقال إنه لا ينبغى لوالى المدينة فى تعقبه للمخالفين والمجرمين وأهل الفجور أن يتجسس على الناس « ليس له أن يتجسس على الناس يبحث عما هم فيه من منكر ، ولا كبس بيوتهم بمجرد القيل والقال ، بل حق على الوالى إذا تيقن أن يبعث سراً رجلا مأموناً ينهى عن المنكر بقدر ما نهى الله تعالى ولا يزيد على

(١) معيد النعم ٦٠ .

(٢) الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٦ .

ذلك . وما تفعله الولاة من إخراج القوم من بيوتهم وإرعابهم وإزعاجهم ، وهتكهم . كل ذلك من تعدى حدود الله تعالى والظلم القبيح » ، ويقول : « ولا يقام حد الخمر فى السكر ، بل يؤخر حتى يفيق فإن إقامته فى السكر خطأ » .

وانتقد السبكى اهتمام المماليك بالدين مظهراً لا مخبراً ، وخاصة ما يعمدون إليه من اتخاذ المنشدين والقراء للتسلية ، والطرب . وعاب على القراء تكسبهم بالقرآن فى المناسبات الدينية بقصور المماليك . فيقول إن أولئك القراء يذهب أحدهم إلى دار الأمير فيأتى فى أخريات الناس ولا يلتفت إليه أحد ، ويقرأ عشراً أو ينشد مديحاً نبوياً بين يدى أمير أو ديوانى أبكم لا يفهم ما يقال، وهو مع ذلك مشغول بحكمه وما هو فيه . « وكان المتعين على من منحه الله تعالى نعمة القرآن أو مدح نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزههما عن هذا المقام » ثم يقول : « رأيت منشداً حضر إلى مخيم بعض الأمراء ، والخلق تزدحم ، وهو ينشد صفات سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والقوم لا ينصتون له ، ولا فيهم من يدرى ما يقول ، فحصل بذلك من الألم ما كاد يعصر بقلبى . ومن شكر نعمة الله على ذوى الأصوات الحسنة من القراء والمنشدين ألا يستعملوا أصواتهم فى الغناء المحرم »(١) .

* * *

ومن مظاهر الحياة الدينية الواضحة فى هذا العصر الأعياد والمناسبات الدينية ، فقد اهتم بها مجتمع ذلك الزمان اهتماماً بالغاً ، بإقامة الشعائر فى مظاهر جليلة ، والاهتمام بالزينة وإبداء مشاعر الفرحة والابتهاج . ومن الأعياد الهامة التى احتفل بها المسلمون « ليلة نصف شعبان » تُحيا بالذكر والصلاة وإنارة المساجد . واستحدث الاحتفال بهذه الليلة كرواية ابن كثير سنة ٤٥٠ هـ(٢) ، وظلت إنارة المساجد متبعة حتى أبطلت فى زمن السلطان الناصر حسن سنة ٧٥٠ هـ .

---

(١) معيد النعم ١٥٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/٢٣٥ .

وكانوا يهتمون بذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وموالد الأولياء والصالحين كالسيد البدوى ، الإنبابى فى إنبابه . وكثيراً ما تتخذ مناسبات موالد الأولياء والشيوخ مجالاً للتحرر من القيود ، وارتكاب بعض المفاسد والشرور . قال ابن العماد فى مولد الإنبابى :

« وكان يجتمع فيه من الخلق مالا يحصى عددهم بحيث إنه وجد فى صبيحته مائة وخمسون جرة خمر فارغات ، إلى ما كان فى تلك الليلة من الفساد ومن الزنا واللواط والتجاهر بذلك . وكذلك كان المولد الذى يعمل بطندتا (طنطا) »[١] .

وكان التعصب للمذاهب ظاهرة دينية معروفة بين العلماء شائعة بين الناس . وكان المذهب الشافعى غالباً على مصر والشام . قال تاج الدين السبكى : « وقال أهل التجربة إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية متى كان اليد فيها لغير الشافعية خربت ، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعاً . وكأن هذا السر جعله الله فى هذه البلاد كما جعله لمالك فى بلاد المغرب ، ولأبى حنيفة فيما وراء النهر »[٢] .

وأصَّل فقهاء الشافعية بمصر والشام مذهبهم وألفوا فيه الموسوعات والمختصرات الميسرة لعامة الناس . فمن مؤلفاتهم الجامعة فيه « جمع الجوامع » لتاج الدين السبكى الذى ظل عدة أهل المذهب فترة طويلة ، فدرس بمدارس الشافعية وبالأزهر .

وكان الشافعية أقل تشدداً من المالكية والحنابلة . وكانت العادة أن يحكم القاضى فى أتباع مذهبه ، وحكم المالكى أيام الناصر محمد على المدعو أحمد ابن اليقتى بضرب عنقه ، ولم يقبل فيه شفاعة قاضى القضاة ابن دقيق العيد الشافعى ، وقال ابن دانيال[٣] :

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد .
(٢) طبقات الشافعية ١٣٤/٥ .
(٣) الدرر الكامنة ٣٠٩/١ .

يظن الفتى اليقق أنه سيخلص من قبضة المالكى
نعم سوف يسلمه المالكى قريباً ولكن إلى مالك

وتشدد الحنابلة بزعامة ابن تيمية فى محاربة البدع والفساد ، وخاصة ما يتصل بانتشار شرب الخمر والحشيش ، وزيارة قبور الأولياء وارتكاب المفاسد . ويروى أن ابن تيمية قطع الصخرة التى كان يعتقد أهل دمشق أن عليها قدم النبي ، لأنه رأى الناس تتبرك بها ويقبلونها(١) .

وفى سنة ٧٠٥ أظهر ابن تيمية الإنكار على الفقراء الأحمدية (الرفاعية) لدخولهم النار المشتعلة ، وأكلهم الحيات ، ولبسهم أطواق الحديد فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتلبيدها ، وقام فى ذلك قياماً عظيماً بدمشق ، وحضر فى جماعة إلى النائب وعرفه أن هذه الطائفة مبتدعة ، واستقر العمل على حكم الشرع (٢) .

وكان الحماس الدينى يثور ببعض العامة من الفقراء والمجاورين بالمساجد لمحاربة بدعة مظهر من مظاهر الفساد والخروج على الدين . وقال ابن كثير إن ابن تيمية صحب جماعة من هؤلاء فدار بهم على الخمارات والحانات سنة ٦٩٩ ﻫ بدمشق فكسروا آنية الخمور ، وشققوا الظروف وأراقوا الخمور ، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش(٣) .

وذكر أنه فى سنة ٧٥٦ ﻫ نهدت جماعة من مجاورى الجامع بدمشق وأتبعهم جماعة من الفقراء والمغاربة وجاءوا إلى أماكن متهمة بالخمر وبيع الحشيش فكسروا أشياء كثيرة من أوانى الخمر ، وأراقوا ما فيها ، وأتلفوا شيئاً كثيراً من الحشيش وغيره ، ثم انتقلوا إلى حكر السماق وغيرهم فثار عليهم من البارذارية والكلابزية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا وضربت عليهم ضرابات بالأيدى وغيرها ، وربما سل بعض الفساق السيوف عليهم ،

(١) السلوك ٢/٩ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) البداية والنهاية ١٤/١١ .

وقد رسم ملك الأمراء اوالى المدينة ووالى البر أن يكونوا عضداً لهم وعوناً على الخمارين والحشاشة فنصروهم عليهم . غير أنه كثر منهم الضجيج ، ونصبوا راية واجتمع عليهم خلق كثير ، ولما كان فى آخر النهار تقدم جماعة من النقباء ، والخزندارية ومعهم جنازير ، فأخذوا جماعة من مجاورى الجامع وضربوهم بالمقارع وطيف بهم فى البلد ونادوا عليهم هذا جزاء من يتعرض لما لا يعنيه تحت علم السلطان . فتعجب الناس من ذلك وأنكروه حتى إنه أنكر اثنان من العامة على المنادية ، فضرب بعض الجند أحدهما بدبوس فقتله ، وضرب الآخر فيقال إنه مات أيضاً »[١] .

ولما قويت شوكة الحنابلة بين العامة وصاروا مصدر شغب وقلق ألب السلطان عليهم قضاة المذاهب الأخرى وفقهاءها ، وأمكنهم بذلك أن يقضوا على ثوراتهم وأن يودعوا كل من جاهر بالاحتجاج ، أو سعى إلى إزالة مالا يعجبه بنفسه دون الرجوع للسلطة .

ولم يكن التعصب للمذاهب مقصوراً على الفقهاء وأتباعهم من عامة الناس بل تعداهم إلى المماليك أنفسهم ، فيروى أن يلبغا الناصرى كان حنفياً ، وتعصب لمذهبه ، وحاباه حتى كان يعطى من يتمذهب لأبى حنيفة العطاء الجزيل . وقال ابن حجر إنه حاول فى آخر عمره أن يجلس الحنفى فوق الشافعى فعاجله القتل[٢] .

وكان التحول عن مذهب إلى آخر ظاهرة عادية للوصول إلى مطمع أو غاية دنيوية ، كالقربى للسلطان أو الحظوة بالوظائف ، أو التدريس بالمدارس ، أو لمجرد الحصول على جائزة أو مبلغ من المال . ومن أشهر من تحول عن مذهبه أثير الدين أبو حيان العالم النحوى المفسر الأندلسى الأصل ، تحول عن المالكية إلى الشافعية لينفق عند أرباب السلطان فى مصر فتروج بضاعته .

---

(١) البداية والنهاية ٢٥٧/١٤ .

(٢) الدرر الكامنة ٤٣٨/٤ .

وعاب السبكي التعصب الأعمى للمذهب فقال عن فقهاء عصره وعلمائه: «ومنهم من يأخذ في الفروع بالحمية لبعض المذاهب، ويركب الصعب والذلول في العصبية، وهذا من سوء أخلاقهم ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب، بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض، إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره، ويا ويح هؤلاء، أين هم من الله تعالى؟ ولو كان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى حيين لشددا النكير على هذه الطائفة». ويقول: «وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة، ولله الحمد في العقائد يد واحدة، كلهم على رأى أهل السنة والجماعة يدينون بالله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى، لا يحيد عنها إلا رعاع من الحنفية والشافعية، لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية، فلم ير مالكي إلا أشعرى العقيدة، وبالجملة عقيدة الأشعري هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول ورضوها عقيدة»[(١)].

وفي إشارة السبكي إلى معارضة بعض أهل السنة للأشعري نبه إلى أن جماعة من علماء السنة بالعصر لم يرتضوا آراء الأشعري ولا طريقته مثل الذهبي. قال السبكي: «وهذا شيخنا الذهبي كان سيد زمانه في الحفظ مع الورع والتقوى، ومع ذلك يعمد إلى أئمة الإسلام من الأشاعرة فيظهر عليه من التعصب عليهم ما ينفر القلوب منه، وإلى طائفة من المجسمة فيظهر عليه من نصرتهم ما يوجب سوء الظن به، وما كان والله إلا تقياً نقياً».

وكان من علماء الأشاعرة صفي الدين الهندي، محمد بن عبد الرحيم (ولد بالهند سنة ٦٤٤ هـ) المتكلم على مذهب الأشعري. قدم إلى مصر وجالس بها ابن سبعين العالم الصوفي، وسافر إلى بلاد الروم فأقام هناك

(١) معيد النعم ١٠٧.
(٢) المصدر نفسه ١٢٣.

إحدى عشرة سنة ثم قدم إلى دمشق وأقام بها إلى أن مات . قال ابن العماد : « كان من أعلم الناس بمذهب الشيخ أبي الحسن الأشعرى وأدراهم بأسراره » ، ومن تصانيفه فى ذلك « الزبدة والفائق » ، وله فى أصول الفقه « النهاية » ، و« الرسالة السنية »[١] .

ومنهم الباجى ، علاء الدين أبو الحسن على بن عبد الرحمن الأندلسى ثم المصرى الشافعى المذهب الأشعرى العقيدة . تفقه بالشام ثم دخل القاهرة واستوطنها . قال ابن شهبة : « كان أعلم أهل الأرض بمذهب الأشعرى » . وتوفى سنة ٧١٤ هـ[٢] .

ولم تكن سيطرة مذاهب أهل السنة على عقائد المسلمين شاملة كل من خضع لدولة المماليك فى مصر والشام وغيرهما من الأمصار ، بل كان وسط المحيط السنى جزر شيعية الاتجاه فى كثير من مناطق مصر والشام واليمن .

وتخلفت تلك الجزر من عصر الفاطميين فى مصر خاصة ؛ وأكثر الشيعة استوطنوا بصعيد مصر وبجبال الشام واليمن . ويحدثنا الإدفوى عن حركة للشيعة بالصعيد سنة ٦٩٧ هـ تزعمها من يدعى داود ، يقول إنه من نسل العاضد الفاطمى[٣] .

قال ابن العماد إن إسنا أيام القاضى القفطى أواخر القرن السابع كانت مليئة بالروافض ، فقام القفطى فى نصرة السنة ، وأصلح الله به خلقاً ، فهمت الروافض بقتله[٤] .

وقال الأدفوى إن الشيخ هبة الله بن سيد الكل الأدفوى فتح إسنا وأزال

(١) شذرات الذهب ٣٧/٦ .
(٢) المصدر نفسه ٧١٤/٦ .
(٣) الطالع السعيد ٣٦٨ .
(٤) شذرات الذهب ٤٣٨/٥ .

من عقول أهلها الرفض ، وأحل محله عقيدة السنة[١] .

ويقول فى ترجمة ابن دقيق العيد : « أتى إلى الصعيد فى طالع لأهله سعيد ، فتمت عليهم بركاته ، وعمتهم علومه ودعواته . وكان مذهب الشيعة متفشياً فى ذلك الإقليم ، فأجرى مذهب السنة على أسلوب حكيم ، وزال الرفض ، وانجاب ، وثبت الحق حتى لم يبق فيه شك ولا ارتياب »[٢] .

وأشار الإدفوى إلى أنه كان بقوص بعض الشيعة الإسماعيلية من العلماء أمثال عبد القادر بن مهذب الإدفوى (توفى سنة ٧٢٥ هـ) ، وقد تفقه بقوص . قال وكان مشتغلا بكتاب « الدعائم » للقاضى النعمان بن محمد الإسماعيلى . وكان فيلسوفاً يقرأ الفلسفة[٣] .

واهتم علماء الشيعة فى مصر وغيرها بعلوم الفلسفة ؛ والعلوم العقلية عامة ، واشتهر من بينهم ممن اتجه هذا الاتجاه جمال الدين المطهر الحلى (المتوفى سنة ٧٢٦ هـ) . قال ابن تغرى بردى « كان عالماً بالمعقولات ، وكان رضى الخلق ، وعاش بالعراق ، واتصل بملك التتار خربندا ، وكانت له عنده وجاهة . وله مصنفات عدة ، غير أنه كما يقول ابن تغرى بردى كان رافضياً . ولابن تيمية عليه رد فى أربعة مجلدات ، وكان ينبذه ويسميه « ابن المنجس » يعنى عكس شهرته[٤] . وقال ابن الوردى : « كان من غلاة الشيعة ، لما تشيع خربنده أحضر إليه وأكرم وجعل له أرزاق كثيرة ، وبلغت مصنفاته فى الأصول وفقه الإمامية والنحو والمنطق ١٢٠ مجلداً »[٥] .

وبلغ نفوذ الشيعة فى الحجاز أن كان شريف مكة من الشيعة ، بل ومن

---

(١) الطالع السعيد ٩٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٢٥ .

(٣) الطالع السعيد ٣٣١ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٩ .

(٥) تاريخ ابن الوردى ٢/٢ .

الروافض . قال ابن تغرى بردى : « وكان يؤذن فى الحرم بـ « حى على خير العمل » على قاعدة الروافض .

ومن الشيعة من اتخذوا الاعتزال منهجاً عقلياً مثل محمد بن عدنان ابن الحسن الشريف العلوى الحسينى ، الدمشقى ، شيخ الإمامية بدمشق (توفى سنة ٧٢٢ هـ) . قال الصفدى : « وكان ذا تعبد زائد وتلاوة وتأله ، وانقطاع بالمرة » قال « وكان يترضى عن عثمان رضى الله عنه ويتلو القرآن ليلاً ونهاراً ، ويتظاهر بالاعتزال ، ينتصر له ويبحث عليه »[١] .

وعجيب أن نرى فى هذا العصر من أهل السنة من يميل إلى التشيع من كبار العلماء أمثال الصرصرى سليمان بن عبد القوى الحنبلى المتوفى بالخليل بفلسطين سنة ٧١٦ هـ . وكان حنبلياً من صرصر بالعراق ، ودرس به ، ثم جاء دمشق فسمع الحديث ، وسافر إلى مصر سنة ٧٠٥ هـ فلقى علماءها ، وأقام بالقاهرة زمناً . قال ابن العماد : « وكان مع ذلك كله شيعياً منحرفاً فى الاعتقاد عن السنة حتى إنه قال فى نفسه :

أشعرى حنبلى رافضى هذه إحدى العبر

ووجدت له فى الرفض قصائد ، ويلوح به فى كثير من تصانيفه ، حتى إنه صنف كتاباً سماه « العذاب الواصب على أرواح النواصب » . وقيل اشتهر عنه الرفض والوقوع فى أبى بكر وابنته عائشة رضى الله عنها ، وفى غيرها من جلة الصحابة[٢] . قال ابن حجر : « وكان يتهم بالرفض وله قصيدة يغض فيها من بعض الصحابة » . قال الصفدى : « كان وقع له بمصر واقعة مع سعد الدين الحارثى ، وذلك أنه كان يحضر دروسه فيكرمه ويبجله ، وقرره فى أكثر مدارس الحنابلة فتبسط عليه إلى أن كلمه فى الدرس بكلام غليظ ، فقام عليه ولده شمس الدين عبد الرحمن ،

---

(١) نكت الهميان ٢٦٤ .

(٢) شذرات الذهب ٣٦/٦ .

وفوض أمره لبدر الدين بن الحباك فشهدوا عليه بالرفض ، وأخرجوا بخطه هجواً فى الشيخين ، فعزر وضرب ، فتوجه إلى قوص ، فنزل عند بعض النصارى ، وصنف تصنيفاً أنكروا عليه منه ألفاظاً وكان فى الشعر الذى نسبوه إليه مما يصرح فيه بالرفض قوله :

كم بين من شك فى خلافته ... وبين من قيل إنه الله

قال ابن حجر : « ونسب إليه أنه تاب عن الرفض ، وأنه استقام أمره »[1] .

وكان للتشيع آثاره كذلك فى الشعر والعلم ونذكر من شعراء الشيعة فى مصر ابن شوّان الأسنائى (توفى سنة ٧٠٦ هـ) . ومن شعره قصيدة يقول فى مطلعها :

كيف لا يحلو غـَرامى وافتضاحى ... وأنا بين غبوقٍ واصْطباحِ

معْ رشيق القدّ معسول اللمى ... أسمَر فاقَ على سمر الرماحِ

ويقول فيها :

أمناء الله فى السرّ الذى ... عجزتْ عن حمله أهل الصلاحِ

هم مصابيحُ الدُّجَى عند السرى ... وهم أسْدُ الشرى عند الكفاحِ

تشرقُ الأنوارُ فى ساحاتهم ... ضوؤها يربو على ضوْء الصباحِ

أهلُ بيت الله إذ طهـَّره ... فجميع الرِّجس عنهم فى انتزاحِ

ويقول منها :

وأبوكم بعده خير الورى ... فارس الفرسان فى يوم الكفاح

وارث الهادى النبىّ المصطفى ... ما على من قال حقـّاً من جناح

وفى هذه القصيدة ما يراه الشيعة من أن الأئمة أمناء الله فى السر ، ويضمن الشاعر الآية القرآنية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » . كما يصرح بأن وريث النبى صلى الله عليه وسلم هو على بن أبى طالب فارس الفرسان .

---

(١) الدرر الكامنة ٢/١٥٥

وظهرت فى العصر بعض الدعوات الدينية المتطرفة التى خرجت على الدولة وشقت عصا الطاعة بحد السيف . ففى سنة ٧١٧ ظهر بالشام رجل من أهل الجبل بـ « جبلة » ، وادعى أنه المهدى ، وثار معـــه خلق من النصيرية والجهلة بلغوا ثلاثة آلاف ، فقال أنا محمد المصطفى مرة ، ومرة قال أنا على ، وزعم أن الناس كفرة ، وأن دين النصيرية هو الحق ، وعاثوا بالساحل (ساحل الشام) ، واستباحوا جبلة ، ورفعوا أصـــواتهم وقالوا : لا إله إلا على ، ولا حجاب إلا محمد ، ولا باب إلا سلمان ، ولعنوا الشيخين ، وخربوا المساجد ، وكانوا يحضرون المسلم إلى طاغيتهم ويقولون : أسجد لإلهك . قال ابن العماد : فسار إليهم عسكر طرابلس ، وقتل الطاغية وجماعته فتمزقوا[1] .

وتتابعت الانتفاضات ، والاضطرابات الدينية ، وتفجرت الثائرات هنا وهناك فى مصر ، والشام ، واليمن والحجاز ، وبادية العرب .

وتمتعت الطوائف غير الإسلامية من نصارى أقباط وغيرهم ، ويهود فى ظل المماليك بالحرية الدينية وبسطة العيش إلا فى بعض الظروف التى تثور فيها الفتن أو تتفجر العصبيات ، ومن مظاهر تمتعهم بالحريات فى العقيدة ، والعيش وجمع المال ، وتولى المناصب الديوانية أمثلة كثيرة . يقول ابن تغرى بردى : إن أقباط مصر كانوا يشغلون الوظائف الكبرى ويلبسون أفخر الثياب ، وكانوا يتمتعون ببعض الحرف الفنية التى اعتادوها وأتقنوها كالصيرفة والصياغة والطب والصيدلة . وكان لليهود فى دولة المماليك رئيس دينى تولاه فى الدولة الأولى فترة طويلة الشيخ المهذب أبو الحسن الموفق بن النجم المهذب ابن أبى الحسين بن شمويل الطبيب . قال المقريزى : وكتب له توقيع برئاسة سائر طوائف اليهود من الربانيين والقرائين والسامرة . واتخذوا الألقاب مثل المسلمين ، وتكنوا بالكنى ، بل وكانت تشترك أسماؤهم

---

(١) شذرات الذهب ٦/٢٣

وكناهم أحياناً بأسماء المسلمين وكناهم .

وفرض على اليهود والنصارى — كما فرض على بعض طوائف المسلمين — زى خاص للرأس وحدث فى سلطنة الناصر محمد الثانية — سنة ٧٠٠ هـ أن جاء إلى القاهرة أحد كبار المغاربة وجلس بباب القلعة عند بيبرس الجاشنكير وسلار ، فحضر بعض كتاب النصارى ، فقام إليه المغربى يتوهم أنه مسلم ، ثم ظهر أنه نصرانى ، فقامت قيامته ، وقام من وقته ودخل إلى السلطان بحضرة الأمير سلار وبيبرس مدبرى مملكة الناصر محمد ، وتحدث معهم فى أمر النصارى واليهود ، وأنهم عندهم فى بلادهم فى غاية الذل والهوان ، وأنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل ، ولا من استخدامهم فى الجهات السلطانية والديوانية ، وأنكر على نصارى ديار مصر ويهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب ، ويركبون البغال والخيل ، وأنهم يستخدمونهم فى أجل الجهات ، ويحكمونهم فى رقاب المسلمين . قال ابن تغرى بردى : فأصدر إليهم فى عهد الناصر هذا أمر بلبس عمائم زرقا ، وزنانيرهم مشدودة فى أوساطهم ، واليهود عمائم صفرا . ثم أمر السلطان الناصر بغلق الكنائس فى مصر ، فضرب على كل باب منها دفوف ومسامير ، وصار إذا ركب أحدهم بهيمة يكف إحدى رجليه وبطلوا من الخدم السلطانية ، وكذلك من عند الأمراء . قال : ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك فى جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات [1] .

ويقول المقريزى : « وفى سنة ٧٠٠ هـ كانت وقعة أهل الذمة ، وهى أنهم كانوا قد تزايد ترفههم بالقاهرة ومصر ، وتفننوا فى ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائقة بالحلى ، ولبسوا الثياب السرية وولوا الأعمال الجليلة ، فاتفق قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج ، واجتمع بالسلطان والأمراء ، فبينما هو تحت القلعة إذا برجل راكب فرساً ، وحوله عدة ناس مشاة فى ركابه ،

(١) النجوم الزاهرة ١٣٤/٨

يتضرعون له ويسألونه ، ويقبلون رجليه ، وهو معرض عنهم لا يعبأ بهم ، بل ينهرهم ويصيح فى غلمانه بطردهم ؛ فقيل للمغربى إن هذا الراكب نصرانى فشق عليه ، واجتمع بالأمير بيبرس وسلار : وحدثهما بما رآه ، وأنكر ذلك ، وبكى بكاء كثيراً ، وشنع فى أمر النصارى ، وقال : كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيضاء وتذل المسلمين وتمشيهم فى خدمتهم ؟ وأطال القول فى الإنكار : وما يلزم ولاة الأمور من إهانة أهل الذمة وتغيير زيهم . فأثر كلامه فى نفوس الأمراء فرسم بأن يعقد مجلس بحضور الحكام ؛ فاستدعيت القضاة والفقهاء ، وطلب بطرك النصارى وبرز مرسوم السلطان بحمل أهل الذمة بما يقتضيه الشرع المحمدى »[١] .

وقال المقريزى : « واستقر الحال على أن النصارى تتميز بلبس العمائم الزرق ، واليهود بلبس العمائم الصفر ، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال » . ويقول : « وجمع النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها ورسم ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ، ولا بدواوين الأمراء ؛ وألا يركبوا خيلاً ولا بغالا ، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم ، ونودى بذلك فى القاهرة ومصر ، وهدد من خالفه بسفك دمه ، وخرج البريد يحمل النصارى واليهود فيما بين دنقلة والنوبة إلى الفرات على ما تقدم ذكره »[٢] .

وكذلك ذكر ابن إياس هذه الواقعة ، وزاد بأن فرض على السامرية بالشام والفرات لبس العمائم الحمراء[٣] . وأجمع المؤرخون على أن بيبرس الجاشنكير كان السبب فى هذا الاتجاه سواء فى عهد سلطنته بعد خروج الناصر أو قبيل خروجه مباشرة إلى الكرك[٤] .

---

(١) السلوك ١/٩٠٩

(٢) المصدر نفسه ١/٩١١

(٣) تاريخ ابن إياس

(٤) راجع الدرر الكامنة ١/٥٠٤ إلى جانب المصادر السابقة

وسخر الشعراء بدورهم من هذا الحدث فقال واحد منهم :(١)

لا تعجبوا للنصارى واليهود معاً والسامرية لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

وكان مما أوغر صدور الناس فى ذلك الوقت على النصارى ، وتقبلهم مثل تلك الفروض عليهم تشدد موظفى الحكومة من الأقباط كتاباً ومحصلى مكوس فى وظائفهم على الرعية ، وقسوتهم فى تحصيل الأموال ، وتضييقهم على الناس ، وأخذهم المال بالباطل والثراء من هذا كله بالرشـــوة أو السرقة والاختلاس ، ثم لتظاهرهم بعد هذا كله بالإسلام ، وتعصبهم فى الخفاء لدينهم مما دعا أحد الشعراء إلى أن يقول (٢) :

اللعب بالدينين يقبح بالفتى والرأى صدق القلب والتسليم
هذا كريم الدين لولا نصره دين النصارى مات وهو كريم

وكان كريم الدين هذا كما أشرنا وكيل السلطان الناصر ، وأحد كبار أقباط المصريين الذين نالوا حظوة كبيرة لدى الناصر فى سلطنته الثالثة . وقد تساهل الناصر مع النصارى فى عهد هذه السلطنة ، ولم يعد التشدد الذى كان أيام بيبرس الجاشنكير ، حتى تحدى كريم الدين ، والنشو — من كبار الأقباط كذلك — مشاعر المسلمين (٣) ، فأدى إلى وجود النفرة بين طوائف الأمة واندلاع الأحداث الدامية سنة ٧٢١ هـ ، وشبت حرائق القاهرة التى دبرها الأقباط لشعورهم بالاضطهاد والتضييق عليهم فى العبادة وإلزامهم بعلامات خاصة فى الملبس والمركب . قال الدواداري : « وفيها (سنة ٧٢١ هـ) كان بدء الحريق العظيم بمصر والقاهرة ، وكان من فعل النصارى ، وسببه أن برز المرسوم الشريف بخراب كنيسة الكرج التى كانت تعرف بالحمراء ،

---

(١) الدرر الكامنة .

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٧٢ .

(٣) الطالع السعيد ٣٢٦ ، وراجع السلوك ٢/٢١٩ .

فشرع الناس فى هدم عدة كنائس وهى : كنيسة الزهرى ، وكنيسة أبى مى وكنيسة السبع سقايات . وبلغت الجملة سبع كنائس أخربوها العامة ونهبوا منها أشياء كثيرة ، فشرعوا النصارى فى الحريق بمصر والقاهرة فى سائر الأماكن . ولقد بلغنى أنهم تسموا بالمجاهدين ، وهم الذين تجردوا لهذا الفعل ، وكانوا يرمون بالحرق المحشوة بالزيت والكبريت ، ويؤرثون فيها النيران ويحذفونها فى أسطحة البيوت ، ويدفعونها تحت الأبواب الخشبية . وعادت أيام شنيعة ، وكل أحد خائف وجل على نفسه وملكه وماله . وأحرقت عدة دور حسنة لها صورة ، وعادوا النصارى يزعمون أن النار تنزل من السماء ، ليوهموا أن ذلك بسبب خراب كنائسهم ، ثم إن النصارى طلبوا فاختفوا ، ومسك منهم جماعة وعوقبوا »[١] .

ويقول ابن الوردى عن تلك الحرائق: « وتوالى الحريق بالقاهرة ، وتحير السلطان والرعية له ، وتتبع ذلك فقيل إنه وجد بعض النصارى ومعه آلة الحريق كالنفط وغيره ، فأخذوا وعرضوا على السلطان فذكر بعضهم أن القسيسين اتفقوا على هذا بسبب ما حصل من التعرض إلى كنائسهم وأنهم رتبوا أربعين نفساً من النصارى يلقون النار فى بيوت المسلمين ومساجدهم ؛ ثم نودى على النصارى أن يخرجوا بالثياب الزرق والعمائم الزرق ، وأن يجعل الجرس فى أعناقهم فى الحمام وأن يركبوا عرضاً ، ولا يستخدموا فى الديوان . فعند ذلك خف الإحراق بعد أن كان أمراً عظيماً وكم سقطت به دار ، وكم خرج من حريم مكشفات حتى قفت الناس له فى الصلوات ، وأعدوا الدنان مملوءة ماء فى الأسواق »[٢] .

وقال المقريزى : « فشاع بين الناس أن الحريق من جهة النصارى لما أنكاهم هدم الكنائس ونهبها ، وصارت النيران توجد تارة فى منابر الجوامع ، وتارة فى حيطان المدارس والمساجد ، ووجدت النار بالمدرسة المنصورية ، فزاد

---

(١) تاريخ الدوادارى ٣٠٦

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٧٢

قلق الناس وكثر خوفهم ، وزاد استعدادهم بادخار الآلات المملوءة ماء في أسطح الدور ، وأكثر ما كانت النار توجد في العلو ، فتتبع في زروب الأسمطة والباذهنجانات ، ويوجد النفط قد لف في الخرق المبللة بالزيت والقطران » .

وفي سنة ٧٤٠ هـ اشتعلت في دمشق فتنة بين النصارى والمسلمين مماثلة لفتنة مصر والقاهرة إذ أشعل النصارى النار بدمشق فشبت الحرائق بالدكاكين وبالمسجد الجامع[١] .

وقامت بالقاهرة فتنة أخرى سنة ٧٥٤ هـ في عهـــد السلطان صالح بن الناصر محمد . قال ابن إياس : « وفي هذه السنة نادى السلطان في القاهرة بأن لا يستعان بيهودي ولا نصراني في ديوان ، وأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير ، وأنهم لا يركبون مع مكاري مسلم ، وإذا مروا بالمسلمين ينزلون من الحمير ، ويظهرون المسكنة . وأنهم لا يدخلون الحمام إلا بصليب في أعناقهم وشرط عليهم أشياء كثيرة من هذا النمط »[٢].

وجاء في منشور للسلطان ســـنة ٧٥٥ هـ : « ألا يدخلوا الحمامات إلا بالعلامات من جرس أو خاتم نحاس أصفر أو رصاص ، ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات ، وليكن لهن حمامات تختص بهن ، وأن يكون إزار النصرانية من كتان أزرق ، واليهودية من كتان أصفر ، وأن يكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ، وأن يحكم حكم مواريثهم على الأحكام الشرعية »[٣] .

وهكذا اتجه المماليك إلى التفرقة بين الطوائف الدينيـــة وأرثوا نار الفتنة الدينية ، وكشفوها ، وأرادوا التذكير بالفروق بين الناس في الدين ، حتى لا تنطوي نفوسهم على الوفاق والتعاون والمحبة التي أرادها الله لعباده ، ولسائر البشر. واستمرت تلك سياسة السلاطين حتى نهاية الدولة الأولى . وذكر ابن إياس في أحداث سنة ٧٥٩ هـ أنه رفعت قوائم إلى الأمير صرغتمش من

(١) البداية والنهاية ١٤/١٨٦ .

(٢) تاريخ ابن إياس ٢٠١ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٥٠ .

ديوان الأحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديورة فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى ، فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك حنق وطلع إلى القلعة وشاور السلطان على ذلك ، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى ، وكتب بذلك مربعات ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم ، ففرقت عليهم تلك الإقطاعات الشريفة وبطل ما كان بأيدى النصارى من ذلك الرزق . ثم إن السلطان أمر بهدم الكنائس والديورة »(١) .

كذلك ذكر ابن إياس أن صرغتمش هذا أبطل أعياد النصارى مثل عيد الشهيد فى عصر السلطان حسن، لما كان يرتكب فيه من القتل والفساد .

ومما ذكره ابن إياس يتضح أن ذلك الاتجاه إلى التضييق على الطوائف الدينية لم يكن لصالح الناس ، ولا المسلمين من الرعية ، بل كان لصالح المماليك أنفسهم ، لزيادة ما بأيديهم من المال والثروة .

---

(١) ابن إياس ٢٠١ .

الباب الخامس

التصوف والأدب الصوفى

المدائح النبوية ، المواعظ والحكم الدينية

الطرق الصوفية :

وانتشرت الطرق الصوفية فى هذا العصر انتشاراً عريضاً ، وتغلغلت فى أوساط الشعب والخاصة على السواء ، وتعددت أسماؤها ، وأسماء رجالها وشيوخها ، واعترفت بها الدولة ، وقربوا شيوخها ومتبعيها ، وبنوا لهم الرباطات والخانقاه لإيواء فقراء الصوفية والصرف عليهم . وعدوا ذلك بركة وتقرباً إلى الله .

ومما يروى عن اعتقاد السلاطين فى رجال الصوفية أن السلطان لاجين كان يعتقد فيمن يسمى الشيخ محمد بن مسعود الغزنى الصوفى شيخ الصوفية فى رباط خانقاه سعيد السعداء ، وكان يعظمه[1] . وكان أولئك الشيوخ يدخلون فى روع السلاطين أن بمقدورهم الكشف والإتيان بالخوارق ، ودخل من يدعى بالهرماس على السلطان حسن من هذه السبيل حتى بلغ عنده من الحظوة درجة كبيرة .

وكان طبيعياً أن تتفق سياسة المماليك مع الاتجاه العام لفلسفة أصحاب الطرق الصوفية وهى فى جملتها انصراف عن الدنيا ، وزهد فى الحياة والمال ، حتى ينعم المماليك وحدهم بها دون سائر الخلق ، وللناس بعد أن ينعموا بنعيم الآخرة ويكفيهم ذلك عن حرمان الدنيا . وعجيب أن تكون تلك فلسفتهم وسياستهم الظاهرة والباطنة ، فلا يخفونها بل يصرحون بها ، فهم يوجبون على رجال الدين الفقر والحرمان والقناعة ، ولا يوجبون ذلك على أنفسهم ،

---

(١) الدرر الكامنة ٤/٢٥٧ .

وكأنهم يستبيحون لأنفسهم الخير والنعمة ويحرمونها على رجال الدين والفقهاء والفقراء ،ولاحظ ذلك السبكى ونبه إليه فى معيد النعم، وكان المماليك لا يختارون قضاتهم إلا من بين من اشتهروا بالزهادة والفقر ، وربما بالغ بعض القضاة فى التظاهر بذلك لتروج بضاعتهم لدى المماليك فيتولوا القضاء وغيره من المناصب .

وكان من مهام الصوفية؛ أن يدعوا للسلطان وآله ليكشف عنهم الضر ، ويأخذوا على ذلك الأجر من الجائزة والجارى من الطعام والشراب . قال المقريزى : « لما مرض الملك الصالح على بن المنصور قلاوون استدعى قلاوون الفقراء والصالحين ليدعوا له ، وبعث إلى أحدهم واسمه الشيخ محمد السرجانى مبلغ خمسة آلاف درهم ليعمل بها وقتاً للفقراء ، حتى يطلبوا ولد السلطان من الله تعالى ، فقال له الشيخ : سلم على السلطان وقل له : متى رأيت فقيراً يطلب أحداً من الله ؟ . فإن فرغ أجله فوالله ما ينفعه أحد ، وإن كانت فيه بقية فهو يعيش . ورد المال » .

وطلع شيخ آخر للسلطان وقد دعاه ليدعو للصالح فقال: له « أنت رجل بخيل ما يهون عليك شيء ولا خرجت للفقراء عن شيء له صورة ليعملوا وقتاً ليتوسلوا إلى الله ليهبهم ولدك لكى يتعافى . فأعطاه السلطان خمسة آلاف درهم عمل بها سماعاً ثم عاد إلى السلطان فقال : طيب خاطرك ، الفقراء كلهم سألوا الله ولدك ، وقد وهبه لهم ، فلم يكن غير قليل حتى مات الصالح فرأى السلطان فى صبيحته الشيخ فقال له : يا شيخ عمر ، أنت قلت إن الفقراء طلبوا ولدى من الله ووهبه لهم ، فقال على الفور : نعم الفقراء طلبوه ووهبهم إياه ألا يدخله جهنم ويدخله الجنة ، فسكت السلطان »[1] .

واهتم سلاطين المماليك ببناء الخانقاه للصوفية ، ووضعت شروط لمن يدخلها ويقيم بها وجعل على كل خانقاه شيخ لها سمى شيخ الشيوخ ، ومن أشهرها فى العصر المملوكى خانقاه « سعيد السعداء » . وكان شيخها دائماً

---

(١) السلوك ١/٧٤٥ .

كبير شيوخ الصوفية ، وله مكانة جليلة تقرب من مكانة قاضى القضاة وخطيب المسجد الجامع . وممن بنى منهم خانقاه فى هذه الدولة السلطان بيبرس الجاشنكير ، له خانقاه بالقرب من باب النصر ، كان بها ٤٠٠ صوفى[١] . وبنى السلطان الناصر محمد خانقاه سرياقوس سنة ٧٢٥ هـ ، واهتم ببنائها اهتماماً عظيماً وخرجت القضاة والمشايخ والصوفية إليها ، وعمل لهم سماط عظيم ، وجعل الشيخ محب الدين أبو حامد الأقصراوى فى مشيختها ورتب عنده مائة صوفى ، ورسم للشيخ بخلعة وأن يلقب بشيخ الشيوخ ، وخلع على جماعة من الشيوخ ، وفرق من الذهب والفضة على المشايخ نحو ثلاثين ألف درهم[٢] .

ومما اشتهر من ربط القاهرة فى ذلك الزمان رباط صهريج منجك بظاهر القاهرة ، وقد ولى مشيخته شهاب الدين التلمسانى[٣] .

وربما تأثر نظام الخانقاه والربط الصوفية بنظام الرهبنة والديورة فى المسيحية ، خاصة وأنها كانت منتشرة فى مصر والشرق العربى منذ قديم الزمان ، من القرن الثالث الميلادى ، أى قبل هذا العصر بتسعة قرون .

ويقوم شيخ الرباط أو الخانقاه على تربية المريدين على نكران الذات وتحمل الشدائد . يقول السبكى : « ويعمل على تحمل الأذى والضيم على نفسه واعتبار قلوب جماعته قبل قوالبهم ، والكلام مع كل منهم بسبب ما يقبله عقله وتحمله قواه ، ويصل إليه ذهنه ، والكف عن ذكر ألفاظ ليس سامعها من أهلها كالبخل والمشاهدة ، ورفع الحجاب ، إذا كان السامع بعيداً عنها فإن فى ذكرها له من الفساد ما لا خفاء به » .

وهكذا يصبح الخانقاه مكاناً منقطعاً للرياضة الصوفية ، فيه يجتمع الفقراء حول الشيخ ، يدربهم ويأخذ بهم فى الطريق ، ويقوم على نظام

---

(١) الدرر الكامنة ٥٠٧/١ .

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢٧٨/٢ ، وراجع النجوم ٨٤/٩ .

(٣) الدرر الكامنة ٣٢٩/١ .

صارم فى الحياة والعبادة والذكر ، ولهم فيما بينهم لغة فى الحديث ، يتفاهمون بها ، ولا يدرك مراميها سواهم ، أو من ألم من معتقدهم بطرف .

وذكرت المصادر شذرات مفرقات عن نظام الخانقاه ، وشروط الالتحاق به ، وإن كان بعض عوام المماليك ، وجهالهم لم يفهم من ذلك النظام الصوفى سوى مظهره من مأكل ومشرب ، وحلقات ذكر وإنشاد ، ولبس خرق مرقعات ، وما إليها . قال ابن شاكر : « أتى رجل من بادية تكريت إلى توبة بن على الصاحب والوزير بالشام فى عهد السلطان لاجين وقال له : يا مولانا الصاحب أشتهى منك شفاعة إلى شيخ الخانقاه السميصانية حتى ينزلنى فيها ، فدعا بنقيبه وقال له : رح مع هذا إلى شيخ الخانقاه وسلم عليه من جهتى ، وقل له تقبل شفاعتى فى هذا وتنزله فى الخانقاه . فلما جاء شيخ الشيوخ وأدى الرسالة قال له : قل للصاحب هذا ما هو بصوفى ، ولا ينزل عمره فى خانقاه وهذه الخانقاه شرطها أنه لا ينزل فيها إلا صوفى مؤدب يعرف آداب القوم . فجاء إليه الرجل باكياً ، وقال له : يا سيدى لم يسمع من رسالتك فغضب وأرسل خلف الشيخ وقال : يا مولانا لأى معنى لا تنزل هذا ؟ . قال : يا مولاى ما هذا صوفى . فقال الصاحب للرجل : ما تعرف تأكل رز مفلفل ؟ قال : بلى والله . قال : ما تعرف ترقص فى السماع ؟ قال : بلى . قال : ما تعرف تلوط بالمرد ؟ . قال : بلى والله . قال : صوفى أنت طول عمرك »[١] .

والحوار الذى جرى بين الصاحب المملوكى والشيخ ، وإن كان فى ظاهره سخرية وسخطاً لعدم استجابة شيخ الخانقاه ، فإنه يطوى جانباً من الحقيقة ، ويكشف عن النظام المتبع وما شاع بين الناس حول شيوخ الصوفية وفقرائها .

وكان من نظام الخانقاه أن يخصص للقادم الجديد مكان خارجها ينفرد فيه عن الجماعة حتى يتعلم النظام ، ويتم تدريبه على مراسمه . وكانت

---

(١) فوات الوفيات ١/١٨٤.

عادة فقراء الصوفية حلق الرءوس وتقصير لباسهم ، ولبس الصوف . وعندما يقيمون الأوقات ، أى حلقات الذكر والسماع ، يرقصون وينشدون قصائد المديح أو القصائد الصوفية . وعمد بعضهم إلى التكسب بهذا الإنشاد ، وخاصة من كان حسن الصوت ، يقصد دور الأغنياء ، والأمراء فى المواسم الدينية والمناسبات الخاصة .

وقد أشرنا فى عصر الأيوبيين إلى أن روحاً من الانصراف عن الحياة والتواكل قد بدأت تغزو حياة الناس وأفكارهم منذ القرن الخامس ، وازدادت بزيادة الأحداث التى تكالبت على الوطن العربى والإسلامى ، فجعلت الفرد العربى ينتقل من مرحلة التذمر والغضب ، إلى مرحلة اليأس والخنوع ، ثم إلى مرحلة الزهادة والانصراف وعدم المبالاة ، فأصبح يرى فى الحياة الدنيا دار شقاء وفساد ، فتطلع إلى الأمل فى الدار الآخرة يستعيض بها ويستروح ليرضى نفساً ، فهرب بوجدانه ؛ وبكل ما استطاع من رياضة روحية ووسائل مادية كالحشيش وغيره ليغيب عن وعيه الأليم وواقعه المر إلى عالم آخر يخلقه من وعيه الدينى ، وصور الحياة الأخرى التى ارتكزت فيه بمباهجها ؛ ومن هنا وجدت الصوفية منفذاً إلى قلوب الناس ، وانتشرت دعوتها ، وكثر دعاتها ، وطرقهم ، جنباً إلى جنب مع انتشار الحشيش الذى استخدمه فقراء الصوفية وسيلة للغيبوبة ، والانتقال من الواقع الحسى .

وشاعت فلسفة احتقار الدنيا فى كتابات العلماء ورجال الدين ، والكتاب ورجال الأدب قال تاج الدين السبكى : « فأقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدرتها وانصرامها وعظم الآخرة ، ودوامها وصفاءها ، وأن يعلم أنهما متضادتان ، وأنهما ضرتان ، متى أرضيت واحدة أسخطت الأخرى ، وكفتا ميزان ، متى رجحت إحداهما خفت الأخرى ، والمشرق والمغرب متى قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وكقدحين أحدهما مملوء ، فبقدر ما يصب منه فى الآخر يفرغ من هذا . فمن لا يعلم حقارة الدنيا

وكدرتها ، وامتزاج لذاتها بالهموم فاسد العقل ، فإن المشاهدة والتجربة ترشد العقلاء لذلك » [١].

وكذلك قالوا فى التصوف : « هو بغضك الدنيا حباً فى الله ؛ أو هو موتك فى نفسك كى تحيا فى الله » أو هو « ألا تملك شيئاً ، وألا يملكك شىء ، أو باختصار هو طريق الوصول إلى الله تعالى » .

ونقل المقريزى عن السهروردى شهاب الدين قوله : « والصوفى يضع الأشياء فى مواضعها ويدبر الأحوال والأوقات والأفعال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور من مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص » .

فالتصوف فى صورته الاجتماعية مظهر من مظاهر الانصراف عن الحياة الدنيا لحقارتها كما يقول السبكى . ويتزايد هذا الإحساس فى أوقات القهر والأزمات ، للإرهاق النفسى والاجتماعى الذى يخضع له الفرد والشعب ، سواء كان ذلك الإرهاق فى صورة ظلم ، أو هزائم أو ضعف أو نكبات طبيعية أو مرضية . وهذا نفسه ما نلاحظه فى العالم العربى والإسلامى منذ القرن الخامس ، إحساس بالضياع للعنصر العربى تحت وطأة الغزاة ، واستبداد الغرباء من الفرس والمماليك الأتراك والمغول والصليبيين . وقد تبدو انتفاضات : ومظهر قوة براق ، ولكن يعود نفعه إلى الحكام والسلاطين ومن لاذ بهم ، ولا ينال عامة الناس إلا القليل .

وقد سلكت الصوفية طريقين ، طريق الزهادة والفقر والتقشف والإعراض عن الدنيا ببهجتها وزخرفها واعتبارها برقاً خلباً ، ومظهراً خداعاً كاذباً . وطريقاً آخر هو القربى إلى الله والتوصل إليه للحصول على الرضا والقبول عبداً من عباده الصالحين المخلصين ، عن طريق المحبة والإخلاص والتفانى

---

(١) معيد النعم ٩٥ .

فى سلوك الطريق التى يرقى درجاتها بالرياضة وصفاء النفس حتى يبلغ مرتبة الوحدة أو الاتحاد مع حبيبه .

وسلك أئمة الصوفية طرقاً متعددة لبلوغ تلك الدرجة المنشودة ، وعدوا أنفسهم طلاب الحقيقة وأصحابها ، لأنهم يطلعون عليها دون حساب ، والناس من أهل السنة والشريعة أهل شريعة لأنهم يتوصلون إلى الحق وطريقه بالشرع . ورتبوا أنفسهم مراتب ودرجات . قال ابن حجر : عن ابن الجزرى ما خلاصته إن الأقطاب سبعة والأبدال والأعين وهم النجباء كذلك : والأوتاد أربعة ، والغوث يجمعهم وهو مقيم بمكة . والغوث يحكم على الأقطاب ، والأقطاب على الأبدال ، والأبدال على الأوتاد . فإذا مات الغوث ولى الخضر من يكون قطباً بمكة غوثاً ، وجعل بدل مكة قطباً ، وعين مكة بدلا ، وبدل مكة وتداً .. وهكذا أبداً . فإن مات الخضر صلى الغوث فى حجر إسماعيل تحت الميزاب فتسقط عليه ورقة باسمه فيصير خضراً ، ويصير قطب مكة غوثاً وهكذا .

ومن هذا التقسيم أو البناء التصاعدى « الهيراركى » يتضح أن عالم الصوفية ملك قائم بذاته فى دنيا الحقيقة على رأسه الخضر ، ومن تحته مساعدون وأتباع من الأغواث والأبدال والأبواب والأقطاب . وأرفع هؤلاء درجة من كان يعيش بمكة مجاوراً . وبهذا كان أمل الصوفية وغايتهم جوار مكة زمناً لينالوا الحظوة فى بيت الله وهناك يكونون أقرب ما يكون إليه .

قال السبكى عن الطريق الصوفى عند أتباع الجنيد : « وطريقهم كما قال شيخ الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله : « طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة » . وقال : « الطريق مسدود على خلق الله إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وليست كل طرق الصوفية كطريق الجنيد فى مراعاة الاعتدال وموافقة الكتاب والسنة ، بل إن منها من يشطح ، ويتهاون فى مراعاة حدود الكتاب

والسنة ، ويتطاول على مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، على اعتبار أن الرسالات والتكاليف لا تقع على أهل الحقيقة ولكنها لعامة الناس ممن لا يستطيعون ولا يملكون طريق الحقيقة ، ولعل اتخاذهم لقصة الخضر مع النبي موسى فى القرآن شاهداً على صاحب الحقيقة وهو الخضر ؛ وصاحب الرسالة وهو النبي موسى يلقى كثيراً من الضوء على عقائدهم .

قال السبكى : « ومن حقهم تربية المريد إذا لاحت عليه لوائح الخير وإمداده بالخاطر والدعاء » قال : «يحكى عن بعض المشايخ أن تلميذه حضر إليه وهو جالس فى جماعة ، وقد ارتفع النهار فتفرس الشيخ أنه الليلة الذاهبة كان قد ارتكب معصية ، فنظر إليه نظرة مغضب ، ولم يمكنه الإفصاح له بمحضر من الجماعة ، فنظر التلميذ إلى الشيخ نظر منكر ، فقام الشيخ وجاء فقبل يد التلميذ ، ولم تفهم الجماعة شيئاً . فسئل الشيخ بعد ذلك فقال إنه البارحة وقع فى الزناء (أى التلميذ) فنظرت إليه نظرة مغضب المذلك ، فنظر إلى نظر عاتب يقول لو كان خاطرك معى وإمدادك مصاحبى لما وقع منى ذلك ، فأنت المقصر ، فقبلت يده لصدقه »[١] .

وقال ذو النون : « الصوفى من إذا نطق بان نطقه عن الحقائق ، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح . وقال على بن بندار : التصوف إسقاط رؤية الخلق ظاهراً وباطناً . وقال أبو على الروذبارى : « الصوفى من لبس الصوف على صفاء ، وأذاق الهوى طعم الجفاء ، ولزم طريق المصطفى ، وكانت الدنيا منه بالقفا » .

وكان الشيخ تقى الدين السبكى يقول : « الصوفى من لزم الصدق مع الحق والحق مع الخلق » وينشد :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... قدماً وظنوه مشتقًّا من الصوف
ولستُ أمنحُ هذا الاسمَ غير فتى ... صافى فصُوفِىَ حتى سُمِّىَ الصُّوفى

وهذه عبارات متقاربة والحاصل أنهم أهل الله سبحانه وخاصته الذين

---

(١) معيد النعم ١٧٣

ترتجى الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم ، فرضى الله عنهم وعنا بهم »[1] .

ويرى السبكى مع أنه عالم متمكن كما يرى بقية أهل العصر الذى عاش فيه أن الصوفية رجال الله المقربون دون بقية خلقه ، وأنه بدعائهم ووجودهم بين الناس ترتجى الرحمة من الخالق .

وتمكنت فى الناس عقيدة الكرامات لأولياء الصوفية ، وكثر الحديث عما يأتون من خوارق الأعمال والكرامة فى عرف المعتقدين خاصية ، أو قدرة وضعها الله فيمن بلغ منهم درجة من القربى ، فحباه بسر ربانى ، وأكرمه بكرامة ، وهداه بالاسم الأعظم الذى يستطيع به الكشف ، وعمل الخارق. يقول السبكى : « ومن حقهم الوقوف فى إظهار مايطلعهم الله عليه من المغيبات ، ويخصهم به من الكرامات على الإذن ، وهم لا يجيزون إظهارها بلا فائدة ، ولا يظهرونها إلا عن إذن لفائدة دينية من تربية أو بشارة أو نذارة »[2].

ويعيب السبكى على المدعين المظاهرين من الصوفية فيقول: « وأنت قد عرفت أن حقيقة الصوفى من أعرض عن الدنيا وأقبل على العبادة ، فقل لفقير الخانقاه : إن دخلتها لتسد رمقك وتستعين على التصوف فهذا حق ، وإن أنت دخلتها لتجعلها وظيفة تحصل بها الدنيا ، ولست متصفاً بالإعراض عن الدنيا والاشتغال غالب الأوقات بالعبادة فأنت مبطل ، ولا تستحق فى وقف الصوفية شيئاً ؛ وكل ما تأكله منه حرام ، لأن الواقف لم يقفها (الخانقاه) إلا على الصوفية ، ولست منهم فى شىء »[3] .

وكثر من بعض الناس ادعاء التصوف للعيش ، فأموا الخانقاه ، ولبسوا الصوف . والمرقعات ، وحلقوا الرءوس تشبهاً ، ولكنهم لم يتخلقوا بأخلاق القوم ، ولا حصلوا منهم على غير اللباس الزور والمظهر الكاذب ، وهؤلاء المتشبهة الذين يقول فيهم الشافعى رضى الله عنه فيما نقل عنه : « رجل أكول

---

(١) معيد النعم ١٧٣
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه ١٧٤

كثير الفضول » . وقال الإمام أبو المظفر السمعانى : « نعوذ بالله من النار ومن الصوفى إذا عرف باب الدار » . وقال أبو حيان فى أدعياء الصوفية : « أكلة بطلة، سطلة ، لا شغل ولا مشغلة » وقيل فيمن يدعى : « رجل يظهر الإسلام ويبطن فاسد العقيدة ، فى نهاية الإقدام، وفى رجله جُمجُم وعذبته من قدام ، يكون غالباً من بلاد الأعجام » .

وقال الشاعر :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا

« فهؤلاء القوم إذا اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور وأكل الحشيش والانهماك على حطام الدنيا لاسترهم الله وفضحهم على رءوس الأشهاد . ولكن فيهم والحمد لله من لا يدخل الخانقاه إلا ليقطع علائقه بالدنيا ، ويشتغل بربه ، ويرضى بما يتهيأ منها معيناً له على سد رمقه وستر عورته فلله دره »[1] .

وكرر المقريزى الحديث عمن ادعى التصوف ، لكثرتهم فى ذلك العصر ، واشتباه أمرهم على الناس فقال: « فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوف لينسبوا إليهم ، وما هم منهم بشىء ، بل هم فى غرور وغلط ، يتسترون بلبسة الصوف توقياً تارة ، ودعوة تارة أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، وإن هذا هو الظفر بالمراد ، والاتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام . وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد » . قال : « ذهب والله ما هنالك وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس :

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليو م سوى ستة بغير زياده
وهى : نيك العلوق والسطلة والرقص ، والغنا والقياده
وإذا ما هذى وأبدى اتحاداً وحلولاً من جهله وأعاده
وأتى المنكرات عقلا وشرعاً فهو شيخ الشيوخ ذو السجاده »[2]

(١) معيد النعم ١٧٩
(٢) خطط المقريزى ٢/٤٢٤ .

وقال السبكى : « إذا علمت أن خاصة الخلق هم الصوفية ، فاعلم أنهم قد تشبه بهم أقوام ليسوا منهم فأوجب تشبه أولاء بهم سوء الظن ، ولعل ذلك من الله تعالى قصد إخفاء هذه الطائفة التى تؤثر الخمول على الظهور .

واعلم أن الصوفية أكثرهم لا يرضى بدخول الخوانق ، ولا التعلق بشىء من أسباب الدنيا . وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً من الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بهم بحيث قال الشيخ أبو محمد الجوينى : لا يصح الوقف عليهم لأنه لاحد لهم يعرف » والصحيح صحته .

وإنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون فى أغلب الأوقات بالعبادة ، ومن ثم قال الجنيد: « باستعمال كل خلق سنى وترك كل خلق دنى » .

وشاع عند جماعة الراقصين منهم الغناء والرقص على الآلات ، وربما تأثروا فى ذلك بالدراويش المولوية أتباع جلال الدين الرومى ، وقد أشار أحد الشعراء إلى هذه العادة عندهم فقال :

متى سمعَ الناسُ فى دينهم ... بأن الغِنا سنةٌ تُتَّبعْ
وأنْ يأكلَ المرءُ أكلَ البعير ... ويرقصَ فى الجمْع حتى يقعْ
ولو كان طاوِى الحشا جائعاً ... لما دارَ من طربٍ واستمَعْ
وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القومَ إلا القِصعْ
كذاكَ الحميرُ إذا أخصبتْ ... ينفرها ريُّها والشِّبَعْ »[1]

وقال الشاعر المنجنيقى :

قد لبسوا الصوف لترك الصفا ... مشايخ العصر لشرب العصير
الرقص والشاهد من شأنهم ... فشعر طويل وذيل قصير[2]

وصف الصفدى هيئة أحد رجال الصوفية فقال : «شيخ مسن فقير حرفوش ، مكشوف الرأس منفوش الشعر ، عليه دلق رقيق ، بالى الخلقة رقيق ، قد تمكن منه الوسخ ، ونبت فيه ورسخ ، قد جمعه من عدة رقاع ، له مدفأة يستدفئ بنارها » . وربما شاع هذا الوصف على جماعة القلندرية ،

---

(١) وفيات الأعيان ١٩/١ .
(٢) شرح لامية العجم ١٠٦/١ .

وهم فئة من الدراويش ، تأثرت بالصوفية الفارسية ، وكانوا يلبسون الفرجيات والطراطير ويحلقون رءوسهم ، وذقونهم وحواجبهم ، وتكون لهم هيئات شنيعة منكرة .

وأشاع الصوفية فى أوساط الناس عادات وهيئات مختلفة فى الغناء واللباس والشراب منها الرقص المعتاد لهم والضرب على الدفوف فى الأذكار . وشرب الحشيش تدخينه أو أكله . قال ابن الصائغ :

قمْ عاطنى خضراء كافوريَّةً قامت مقام سلافة الصَّهْباءِ
يغدو الفقيرُ إذا تناول درهما منها له تيهٌ على الأمراءِ
وتراهُ من أقوى الورى فإذا خلا منها عددْناهُ من الضُّعفاءِ

وكانت هذه الحشيشة تسمى حشيشة حيدر . قال المقريزى : قال الحسن ابن محمد فى كتاب « السوانح الأدبية فى مدائح القنبية » : « سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازى الحيدرى ببلدة تستر سنة ٥٥٨ هـ عن السبب فى الوقوف على هذا العقار ووصوله إلى الفقراء خاصة وتعديه إلى العوام عامة ؛ فذكر لى أن شيخه شيخ الشيوخ حيدراً رحمه الله كان كثير الرياضة والمجاهدة ، قليل الاستعمال للغذاء ، قد فاق فى الزهادة وبرز فى العبادة. ثم إن الشيخ طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفرداً بنفسه فى الصحراء ، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل ، وأذن لأصحابه فى الدخول عليه ، وأخذ يحادثهم فلما رأينا الشيخ على هذه الحال من المؤانسة بعد إقامته تلك المدة الطويلة فى الخلوة والعزلة سألناه عن ذلك فقال : بينما أنا فى خلوتى إذ خطر ببالى الخروج إلى الصحراء منفرداً فخرجت فوجدت كل شىء من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ، ومررت بنبات له ورق فرأيته فى تلك الحال ؛ يميس بلطف ويتحرك من غير عنف كالثمل النشوان ، فجعلت أقطف منه أوراقاً آكلها ، فحدث عندى من الارتياح ما شاهدتموه » . قال المقريزى : « ثم قال إن الشيخ أمرنا بصيانة هذا العقار ، وأخذ علينا الأيمان ألا نعلم

به أحداً من عوام الناس ، وأوصانا ألا نخفيه عن الفقراء وقال إن الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة ، فراقبوه فيما أودعكم ، وراعوه فيما استرعاكم » .

وقال : « وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشر سنين وأنا فى خدمته لم أره يقطع أكلها فى كل يوم ، وكان يأمرنا بتقليل الغذاء وأكل هذه الحشيشة » .

وظلت هذه الحشيشة شائعة فى خراسان فى القرن السادس الهجرى ، ومنها تسربت إلى العراق ثم الشام فمصر . قال المقريزى : « نسب إظهار الحشيشة إلى الشيخ حيدر الأديب محمد بن الأعمى الدمشقى فى أبيات هى :

دعْ الخمرَ واشرب من مدامة حَيْدر معنبرةً خضراء مثل الزَّبرجدِ
يعاطيكَها ظبيٌ من الترك أغيدٌ يميسُ على غصنٍ من البان أملدِ »

وأحاط الصوفية أنفسهم بجو من الغموض ، وكان لهم كلام لا يفهمه الناس ، ورموز لا يحققون معانيها . روى الصفدى أن الشيخ الصوفى كريم الدين عبد الكريم الأيكى شيخ خانقاه سعيد السعداء حضر عند الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد رحمه الله ، وأخذ يتكلم فى طريقتهم وأحوالهم ويحدثنا على العرفان زماناً ، والشيخ تقى الدين ساكت لا يفوه بكلمة ، فلما قام من عنده قال الشيخ تقى الدين للحاضرين : هل فيكم من فهم تراكيب كلامه ؟ فإنى ما فهمت غير مفرداته »[1] . وعلق الصفدى على بيت لابن الفارض يقول فيه :

حديثى قديم فى هواها وماله كما علمت بعد وليس له قبل

فقال : فهو أمر خارج عن العقل ، لأن العقل لا يمكن أن يتصور شيئاً لا قبل له ولا بعد إلا واحد ولكن الصوفية يحملون هذه الأشياء على الذوق ، ويقولون فى مثل هذه الأمور إنها من وراء العقل »[2] .

وعارض علماء السنة والحنابلة خاصة الصوفية المتطرفة ، وعارضوا أقوال

---

(١) شرح لامية العجم ١/١٠٦ .
(٢) البداية والنهاية لابن كير ١٤/١٩٠ .

أصحابها ، وميلهم إلى الكلام بالرموز واللفظ الغامض الذى لا يعيه عقل ، كما حاربوا شطحاتهم وخاصة قولهم بالحلول والاتحاد والتناسخ واعتبروه كفراً فيحكم على القائلين به فى مجالس العدل بالقتل . وممن قتل منهم فى هذا العصر عثمان الدكاكى ، بدمشق لقوله بمذهب الاتحادية سنة ٧٢١ هـ . وكذلك الباجريقى محمد بن عبد الرحمن الزاهد حكم بإراقة دمه بدمشق سنة ٧٢٤ هـ لمثل هذا القول . قال ابن شاكر : « حصل له حال وكشف ، فانقطع ، فصحبه جماعة من الرذلة ، وهون لهم أمر الشرائع ، وأراهم بوارق شيطانية ، وكان له قوة تأثير . وكان يقول : إن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله[١] » .

وأورد الصفدى قصيدة طويلة للسنجارى على وزن تائية ابن الفارض يعارض فيها عقائد الصوفية . قال :

ولست كمن أمسى على الحب كاذباً ... مضلا لأرباب العقول السخيفة
يمن على الجهال من عصبة الهوى ... بنسبته فى الحب من غير نسبة
فيزعم طوراً أنه عين عينها ... ويزعم طوراً أنها فيه حلت
ويجمع ما بين النقيضين قوله ... وذاك محال فى العقول السليمة

وقال الصفدى فى الموضوع نفسه : وما أحسن قول أمين الدين الحوبانى فى تهتكه :

متُّ فى عِشقى ومعشوقى أنا ... ففؤادى من فراقى فى عنا
غبتُ عنى فى فتى أجمعُنى ... من وجدى منى فى ضنى
أيها السامعُ تدْرى ما الذى ... قلتُه ؟ ، والله ما أدْرى أنا[٢]

وتصدى ابن تيمية لحرب متطرفى الصوفية . قال ابن الوردى : « كان يقول فى أحوال كثير من المشايخ إنها شيطانية أو نفسية ، وينظر فى متابعة الشيخ الكتاب والسنة ، فإن كان كذلك فحاله صحيح وكشفه رحمانى

(١) فوات الوفيات ٢/٤٤٥ .
(٢) شرح لامية العجم ١/١٠٦ .

غالباً ، وما هو بالمعصوم . وله فى ذلك عدة تصانيف »[١]. وشنّ ابن تيمية الحرب على كرامات الصوفية والأولياء وشدد النكير وتبعه فى ذلك أنصاره وتلاميذه ، ومنهم أحمد بن محمد بن مرى الحنبلى ، فقد حضر إلى مصر وتكلم فى القاهرة بجامع عمرو بن العاص وغيره فى مسألة التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وفى مسألة الزيارة وغيرها على طريقة ابن تيمية ، فوثب به جماعة من العامة ومن يتعصب للصوفية ، وأرادوا قتله فهرب فرفعوا أمره إلى القاضى المالكى تقى الدين الإخنائى فطلبه وتغيب عنه فأرسل إليه وأحضره وسجنه ومنعه من الجلوس ، وذلك بعد أن عقد له مجلساً بين يدى السلطان »[٢] .

وصور الأدفوى جوانب النزاع بين أهل السنة والصوفية ، وخاصة حول موضوع الكرامة والوسيلة بالأولياء وقبورهم فقال : « ولا شك فى وقوع الكرامات عقلا ، ولا ورد من الشرع ما يمنع الوقوع ، ولكن اطردت العادة المستمرة والقاعدة المستقرة بعدم وقوع ذلك ، والعوائد يقضى بها فى حكم الشرع باتفاق أئمة الاجتهاد ، وبنوا عليها أحكاماً كثيرة ، وجعلوها ضابطاً يرجع إليه ، وحاكماً يعول عليه »[٣] .

قال الأدفوى : « وكان ابن دقيق العيد يستنكر أقوال بعض رجالهم ، وخاصة ما يقررونه من أن يكون الشخص فى مكان وجسده فى مكان آخر ، ويقول : ذا مجنون » . وذكر الأدفوى أن أبا حيان أثير الدين كان يعيب على الصوفية قولهم ، ويستشهد بقوله :

إن عقلى لفى عقال إذا ما   أنا صدّقت بافتراء عظيم[٤]

كذلك كان الأدفوى لا يؤمن بادعاءات الصوفية فى أمور الكرامات والكشف

---

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٨٩ .

(٢) الدرر الكامنة ٩/٣٠٣ .

(٣) الطالع السعيد ٦٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ١٣٢ .

ولم يصدق ما شاع عن أحد صوفية بلده وهو الملثم الصوفى . يقول : « وفى الطائفة الصوفية ما تنكره بداهة العقول ، ويجب ما تنفيه العادات التى يقضى باعتبار حكمها فى شرع الرسول. والإيمان بها بدعة وضلالة أفضى إليها فرط الجهالة . نعم لا ارتياب فى حصول الكرامة لمن خصه الله بعنايته ووفقه لطاعته ، لكن الكرامة جنس تحته أنواع ، منها ما نثبته إذا ثبت لنا بمشاهدة أو نقل من يعتمد عليه ، كإجابة دعوة وظهور بركة ونحوها ، ومنها ما ننفيه كرؤية الخالق البارى فى الدنيا ، وإن ثبت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . وقد صرح بتعزير ذلك الإمامان أبو محمد بن عبد السلام وأبو عمرو بن الصلاح ، وسبقهما الإمام أبو الحسن الواحدى إلى إنكار ذلك ، وإن كان الأستاذ القشيرى حكى عن إمكانه وأن فيه خلافاً عن الأشعرى .

ومنه ما نتوقف عن إثباته ، وفيه خلاف بين الأمة ، كإحياء الموتى كما وقع للسيد المسيح وما أشبه ذلك مما وقع معجزة لنبى . ومن منع من وقوع ذلك أبو إسحاق الأسفراييني »[(١)] .

مشاهير الصوفية :

وظهر فى هذا العصر جماعة من كبار الصوفية المشهورين ، سواء من أصحاب الطريق أو المفكرين والشعراء . فمن مفكرى الصوفية فى القرن السابع مجد الدين البغدادى (توفى سنة ٦١٦ هـ) ، ونجم الدين الداية (توفى سنة ٦٥٤ هـ) ، وشهاب الدين السهروردى (توفى سنة ٦٣٢ هـ) وعبد القادر الجيلانى ، وابن عربى وابن سبعين .

وتخرج على الشيخ شهاب الدين السهروردى خلق كثير من الصوفية فى المجاهدة والخلوة وله تواليف حسان منها كتاب « عوارف المعارف » .

ومن أعلامهم **محيي الدين بن عربى** الطائى الحاتمى (ولد بمرسية سنة ٥٦٠هـ ١١٦٥م وتعلم بها ثم غادرها متجهاً إلى المشرق فنزل بمصر زمناً وسافر إلى الحجاز والعراق والشام وبلاد الروم . وروى عن الحافظ السلفى بالإجازة .

---

(١) Browne : A Literary History of Persia, 496.

وكان ظاهرياً فى العبادات باطنى النظر فى الاعتقادات وبرع فى التصوف . قال الذهبى : « وله توسيع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر ، وحافظة ، وتدقيق فى التصوف وتآليف جمة فى العرفان ، ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس » . وقال اليونينى فى ذيل المرآة : وكان يقول أنا أعرف اسم الله الأعظم وأعرف الكيمياء[1] .

وذكر الباحثون فى الصوفية أنه أعظم عبقرية خيالية فى الصوفية الإسلامية[2] إذ أتحف الحركة الصوفية بإطارها الخيالى الفلسفى ، وضمن مؤلفاته آراءه الصوفية . ففى « فصوص الحكم » يشرح درجات الرقى الصوفى ، وفى « الفتوحات الإلهية » فى الفصل السابع والتسعين يورد تحت عنوان « كيمياء السعادة » بحثاً باطنياً يصور صعود الصوفى إلى السماء .

وكان ابن عربى يذهب إلى أن الكون جوهر ، ويؤمن بشمول الألوهية ، ووحدة الوجود وبأن الأشياء موجودة منذ البدء كأعيان ثابتة فى علم الله تعالى ، وهى صادرة عنه ، راجعة إليه . ولم يأخذ بفكرة خلق الكون من العدم ، بل قال إن الكون مظهر الله الخارجى ، والله تعالى سره المكنون ، وليس ثمة فارق بين الذات والصفات ، أى بين الله والكون .

وتحول هذا الاتجاه الصوفى إلى فلسفة صوفية قوامها القول بشمول الألوهية أو وحدة الوجود وحلول الألوهية فى البشر . ويعتبر النبى محمداً صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل ، وقد غدا النبى الكلمة ، كما كان المسيح الكلمة . وليس للمتصوف الحقيقى ، فى رأى ابن عربى ، إلا مرشد واحد هو النور الداخلى ، ومن هنا فهو يجد الله الحق فى جميع الديانات .

وبلغت مؤلفات ابن عربى مائة وخمسين كتاباً[3] ، تدور فى فلسفته الصوفية ورياضاته النفسية ؛ وكذلك شعره ، وهو كثير ، جمع فى ديوان من ٢٤٤ صفحة ، وروى المقرى كثيراً منه . وأشهر مؤلفاته « فصوص الحكم »

---

(١) فوات الوفيات ٢/٤٧٩ .

(٢) تاريخ العرب مطول ٣/٦٥٦ .

(٣) Browne, p. 497 .

و « الفتوحات المكية » و « التدبيرات الإلهية » و « التنزلات الموصلية » و « الإسرا إلى مقام الأسرا » نظماً ونثراً ، و « الأجوبة المكية عن سؤالات الحكيم الترمذى » ، و « تاج الرسائل ومنهاج الوسائل »[١] . وتوفى ابن عربى سنة ٦٣٨ هـ) ١٢٤٠ م ، وترك أثراً عميقاً فى الفكر الصوفى .

وجاء ابنه « ابن العربى » سعد الدين محمد (ولد بملطية بالشام سنة ٦١٨ هـ . وكان شاعراً محسناً ، وله ديوان مشهور . ومات بدمشق ودفن عند قبر أبيه بسفح قاسيون[٢] .

وابن سبعين ، قطب الدين عبد الحق بن إبراهيم الإشبيلى المرسى ، الصوفى المشهور (ولد سنة ٦١٤ هـ) . قال ابن تغرى بردى كان صوفياً على طريقة الفلاسفة[٣] وكان ممن يقول بالاتحاد و وحدة الوجود[٤] . ورحل إلى المشرق وحج حججاً كثيرة[٥] . قال ابن كثير : « واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد وصنف فيه . وكان يعرف السيميا ، وكان يلبّس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء ويزعم أنه حال من أحوال القوم »[٦]. وقال الذهبى : « وله كلام كثير فى العرفان على طريق الاتحاد والزندقة ، وقد ذكرنا بعض هذا الجنس فى ترجمة ابن الفارض وابن عربى وغيرهم ، فياحسرة على العباد ، كيف لا يغضبون لله تعالى ، ولا يقومون للذب عن معبودهم ، تبارك تعالى وتقدس فى ذاته عن أن يمتزج بخلقه أو يتجلى فيهم ، وتعالى الله عن أن يكون هو عين السماوات والأرض وما بينهما ، فإن هذا الكلام شر من مقالة من قال بقدم العالم . ومن عرف هؤلاء الباطنية عذرنى

(١) فوات الوفيات ٢/٤٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ٢/٣٢٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٧/٢٣٣ .
(٤) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٢٠ .
(٥) شذرات الذهب ٥/٣٣٠ .
(٦) البداية والنهاية ١٣/٢٦١ .

أو هو زنديق مبطن للإلحاد يذب عن الاتحادية والحلولية ، ومن لم يعرفهم فالله ينبهه على حسن قصده » .

وأطال ابن كثير الحديث عن ابن سبعين ، وعن اتجاهه الصوفي حتى قال : « واشتهر عنه أنه قال : لقد تحجر ابن آمنة – يعني النبي صلى الله عليه وسلم – بقوله « لا نبي بعدي » ثم ساق أمثلة كثيرة من أقواله شبيهة بهذه القيلة ، ومع ذلك فقد أضربت عن ذكر الكثير إجلالا لحق الله ورسوله ، لا لأجل هذا النجس » .

وقال ابن العماد : « إن ابن سبعين كان لا يفرق بين الديانات الإسلامية واليهودية والنصرانية وكان اليهود يشتغلون عليه »[1] ، وكذلك قال ابن حجلة إنه لا يفرق بين الملل والنحل ، فربما سلك المسلم على ملة اليهود ، واليهودي على ملة هود وعاد وثمود . قال ابن الوردي : وله تصانيف وأتباع [2] .

قال ابن كثير : « وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها ابن سمي ، وجاور بعض الأوقات بغار حراء يرتجي – فيما ينقل عنه – أن يأتيه فيه الوحي كما أتى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ، بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة ، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا . فما حصل له إلا الخزي في الدنيا والآخرة .

قال ابن كثير : وكان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم : كأنهم الحمير حول الدار وقد نقلت عنه عظائم من الأقول والأفعال[3] .

وتوفي بمكة ودفن هناك سنة ٦٦٩ هـ .

وصنف بعض الكتب وأودعها فلسفته الصوفية ، منها كتاب « البدو »

---

(١) شذرات الذهب ٥/٤٤٦ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ /٢٢٠ .

(٣) البداية والنهاية ١٣ /٢٦١ .

وكتاب « إلهه » ونشرت له رسائل [١] .

* * *

ومن شيوخ الطرق الذين اشتهروا فى القرن السابع ، وكانت له مكانة فى مصر كلها مدة عصور طويلة لاحقة : **السيد أحمد البدوى** « الملثم » وكان قدم من المغرب ، ودخل مصر سنة ٦٣٤ هـ . قال ابن تغرى بردى : عرف بأبى اللثامين لملازمته اللثامين صيفاً وشتاء ويعرف بالسطوحى لأنه مكث على سطوح داره بمدينة طندتا (طنطا) اثنتى عشرة سنة[٢] . وكان لايفارق الدار ليلا ولا نهاراً ، وكثيراً ما يستلقى على ظهره مولياً بصره نحو السماء ويظل على تلك الحال زمناً طويلا . وإذا عرض له « الحال » صـاح صياحاً عظيماً [٣] .

قال ابن العماد : واشتهرت كراماته بين الناس ، وكان من الأولياء المشهورين .

وقال ابن تغرى بردى : وكانت له كرامات ومناقب جمة .

ولد سنة ٥٩٦ هـ ومات ودفن بطنطا سنة ٦٦٢ هـ [٤] .

الشيخ **أبو الحسن الشاذلى** وطريقته وكبار رجالها ؛ وهو على بن عبد الله ابن عبد الجبار . من شاذلة ، بالمغرب . وفد من المغرب الأقصى إلى مصر ونزل بالإسكندرية . وكان شيخاً زاهداً ضريراً ، أسس الطريقة الشاذلية التى انتشرت فى مصر وشمال إفريقيا والسودان ، وبعض المناطق الإسلامية الأخرى فى آسيا وإفريقيا .

قال الصفدى : رجل كبير القدر ، كثير الكلام ، عالى المقـام ، له نظم ونثر فيه متشابهات وعبارات يتكلف له فى الاعتذار عنها . وقد ذكره

---

(١) نشر الدكتور عبد الرحمن بدوى مجموعة رسائل فى سلسلة « تراثنا » سنة ١٩٦٥ ونشر كتاب « الكلام على المسائل الصقلية » ببيروت سنة ١٩٤١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٦٧٥/٧ .

(٣) شذرات الذهب ٥ / ٣٤٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ٧ / ٢٥٣ .

الذهبي فقال : ورأيت شيخنا عماد الدين قد فتر عنه فى الآخر . وبقى واقفاً فى بعض عباراته حائراً فى الرجل ، لأنه قد تصوف على طريقته ، وصحب الشيخ نجم الدين الأصفهانى نزيل الحرم . وحج الشاذلى مرات ، وتوفى فى إحداها بصحراء عيذاب وهو قاصد الحج سنة ٦٥٦ هـ ، ودفن هناك. ولابن تيمية مصنف فى الرد على ما قال الشاذلى فى حزبه [١] .

ومن أشهر تلاميذ الشاذلى وأتباعه **أبو العباس المرسى** ، أحمد بن عمر الأنصارى المالكى الإسكندرى المشهور ، الصالح ، قطب زمانه كما يقول الرواة . قال ابن تغرى بردى : كان علامة زمانه فى العلوم الإسلامية ، وله القدم الراسخة فى علم التحقيق .

صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى وأعجب به شيخه فقال فيه : أبو العباس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض . وكان المرسى يقول : شاركنا الفقراء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه . وقال عنه ابن تغرى بردى : وكان لديه فضيلة ومشاركة ، وله كرامات وأحوال مشهورة عنه ، وللناس فيه اعتقاد كبير ، لا سيما أهل الإسكندرية . وقد شاع ذكره وبعد صيته بالصلاح والزهد ، وكان من جملة الشهود بالثغر . وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ ودفن ، وقبره هناك يقصد للزيارة [٢] .

ومن تلاميذ أبى العباس **ياقوت العرشى** ، وهو ياقوت بن عبد الله الحبشى الشاذلى . كان شيخاً مباركاً ذا هيبة ووقار ، وسمت وصلاح. وكان من مشاهير الزهاد . وكان يقول : أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله . توفى ودفن بالإسكندرية سنة ٧٣٢ هـ قرب قبر شيخه المرسى. وكان قبره يقصد للزيارة والتبرك . قال المقريزى : ولم يخلف فى الإسكندرية مثله [٣] .

ومن تلاميذ أبى العباس **ابن عطاء الله السكندرى** أحمد بن محمد

---

(١) راجع ترجمته فى : نكت الهيمان ٢١٣ ، والسلوك ٤١٤ والنجوم الزاهرة ٧/٦٩ .
(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٧١ ، والسلوك ١ / ٧٣٨ .
(٣) النجوم ٩ / ٧٣٢ ، شذرات الذهب ٦ / ١٠٣ ، والسلوك ٢ / ٣٥٥ .

ابن عبد الكريم ، المالكى الصوفى . وهو من أنبههم ، وأشهرهم ، وأكثرهم تصنيفاً . صحب شيخه أبا العباس المرسى ، ونبغ وصار إماماً عارفاً صاحب كرامات وإشارات وقدم راسخة فى التصوف .

قال ابن حجر : كان المتكلم بلسان الصوفية فى زمانه :

جاء القاهرة فاستوطنها يعظ الناس ويرشدهم، ويدرس بالجامع الأزهر، فيجلس فوق كرسى يخاطب الناس بكلام يروح النفوس ، ويمزج كلام الصوفية بآثار السلف ، وفنون العلم .

قال ابن تغرى بردى : وكان يحضر ميعاده بالجامع الأزهر خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير فى القلوب ، وكانت له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق .

قال الذهبى : ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقانى لما رجع من مصر معظماً لوعظه وإشاراته . وكثر أتباعه ، وكان عليه سيما الخير .

ودرس بالمدرسة المنصورية ، بين القصرين إلى جانب الأزهر ، وتوفى بها . وقصده كثير من طالبى المعرفة ، ونبه من قاصديه الشيخ تقى الدين السبكى (١) .

وتصدى ابن عطاء الله لابن تيمية ، ورد عليه هجومه على الصوفية ، وقام فى ذلك وبالغ ، وكان يتكلم على الناس ، وله فى ذلك تصانيف عديدة أشهرها حكمه ، وله ترجمة لأبى الحسن الشاذلى شيخ طريقته ذكر فيها مناقبه ، كما صنف فى مناقب شيخه أبى العباس المرسى ، وله « التنوير فى إسقاط التدبير » . وله نظم حسن فى التصوف ، ذكر ابن تغرى بردى نموذجاً منه مثل قوله :

يا صاح إن الركب قد سار مسرعاً ونحن قعودٌ ، ما الذى أنت صانعُ ؟
أترضى بأن تبقى المخلّفَ بعدهم صريعَ الأمانى والغرامُ ينازعُ
وهذا لسانُ القوْم ينطقُ جهرةً بأنّ جميع الكائناتِ قواطعُ

(١) البدر الطالع للشوكانى ١/١٠٨ .

وتوفى ابن عطاء الله ودفن بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ[١] .

محمد ابن وفاء الشاذلى السكندرى ، المشهور بسيدى محمد وفا ، من المدرسة الشاذلية بالإسكندرية ، وتلميذ ياقوت العرشى . ولد بالإسكندرية سنة ٧٠٢ هـ ونشأ بها وسلك طريقة الشاذلى وتخرج على يد الأستاذ ابن باقل ، وصحب ياقوت العرشى ، ثم رحل إلى إخميم ، وتزوج بها واشتهر هناك ، وصار له سمعة ومريدون وأتباع كثيرون ، ثم قدم مصر وسكن الروضة على شاطئ النيل وحصل له قبول من أعيان الدولة وغيرهم ، وله نظم ونثر ومعرفة بالأدب ، وكثر أصحابه وصاروا يبالغون فى تعظيمه .

وكان واعظاً يعظ الناس بوعظ له تأثير عظيم فى القلوب .

قال ابن حجر : نبغ فى النظم وأنشأ قصائد على طريقة ابن الفارض وغيره من الاتحادية واجتمع إليه خلق كثير يعتقدونه وينسبون إليه « الوفائية » .

ونشأ ابنه على طريقته ، فاشتهر كاشتهار أبيه ، ثم ورثه فى مشيخة الوفائية أخوه أحمد ثم ذريتهما من بعده . ولأتباعهم فيهم غلو مفرط[٢] .

وغير أولئك الأئمة وشيوخ الطرق المذكورين ظهر جماعة كثيرون واشتهروا بين معاصريهم بالتجرد والكرامات ، وإن لم يؤسسوا طريقة معروفة ولا كان لهم تلاميذ مشهورون . وعجيب أن يرى الإدفوى فى طالعه السعيد — مع حملته على الصوفية — كثيراً من أخبار أولئك الزهاد المتصوفة ، معتقداً فيهم وفى كراماتهم ومكاشفاتهم ، كالشيخ **أبى حجاج الأقصرائى** المتوفى سنة ٦٤٢ هـ . قال فيه : كان شيخ الزمان وواحد الأوان ، صاحب المعارف المأثورة ، والكرامات المشهورة ، والمكاشفات المعروفة والمذكورة ، والمعارف الربانية ، واللطائف القدسية ، والإشراقات النفسية ، والأنوار التى

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات الشافعية ٥ / ١٧٧ ، الدرر الكامنة ١ / ٢٧٣ ، النجوم الزاهرة ٨ / ٢٨٠ البدر الطالع للشوكانى ١ / ١٠٨ .

(٢) راجع شذرات الذهب ٦ / ٢٠٦ ؛ والدرر الكامنة ٤ / ٢٧٩ ؛ ولعلى بن محمد ابن وفا المتوفى سنة ٨٠٧ هـ ديوان ؛ منه نسخة خطية مكتوبة سنة ١٢٩٦ هـ بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٥٢٣٢ ج .

تصير الليل فى حكم النهار ، والتجليات التى يكاد سنا برقها يأخذ بالأبصار» .
قال الإدفوى : « وكراماته يضعف عن وصفها اللسان ، ويعجز عن رصفها البنان ، لكن جهال أتباعه قد أطنبوا فى أمره ، ورفعوه فوق قدره ، وظنوا أن ذلك من بره ، فجعلوا له معراجاً ودعوا الناس إلى سماعه ، فجاءوا أفواجًا ، وادعوا أنه فى ليلة النصف من شعبان عرج به إلى السماء ، فتلقى من ربه الأسماء ، واتخذوه فى كل سنة كالعيد »[١] .

وممن ذكرهم الأدفوى : الشيخ الملثم **أحمد بن محمد القوصى** (توفى بالأقصر سنة ٧٢٠هـ) ودفن بقوص برباط له هناك . قال الإدفوى : « وتحكى عنه أشياء غريبة فى كراماته تشبه ما يذكر عن أهل الخطوة ، أو من ينتقلون من مكان إلى آخر فى لمح البصر» . ويشك الإدفوى فى كثير مما حكى عنه[٢] .

واشتهر بمصر فى القرن الثامن الكورانى يوسف العجمى ، (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) . وقال ابن تغرى بردى : «كان شيخ حقيقة ومغذى طريقة ، وكان إمام السالكين فى عصره ، يقتدون به . وكان له أوراد وأذكار هائلة . انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء . كان لا يأخذه فى الله لومة لائم ، مع فضيلة غزيرة ومعرفة تامة بالتصوف » .

وله رسالة سماها « رين القلوب فى التوصل إلى المحبوب » .

وقد شاع ذكر الشيخ يوسف فى الدنيا وأثنى عليه العلماء والصلحاء[٣] .

ومن الزهاد المشهورين فى العصر زاهد الإسكندرية **الشيخ محمد القبارى** (توفى سنة ٦٦٢ هـ)[٤] وعرف بين الصوفية الشاطحين الخارجين عن عرف الناس المنحرفين عن طريق السنة ، فجاءوا بالأقوال والأفعال التى تنسبهم إلى الإلحاد والزندقة ، ومنهم العز أبو محمد الغنوى النصيبى الشافعى الأربلى

---

(١) الطالع السعيد ٧٢٢ — ٧٢٤ .

(٢) الطالع السعيد ١٣١ .

(٣) النجوم الزاهرة ١١ / ٩٤ .

(٤) راجع ترجمته فى البداية والنهاية لابن كثير١٣ /٢١٤ ، وتاريخ ابن الوردى ٢ / ٢١٧ والسلوك ١ / ٥١٣ .

المتوفى بدمشق سنة ٦٦٠ هـ . قال ابن تغرى بردى : إن صاحب الذيل على مرآة الزمان وصفه بعدم الدين والزندقة . وقال فيه : كان يصدر عنه من الأقوال ما يشعر بانحلال عقيدته . ومن شعره : (١)

توهم واشينا بليْل مزارهُ فهمَّ ليسعى بيننا بالتَّباعُدِ
فعانقْتُه حتى اتحدْنا تعانقاً فلما أتانا ما رأى غيرَ واحدِ

ومنهم الباجريقى الشامى المتوفى سنة ٧٢٤ هـ ، الذى شهد عليه جماعة بأنه تهاون فى الصلاة ، وأنه كان يقول إن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله تعالى ، وقد حكم بإراقة دمه ، ولكنه هرب واختفى وظل مختفياً إلى أن مات .

ومنهم الحريرى ، على بن الحسين بن منصور (المتوفى سنة ٦٤٥ هـ) فقد أفتى بقتله كذلك لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة (٢) .

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٢٠٧ .

(٢) فوات الوفيات ١/٩٠

وكان أكثر من يذهبون هذا المذهب من التظاهر بترك الصلاة وإتيان الأعمال التى تستحق اللوم من الملاسنة ، وهى فرقة من الصوفية ترى فى ذلك ردعاً للنفس عن الغرور .

الأدب الصوفى

ابن عربى ، والفكر الصوفى

أثر ابن عربى فى الفكر الصوفى بهذا العصر تأثيراً كبيراً ، وأنشأ مدرسة فكرية خرجت من بعده جماعة من كبار الصوفية أمثال ابن سبعين وغيره . ونادى ابن عربى بمذهب« وحدة الوجود » ولا ندخل فى تفصيلاته الفلسفية، إنما يكفى القول بأنه يعتقد بأن هذا الوجود المادى صورة ، وظل للخالق، أو هو المرآة ينعكس عليها وجه الحقيقة .

وتأثر ابن عربى بالفلسفة الأفلاطونية ، وبنظرية « المثل » ، كما تأثر من فلاسفة المسلمين بآراء الصوفيين الكبيرين « الحلاج » صاحب نظرية « الحلول » ، والسهروردى القتيل صاحب نظرية « الإشراق، والفيوضات » .

وعبر ابن عربى عن أفكاره الصوفية فى « وحدة الوجود » بكتابه الهام « فصوص الحكم » كما عبر عن تجربته الصوفية ، وتذوقه الخاص لتلك التجربة فى كتاب « الفتوحات المكية » .

ويلقى القارئ لكتاب « الفصوص » جهداً بالغاً فى فهم ما يعنيه المؤلف، لأمرين : أولهما راجع لأفكاره الجديدة الجريئة ، وثانيهما لرغبته فى أن يلف التعبير عن تلك الأفكار فى ثوب من الغموض ، على طريقة الصوفية فى أساليبهم ورموزهم ، وخشية أن يتهم بالإلحاد ، ويؤخذ به فيراق دمه .

وغاية ابن عربى فى « فصوص الحكم » البحث عن طبيعة الوجود بوجه عام ، وصلة الوجود الممكن « العالم » بالوجود الواجب « الله » . وأخص بحث فيه هو البحث فى الحقيقة الإلهية متجلية بأكمل مظاهرها فى صور الأنبياء عليهم السلام ، وكل فص من فصوصه يدور حول حقيقة نبى من الأنبياء يسميها كلمة فلان ، أو فلان ، وتمثل صفة من صفات الحق ، كصفة الألوهية فى « الفص الآدمى » . والنفثية فى « الفص الشيثى » ، والبوحية فى

« الفص النوحى » والقدوسية فى « الفص الإدريسى » . . . والفردية فى « الفص المحمدى » [١] .

فآدم عنده رمز لروح العالم ، أو هو وجه الحق المنعكس على المرآة، فالله تعالى أوجد العالم قبل آدم ، ولكنه كان وجوداً غير حقيقى ، أى أنه كان ظلا محضاً ، أو وجوداً مادياً لا روح فيه ولا حياة ، كوجود الطين الذى صنع منه جسم آدم قبل نفخ الروح ، فلما وجد آدم ظهر الوجود الحقيقى للعالم .

ومن هنا يتبين أن آدم هو المبدأ النورانى اللطيف الذى أتم الإله به الوجود ، ومنحه به حقيقته .

ويعد أسلوبه فى الفصوص والفتوحات غامضاً ثقيلا يحتاج إلى عناء فى تتبعه وفهمه ، ولكن نثره فى غيرهما من الكتب مثل « ترجمان الأشواق » أقرب إلى أساليب الكتابة الفنية . يقول زكى مبارك : « ونثره فى ترجمان الأشواق هو من النثر الفنى » . ويمزج كلامه بخفة الروح كما يبدو من قوله : « كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتى ، وهزنى حال كنت أعرفه، فخرجت من البلاط من أجل الناس ، وطفت على الرمل ، فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى لو كان هناك أحد ، فقلت :

ليت شعرى هل دروا   أى قلب ملكوا
وفؤادى لو درى   أى شِعْب سلكوا
أتُراهمْ سَلِمُوا   أم تُراهم هلكوا
حار أربابُ الهوى   فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفى بيد ألين من الخز ، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم ، لم أر أحسن وجهاً ، ولا أعذب منطقاً ، ولا أرق حاشية، ولا ألطف معنى ، ولا أدق إشارة ، ولا أظرف محاورة منها . قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالا ومعرفة ، فقالت : يا سيدى كيف قلت ؟ ، فقلت :

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا

فقالت : عجباً منك ، وأنت عارف زمانك ، تقول مثل هذا ، أليس كل مملوك معروفاً ! ، وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة ؟ وتمنى الشعور يؤذن بعدمها ، والطريق لسان الصدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا ؟ ، قل يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟ . قلت :

وفؤادى لو درى أى شعب سلكوا

فقالت : يا سيدى ! الشعب الذى بين الشغاف والقلب والفؤاد ، هو المانع من المعرفة ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة ، والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا؟ يا سيدى فماذا قلت بعده ؟ ، فقلت :

حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت : يا عجباً ، كيف يبقى المشغوف فضلة يحاربها ، والهوى شأنه التعميم يخدر الحواس ، ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر ، ويذهب بصاحبه فى الذاهبين ، فأين الحيرة ، وما هنا بائن فيحار ، والطريق لسان صدق ، والتجوز من مثلك غير لائق . فقلت : يا بنت الخالة ، ما اسمك ؟ فقالت : قرة العين . فقلت : لى . ثم سلمت وانصرفت . ثم إنى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف »[1] .

فهذه الحدوتة ، أو القصة الصغيرة ، التى يجرى أسلوبها على شكل حوار حول نص شعرى إنما يقصد بها المؤلف تبسيط الفكرة للقارئ العادى ، وتقريبها إلى ذهنه ، واجتذابه بالبساطة والقصص والحوار والشرح .

ونلاحظ أن شعره الذى يسوقه فى « ترجمان الأشواق » أرق وأحلى موقعاً ، وأخف سبكاً من سائر شعره فى غيره من الديوان أو كتبه الأخرى كالفتوحات ، ذلك لأنه لا يعدم النفحات الشعرية التى يمكنه أن يزاحم بها شعراء الصوفية الكبار .

---

(١) شرح ترجمان الأشواق ص ٦ والتصوف الإسلامى لزكى مبارك ١ / ١٧٦ .

وأغنى ابن عربى قاموس الصوفية بما أضاف من ثروة لغوية ، إذ تفرد بألفاظ وتعبيرات ، واصطلاحات كثيرة لم يسبق إلى استخدامها ، ومن هنا كانت قيمة كتاباته من الناحية الأدبية ، فالرجل كان يعيش فى جو خلقه بنفسه ، وكانت له اقتحامات عقلية ولغوية تضيفه إلى المفكرين والأدباء .

وهناك أمثلة كثيرة لقدرة ابن عربى على تطويع اللغة العربية، وترويضها لتحمل معانيه الجديدة التى جاب آفاقها ، وإن عابته رغبته فى الإخفاء والسير فى شعاب ضبابية غلقة ، ولكن معتاد قراءته سرعان ما يستجيب لطريقته ، ويلائم بين فهمه والجو الخاص الذى يحيطه به وينقل القارئ إليه.

ولا يطيق ابن عربى كل إنسان ، إنما يقدر عليه خاصة الناس ممن وهبوا الصبر والخيال والقدرة على التجرد ، والاستيعاب العقلى .

وتدل مؤلفات ابن عربى بصفة عامة على أنه هضم ما درس من الفلسفة اليونانية ومن أصول الديانة اليهودية والديانة النصرانية ، والديانة الإسلامية ، ثم أحال ذلك كله إلى مزاج من الفكر الفلسفى الدقيق [1] .

حكم ابن عطاء الله السكندرى :

وإذا ما انتقلنا من الحديث عن تأليف ابن عربى إلى لون آخر من الأدب الصوفى ، نلتقى بحكم ابن عطاء الله ، وتنقلنا هذه الحكم من الأفق الفلسفى العريض إلى ضرب من التبتل الوجدانى المحدود ، وإن كان أسلوب ابن عطاء أجمل وأكثر إشراقاً من أسلوب ابن عربى من الناحية البيانية .

والحكم فى جملتها مجموعة من الفقرات القصار ، مختلفة الأغراض والمعانى ، تتجه بالخطاب إلى المريد ، يخاطبه المؤلف فيها خطاب المفرد ، وتزدان أحياناً بالسجع المتواتر ، أما المعانى فهى صوفية يميل صاحبها إلى التجريد أحياناً كقوله :

---

(١) راجع التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك ١٧٩ / ٢٠٣ جـ ١ .

« . . من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل » وكقوله : « تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال » .

وتارة يميل فى أساوبه من التجريد إلى التجسيد والتصوير بالتشبيه كقوله : « ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » ، وقوله : « لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار يسير والمكان الذى ارتحل إليه هو المكان الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون » وتارة يقف عند المعنى فيديره فى صور متشابهة من اللفظ لا تختلف إلا فيما تقره القافية . كقوله :

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى أظهر كل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر بكل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو أظهر من كل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الواحد الذى ليس معه شىء ؟

ونجد بصورة عامة أن حكم ابن عطاء الله أقوال مأثورة لا يربط بينها رباط معنوى متسلسل يحكم فقراتها ، نظمت على فترات ، فى أوقات مختلفة ، ثم ضم بعضها إلى بعض ، وجاء فى أقوال من ترجموا لحياته أن أنصاره ومريديه جمعوا له كلاماً كثيراً ، وكانت هذه الحكم من بين ما جمع . ونلاحظ فى الحكم المطبوعة تكرر المعنى الواحد فى صور مختلفة من التعبير ، مثل قوله : « إن إرادتك فى التجرد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية » .

وقوله : « ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه » .

وقوله : « لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج » . وقوله : « أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك » .

والمعنى العام لهذه العبارات جميعاً هو أن المريد ينبغي أن يقف حيث أقامه الله دون ما ضجر من نقص أو طمع فى زيادة . فهو فى هذه المجموعة من الحكم يدعو – على اختلاف التعبير – إلى احترام واقع الإنسان، ذلك أنه لا يرى عملا أفضل من عمل ما دامت كل الأعمال بإرادة الله ومشيئته .

ففى رأيه أن الاهتمام بالعمران والمعاش لا يتعارض مع أدب المريد ، وإنما ينبغى أن يقف المريد حيث أراده الله ، وأن يتجرد من الأعمال الدنيوية حتى لا يخرب العالم .

ولكن الرضا عن الحال والعمل غير الرضا عن النفس : « فلك أن ترضى عن حالك التى أقامك عليها فى الحياة ، أما النفس ، فإن الرضا عنها أصل كل معصية وغفلة وشهوة » .

ويعرض ابن عطاء الله بين ما يعرض له فى حكمه لآداب الصداقة والصحبة بين الصوفية ، وينصح المريدين بعدم السعى للشهرة ، لأن الشهرة تميت القلب ، وتقطع أسبابه بالله . فيقول :

« ادفن وجودك فى أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » .

ونعثر بين حكمه بعبارات توحى بمذهب الصوفية الحلولية كقوله : « إنما يستوحش العباد الزهاد من كل شىء لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، ولو شهدوه فى كل شىء لم يستوحشوا من كل شىء » . وكقوله : « علم منك أنك لا تصبر عنه ، فأشهدك ما برز منه » . كما قد تحوى معانى تشير إلى مذهب الوحدانية المنفصلة عن الكون كقوله : « الأكوان ثابتة بثباته ، وممحوة بأحدية ذاته » .

ونلاحظ فى أسلوبه ، كما فى معانيه، خلطاً بين عبارات الصوفية وطريقتهم

فى التعبير وميلهم للرمز والغموض ، واستخدامه مصطلحهم ، وبين أساليب الأدباء من ميل إلى الجزالة والإيجاز واستخدام بعض حلى اللفظ والمعنى .

ونجد فى ختام المطبوع من حكمه مجموعة استغاثات ، هى أقرب إلى أسلوب الابتهالات التى نظمها أبو حيان التوحيدى فى « الإشارات الإلهية » فى مجموعة من السجع القصير الفقرات ، وتأثر فيها بطريقة شيخه أبى الحسن الشاذلى فى حزب البر[1] ، فأنت فيها أمام رجل بليغ لا يكتفى بزخرف اللفظ ، وإنما يفتن افتناناً شائقاً فى زخرف المعانى ، مع تكلف أو افتعال . ومن تلك الاستغاثات قوله : « إلهى ، أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى ؟

« إلهى ، أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟ »

وكقوله : « إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة على ، وإن ظهرت المساوئ فبعدلك ، ولك الحجة على » .

وقوله « ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ؟ ، أم كيف أترجم لك بمقالى ، وهو منك برز إليك ؟

أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك ؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك ؟ » .

وينكر ابن عطاء فى موضع وحدة الشهود أو أن وحدة الصنعة والصفة فى الكائنات دالة عليه تعالى ، فيقول : « كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى نحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك » .

وبهذا ينظر ابن عطاء الله نظر المجذوبين لا نظر السالكين ، فالسالك يستدل بالموجودات على الله ، والمجذوب يستدل بالله على الموجودات ، لأنه أصل كل شىء . وعبر عن هذا المعنى أكثر من مرة فى الحكم ، ويكاد

(١) التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك ١ / ١٥١ .

أن يكون من عقائده الرئيسية ، ومع ذلك فهو لا ينكر تماماً أن تكون الآثار شواهد على الله تعالى ، فيقول :

« إلهى ، أمرت بالرجوع إلى الآثار ، فارجعنى إليها بكسوة الأنوار ، وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها مصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتقاد عليها ، إنك على كل شىء قدير » .

ويقول :

« إلهى ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك » .

وكتب لحكم ابن عطاء الله أن تسير وتشتهر بين الناس فجرت عباراتها على ألسنتهم وتواترت فى دعواتهم وابتهالاتهم ، من مثل قوله ، وقد جرى على كل لسان فى دعواتهم وصلواتهم :

« إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك »

وقوله :

« بك أستنصر فانصرنى ، وإليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجانبك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى » .

وتنوع أدب الصوفية النثرى فى هذا العصر بين تأملات فلسفية ، وسبحات صوفية ، ومواعظ ومواجد ورواتب للسالكين ، وأدعية واستغاثات ، وقصص ، وعبر .

ومنه كتاب للصوفى المعروف بشروره ، شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهانى فى الزهد سماه « أطباق الذهب »(١) ، وكتاب « روض الرياحين فى حكايات الصالحين لابن فلاح عفيف الدين المتوفى سنة ٧٦٨ هـ(٢) ، وكتاب « ريحان القلوب فى الوصل إلى المحبوب » ليوسف بن العجمى (ت ٧٦٨هـ)

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٥

(٢) المصدر نفسه ١١ / ٩٣

ويتضمن شرائط التوبة ، ولبس الخرقة، ويلقّن الذكر. وله كذلك ذكر ، أو وِرْدٌ اشتهر فى عصره على ألسن العباد . قال ابن حجر : « واشتهر عنه الذكر الذى ملأ الآفاق » (١) . ولابن أبى حجلة التلمسانى (ت ٧٧٦ هـ) مجموعة مؤلفات معروفة فى بعض أوساط الصوفية ، مثل « ديوان الصبابة »، و «منطق الطير » و « سكردان » و « أطيب الطيب » (٢) .

ولا نستطيع أن نختم حديثنا عن التصوف فى القرنين السابع والثامن دون أن نلاحظ أن التصوف فى مصر والشام قد التقى فيه تياران عظيمان أحدهما وافد من المغرب يحمله جماعة من كبار الصوفية من الأندلس وشمال إفريقيا والمغرب أمثال ابن سبعين وابن عربى ، وأبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى . وثانيهما جاء من المشرق يحمله جماعة من كبار الصوفية من بلاد فارس والعراق أمثال السهروردى صاحب « عوارف المعارف » ، وشمس الدين التبريزى ، وجلال الدين الرومى (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) وقد استقر فى قونية ، وأسس فرقة الدراويش الدوارين أو الراقصين . والقونوى ابن العجمى الذى تتلمذ له ابن عفيف الدين التلمسانى الشاعر الصوفى (٣) .

---

(١) الدرر الكامنة ٤ / ٤٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٣٣٠ .

(٣) طبقات الشافعية ٥ / ١٩ .

الشعر الصوفى

واتخذ الصوفية الشعر وسيلة للتعبير عن مواجدهم ، وربما كان الشعر أقدر بطبيعته على التعبير عن تلك المواجد دون النثر . واشتهر فى القرنين السابع والثامن جماعة من كبار شعراء الصوفية ، وعلى رأسهم ابن الفارض ، وابن عربى ، وتقى الدين السروجى (ت ٦٩٣ هـ)(١) وابن العفيف التلمسانى ، وكتاكت المصرى (توفى سنة ٦٨٤ هـ) . وله القصيدة المشهورة عند الفقراء ومطلعها :

حضروا فمُذْ نظروا جمالك غابُوا   والكلُّ مذ سمعوا خطابكَ طابوا(٢)

وابن الخيمى ، ومحمد بن إسرائيل ، والزاهد الحريرى (توفى سنة ٧٠٨هـ) ، وابن أبى حجلة التلمسانى (توفى سنة ٧٧٦ هـ) .

وكان بعضهم ينظم الشعر موقعاً لينشد فى السماع وحلقات الرقص والذكر التى يقيمونها . ومن أجمل الشعر الصوفى ذى الإيقاع قصيدة ابن الفارض :

سائقَ الأظْعان يطْوى البيدَ طىْ   منْعماً عرِّجْ على كثْبان طىْ

وكان بعضهم يصنع الشعر ليلحن وينشد فى حلقات الصوفية مثل الصوفى القوصى عبد الغفار بن أحمد بن نوح (توفى سنة ٧٠٨ هـ) قال الأدفوى : « وكان له شعر حسن وقدرة على الكلام ، وحال فى السماع . . . سمعت من شعره ما كتب به لجعفر المزمزم ليلحن ، فلحنه وغناه ، وهو :

أنا أُفتى أن ترك الحب ذنبُ   آثمٌ فى مذْهبى من لم يحبْ

ذُقْ على أمرى مراراتِ الهوى   فهو عذْبٌ وعذابُ الحب عذْبْ

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة ١/١٩٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٦٨٤ .

كلُّ قلب ليس فيــه ســاكنٌ صبوةٌ عذريةٌ ماذاكَ قلبْ(١)

وكذلك كان الشيخ تقى الدين السروجى يعمل المنظومات الرقيقة السائرة التى تقع فى الأسماع والقلوب مواقعها ، وتلحن وتغنى فى سماعات الصوفية . ويقول ابن حجة الحموى : « وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : كانت رقائق الشيخ تقى الدين السروجى تسلب العقول ، وكان يغنى بها فى عصره ، لأنها فى الطريق الغرامى غاية لاتدرك ، فمن ذلك قوله — رحمه الله :

أنعم بوصْلك لى فهذا وقتُه يكفى من الهجران ماقد ذقتــهُ
أنفقتُ عمرى فى هواك وليتنى أعطى وصــولا بالذى أنفقتهُ
يامن شغلتُ بحبه عن غيره وسلوتُ كلَّ الناس حين عشقتهُ
كم جال فى ميدان حسنك فارسٌ بالسبق فيك إلى رضاك سبقْتهُ
أنت الذى جمع المحاسنَ وجهُهُ لكن عليــه تصبرى فرقتــهُ
قال الوشاةُ قد ادَّعى بك نسبةً فسررت لما قلت قــدْ صدقتهُ
بالله إن سألوكَ عــنى قل لهم عبدَى وملكُ يدى وما أعتقتــهُ
أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهمْ أدْرى بذا ، وأنا الذى شوَّقتُه(٢)

وكانت موضوعات الوجد والأشــواق ، أو الطريق الغرامى الذى انتهجه سلطان العاشقين ابن الفارض تغلب على الشعر الصوفى ، ونافسها فى هذا العصر ومنذ القرن السابع الهجرى موضوع المديح النبوى واتخاذه سبيلا للوجد الصوفى .

المديح النبوى :

ومن أبرز من اختط طريق المديح النبوى فى الشعر الصوفى ، **البوصيرى محمد بن سعيد بن حماد** صاحب « البردة » النبوية المشهورة ، ولم يكن

---

(١) الطالع السعيد ص ٣٢٤ .

(٢) الطالع السعيد ٣٢٥ .

البوصيرى صوفيًّا ، بالفكر أو الطريق، وإن قيل إنه كان شاذليًّا ، تتلمذ على أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى .

وتقع بردة البوصيرى فى ١٨٢ بيتاً ، وبينها وبين ميمية ابن الفارض تناظر ، فقد بدأ ابن الفارض قصيدته بقوله :

هل نارُ ليْلى بدتْ ليلا بذى سلم أم بارقٌ لاح فى الزَّوْراء فالعَلَمِ
أرواحَ نعمانَ هلاَّ نسمةً سحراً وماء وجرةَ هـلاَّ نهلةً بفمِ

ومطلع البردة :

أمِنْ تذكُّر جيرانٍ بذى سـلم مزجْتَ دمعًا جرى من مقْلةٍ بدمِ
أم هبتْ الريحُ من تلقاء كاظمةٍ وأومض البرْقُ فى الظلماء من إضَمِ

واتفقت القصيدتان فى الوزن ووحدة القافية ، وفى كثير من معانيهما ، وخاصة فيما يتصل بأسماء المواضع فى الحجاز والجزيرة العربية ، وفى التشوق إلى تلك الأماكن الطاهرة المقدسة والشوق والوجد الذى يرمز إليهما النسيب التقليدى فى القصيدتين ، وهو موجه للنبى صلى الله عليه وسلم . وتختلط معانى المديح النبوى ، وذكر فضائل النبوة ، وجلائل النبوة ، وجلائل الصفات الخلقية والخلْقية ، وما وهبه الله تعالى من المعجزات ، تختلط كل هذه بالمعانى الصوفية .

فمن معانى الصوفية التحذير من هوى النفس ، وقد بدأها الشاعر فى البردة بعذل الشيب فقال :

والشيب أبعد فى نصح عن التهم

ثم يعدد أهواء النفس وشهواتها ، كشهوة الطعام فيقول :

إن الطعام يقوى شهوة النهم

ويعود ليقول مرة أخرى :

فرب مخمصة شر من التخم

والهوى أو الميل ، فيقول :

إن الهوى ماتولى يُصْمِ أو يَصِمِ

ويشبه النفس الإنسانية بالطفل يشب على مايعود عليه فى الصغر :

والنفسُ كالطفل إن تهمله شبَّ على ... حُبِّ الرّضاع وإن تفطمه يَنْفطم

والعادة تستعبد النفس ، فينبغى أن تقف الإرادة حائلاً بينها وبينها ، لتتحقق للنفس الحرية والانطلاق .

وأما صفات المديح فتتلخص فى أن النبى محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد حوى من الصفات مافاق به كل النبيين من قبل :

وكلهم من رسول الله مُلتمسٌ ... غرفاً من البحر أو رشْفاً من الدِّيَم

ومن جميل معانيه الشعرية قوله :

لو ناسبت قدرَه أياتُه عظماً ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرِّمم

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرى ... للقرب والبعد منه غير منفحم

كالشمس تظهرُ للعينين من بُعد ... صغيرة ، وتكِلُّ الطرف من أمم

وكيف يدْركُ فى الدنيا حقيقته ... قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحلم

فمبلغُ العلم فيهُ أنه بشرٌ ... وأنه خيرُ خلْق الله كلهم

أكرمْ بخلق نبىٍّ زانه خلُقٌ ... بالحسن مشتملٌ بالبشر متّسم

كالزهر فى ترفٍ والبدر فى شرفٍ ... والبحر فى كرمٍ والدَّهر فى همم

كأنه وهو فرْدٌ فى جلالته ... فى عسكر حين تلقاهُ وفى حشم

وينتقل من مديحه عليه السلام بخلقه وخلقه إلى ذكر مولده ، ومعالم سيرته العطرة ، ومعجزاته الباهرة ، من القرآن إلى الإسراء والمعراج . فيقول عن معجزة القرآن ، إنها معجزة باقية خالدة لا كمعجزات سائر الأنبياء التى زالت بزوالهم ، وانقضت بانقضاء وقتها . يقول :

لم تقترنْ بزمانٍ وهى تخبرنا ... عن المعاد وعنْ عادٍ وعن إرَمِ

دامتْ لدينا ففاقتْ كلُّ معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم

وعن الإسراء :

سريتَ من حرمٍ ليلاً إلى حرمٍ كما سرى البدرُ فى داجٍ من الظُّلمِ
وبتَّ ترقى إلى أن نلتَ منـزلةً من قاب قوسين لم تُدرك ولم ترَمِ

ويختم قصيدته الطويلة بأبيات من الضراعة والابتهال ، والشفاعة بالنبى فيقول :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذُ به سواك عند حلول الحادثِ العممِ
ولن يضيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بى إذا الكريمُ تحلى باسم منتقمِ
فإن من جودك الدنيا وضرتَها ومن علومك علمُ الرّوحِ والقلمِ

ويقول :

يانفس لا تقنطى من زلة عظُمتْ إن الكبائرَ فى الغُفران كاللّممِ
لعلَّ رحمةَ ربى حين يقسمها تأتى على حسب العصيان فى القسمِ
يا ربِّ واجعل رجائى غير منعكسٍ لديك ، واجعل حسابى غير منخرمِ

وسار كثير من شعراء العصر على أثر البردة ، فاحتذاها وعارضها جماعة من الشعراء، وتناول معانيها ، وأساوبها جملةٌ ممن اهتموا بالمديح من بعده ، كالحيمى ، وصفى الدين الحلى ، وابن جابر الأندلسى الضرير ، وابن حجة الحموى .

ولكن صفى الدين الحلى ومن تبعه انتهجوا نهجاً جديداً فى مدائحهم إذ طرزوها بالبديع ، وأسموها البديعيات ، ضمنوا كل بيت فيها نوعاً من البديع ، فجعلوها مديحاً ومتناً فى علم البديع معاً .

وشوق الصوفية للأرض المقدسة والكعبة شوق عارم ، وتوددهم إلى مكة وما حولها تودد هائم . قال الأدفوى : ولعبد الغفار بن نوح القوصى (توفى سنة ٧٠٨ هـ) فى الكعبة المكرمة :

دعنى أعفر جبهتى بترابها وأقبل العتبات من أبوابها

خَوْدٌ رأيْتُ البدرَ تحتَ نقابها   سلبتْ رجال الحى من ألْقابها
فالكل صرْعى دون رفعِ حجابها

ويتغنون فى هوى الأماكن المقدسة وهم قاصدوها للحج ، أو لمجرد الظن والوهم ، والرحلة إليها بالخيال والقلب ، فمن شعر الزاهد عمر بن عبد البصير الحريرى (توفى سنة ٧١١ هـ)[1] :

ما لمطايانا تميــلُ مالهــا   أظنُّ رمْلَ رامــةٍ بدالهَا
لاتحسبنَّ ميْلهــا من مللٍ   وإنمــا سكرُ الهوى أمالهَا
وربمــا كلّت ولكن شوقُها   يمنعهــا أن تشْتكى كلالهَا
وكلُّ صعبٍ فى سراها هينٌ   لاسيما إن بلغتْ آمالهَا
تجدُّ وجداً فى الحزون كلَّما   تذكرتْ من يثربٍ أطْــلالهَا
وإن حدَا الحادِى بذكر طيبةٍ   هيَّجَ ذكرُ طيبــةٍ بلْبالهَا
فشوقُها يسوقُها حتى ترى   آمالهــا هناكَ أو آجالهَا

ويوجه الصوفية معانى الصبابة والغرام الحسية إلى محبوبهم الأبدى ، فيقول كتاكت المصرى : (ولد سنة ٦٠٥ — وتوفى سنة ٦٨٤ هـ)[2] :

منْ أنت محبوبُه ماذا يغــيرُه   ومن صفوْتَ له ماذا يكدِّرهُ
هيهاتَ عنك ملاحُ الكونِ تشْغلنى   والكلُّ أعراضُ حسنٍ أنت جوْهرهُ

ولم يكن كل شعر صوفية العصر يجرى على هذا الأسلوب الفصيح ، بل منهم من نظم فى الأساليب الشعبية ، بأسلوب عامى ولغة دارجة ، أو غير معربة . قال ابن حجر : « كان ابن البصيص — توفى سنة ٧١٦ هـ — ينظم نظماً عارياً من الإعراب على طريقة الصوفية »[3] .

---

(١) الطالع السعيد للأدفوى ٤٤٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٦٥ .
(٣) الدرر الكامنة ٤/٣٧٧ .

الباب السادس

شعراء الصوفية ومذاهبهم

اشتهر فى العصر ثلاث طبقات من شعراء الصوفية ، تتلمذت الطبقة الأولى منهم فنيًّا ، وفكريًّا على ابن الفارض ، وتأثروا فى الصوفية بأئمة الصوفية فى العصر أمثال ابن عربى وشهاب الدين السهروردى ، وابن سبعين والحريرى ، والشاذلى والمرسى .

ومن رؤوس هذه الطبقة الششترى (توفى سنة ٦٦٨ هـ) ، والخيمى ، محمد بن عبد المنعم (توفى سنة ٦٨٥ هـ) ، ومحمد بن إسرائيل (توفى سنة ٦٧٧ هـ) ، وعفيف الدين التلمسانى (توفى سنة ٦٩٠ هـ) .

وفى الطبقة الثانية نجد البوصيرى محمد بن سعيد (توفى سنة ٦٩٥ هـ) ، وتقى الدين السروجى (توفى سنة ٧٩٣ هـ) .

وفى الطبقة الثالثة ابن العجمى ، وابن أبى حجلة التلمسانى (توفى سنة ٧٧٦هـ) .

ويبرز بين شعراء الصوفية فى هذا العصر اتجاهات ومذاهب ، منها اتجاه الوجد أو الطريق الغرامى ، ويتقدمهم عمر بن الفارض ، ويسير على نهجه الخيمى .

مذهب الوجد والعشق الإلهى

الخيمى : هو محمد بن عبد المنعم (توفى سنة ٦٨٥ هـ)

ولد باليمن ، ونشأ بها ، ولقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو عبد الله . جاء إلى مصر وأقام ، وبها توفى . قال عنه ابن العماد : حامل لواء النظم فى وقته ، سمع جامع الترمذى ، وأجيز من كبار علماء عصره واتصل بعمر بن الفارض . وروى عنه جماعة من المصريين من علماء القرن السابع .

وبرع فى الشعر حتى قيل فيه : « وكان المقدم على شعراء عصره ، وشعره فى الذروة » . وكان معروفاً بالأجوبة المسكتة ، ولم يعرف عنه غضب . وتنازع هو وابن إسرائيل قصيدة صوفية بائية ، حكم فيها له . وحكايتها أنه روى أن نجم الدين محمد بن إسرائيل الشاعر الصوفى المعاصر ، حج فرأى ورقة ملقاة فيها القصيدة البائية التى لابن الخيمى فادعاها . قال قطب الدين اليونينى : « إن ابن إسرائيل والخيمى اتفقا واجتمعا بعدذلك فى حضرة جماعة من الأدباء ، وجرى الحديث فتحاكما إلى شرف الدين بن الفارض ، فقال : ينبغى لكل منكما أن ينظم أبياتاً على هذا الوزن والروى . فنظم الخيمى :

لله قوم بجرعاء الحمى غيب

ونظم ابن إسرائيل :

لم يقض من حقكم بعض الذى يجب

فلما وقف عليهما ابن الفارض قال لابن إسرائيل : « لقد حكيت ولكن فاتك الشنب » وهو عجز بيت من القصيدة المتنازع عليها تمامه :

يابارقاً بأعالى الرقمتين بدا   لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

وحكم بالقصيدة للخيمى . واستجاد بعض الحاضرين أبيات محمد بن إسرائيل وقال : من ينظم مثل هذا ما الحاجة له إلى ادعاء ماليس له ؟ فابتدر الخيمى وقال : هذه سرقة عادة ، لا سرقة حاجة . وانفض المجلس وسافر ابن إسرائيل لوقته من الديار المصرية .

وطلب ابن خلكان — وكان نائب الحكم بالقاهرة — الأبيات من الخيمى ، فكتبها له ، وذيل آخرها بأبيات ، وسأله الحكم بينه وبين من ادعاها[١] .

والقصيدة موضوع الخلاف تبدأ بقوله :

يامطلباً ليس لى فى غيره أرب   إليك آل التقصى وانتهى الطلب

وهى من شعر الوجد الذى استغرق أكثر نظم الخيمى .

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/٤٦٥ .

وتدور معانى الوجد فى شعره حول موضوعات « الشوق » إلى الحبيب ، ومايعانيه الشاعر أو العاشق من آلام مبرحة فى سبيل محبوبه ، مع التأكيد على صفات الوفاء ، والترحد فى الحب . يقول فى القصيدة البائية المشار إليها :

وما أرانى أهلاً أن تُواصِلَنى ... حسبى علواً بأنى فيك مكتئبُ
لكن ينازعُ شرقى تارةً أدبى ... فأطلبُ الوصلَ لما يضعف الأدبُ
ولستُ أبرح فى الحالين ذا قلق ... نام وشوق له فى أضلعى لهبُ
ومدمع كلّما كفكفْتُ صيّبهُ ... صوناً لذكرك يعْصينى وينسكبُ
ويدّعى فى الهوى دمْعى مقاسمتى ... وجدى وحزنى ، ويجرى وهو مختضِبُ
كالطّرف يزعم توحيد الحبيبِ ولا ... يزالُ فى ليلهِ للنجم يرتقبُ

ويعرض فى مجال الأشراق لذكرى الحب فى بعض الأماكن المعتادة فى الذكر من مواضع بالحجاز هى غالباً منازل يمر بها الحاج ، ومنها ذو سلم ، وكاظمة ، ورامة . يقول :

بالله إن جزْت كثباناً بذِى سلم ... قف بى عليها وقلْ لى هذه الكثبُ
ليقضى الخدُّ من أجرامها وطراً ... فى تُرْبها ويؤدى بعض ما يجبُ
وملْ إلى البانِ من شرقىِّ كاظمة ... فلى إلى البان من شرقيها أربُ
وخذ يميناً لمغنى تهتدى بشذاً ... نسيمه الرّطب إن ضلتْ بك النجبُ

وتتردد هذه المعانى فى شعره ، وخاصة التمسح بالترب الذى يذكره بحبيبه ، فيقول :

سلامٌ على بعد المزار وقربه ... سلامَ فتى مازال عن عهد حُبِّه
يعلله إن فات طيّبُ وصلكم ... لذيذُ هواكم فى سويداء قلبهِ
ويلقى بخدّيهِ النسيمَ لأنه ... بمغناكم قد جرّ ذيلا بتربْهِ
ويعترض الركبان علّ مبشراً ... بقربكم يقضى بتفريج كرْبهِ

ويستعير الشاعر هنـا كما هى العادة لدى شعراء الوجد معانى شعراء العذريين ، وخاصة المجنون ؛ فهم يجدون فى العذاب سعادة ، وفى الملامة حلاوة

لأنهما فى سبيل المحبوب ، ويتسامى شعور المحبة فتختلط أحاسيس العذاب والشقاء بأحاسيس النعيم واللذة ، أو هكذا يحيلها الحب بإكسيره ، فنرى الحيمى يقول فى أبيات :

فيا نار قلبى حبَّذا أنتِ مصْطلى ... ويا دمعَ عينى حبَّذا أنتَ موْرِدَا
ويا سقَمى فى الحب أهلا ومرحباً ... ويا صحةَ السُّلوان شأنك والعدَا
فلستُ أرى عن ملَّة الحبِّ مائلا ... وكيف ونورُ العامرية قد بدَا

فهو يستحضر صورة حب المجنون وليلى العامرية .

ويقول وقد حم ، فحول آلام الحمى وأوجاعها إلى معانى الصبابة والشرق :

صاحِ قلْ للطبيب ماهى حمَّى ... تلك نارُ اشتياقِ قلبى إليهمْ
وخروجُ المياه من جسمى المضـــنى بكا أعيـــنِ المسام عليهمْ
ماشفانى بكاء عينى حــتى ... ساعدتنى عيــون جسمى عليهمْ

وفى مجال معانى الصحة والسقم فى الحب يتناول من معانى الشعراء السابقين . ونشير إلى معنى لأبى نواس يعرض له فيقول :

ولست أعجبُ من جسمى وصحَّته ... فى حبِّه إنما سقْمى هو العجبُ

وغرام أبى نواس فى الخمر ، فهو فيها يقول :

لا تعجـــبى إلى ســقمى ... صحـــتى هى العجب

وغرام الحيمى فى غير الخمر وفى غير ليلى ، ولا بأس عنده أن يستعير من أبى نواس والمجنون وكلاهما مفتون بمن يحب كالحيمى . ولكنه يتسامى بحبه كما يتسامى بالصفات الحسية للجمال فيجردها للمعانى الصوفية ، فالبدر ليس شبهاً ولا صورة جمال المحبوب على عادة الغزلين ، ولكنه شىء آخر عنده ، يتمثل فيه الإشراق بنور الفيض الإلهى فى النفس . يقول :

كلفت ببدر فى مبادى الدجا بدا ... نعاد لنـــا ضوء الصَّباح كما بَدَا
وحجَّب عنا حسْنَه نورُ حسْنه ... فمن ذلك الحسن الضلالةُ والهدَى
فيا عاذلى دعنى ونارَ صبابتى ... عليه ، فإنى قد وجدْتُ لها هدَى
وهاكَ يدى إنى على ترك حبه ... مدى الدَّهر لا أعطيكَ ياعاذلى يدَا

فما العيشُ إلا أن أعيشَ مواصِلاً لبدْرِيَ أو فى حبِّ بدْرِى مسهَّدا
فيا نارَ قلبى حبَّذا أنتِ مصْطَلى ويا دمعَ عينى حبَّذا أنتَ موردا
وياسقمى فى الحب أهلا ومرحباً ويا صخرة السلوان شأنك والعدا

وقد يذهب فى بعض معانى الوجد ، إلى ماذهب إليه عمر بن الفارض من المزج بين معانى الخمر والصبابة . والخمر هنا هى خمر المجاذيب ، خمر الحب الإلهى التى تسكر الواجد وتفقده وعيه . ويستعير للخمر صفات من الحس ، ومن نساء معشوقات ، ويتحدث عن لونها وكاساتها وأنوارها وتعاطيها على العادة صبوحاً وغبوقاً ، وغيرها من المعانى التى ترد فى خمريات الشعراء فيقول :

ياصاحِ ياصاحِ البدارَ البدارْ فالشرقُ قد أضحى وصاحَ الهزارْ
وهبَّ مسكىٌّ نسيم الصَّبا فانهضْ شكوراً زمن الابتكارْ
وقم بنا نحو ابنة الكرم أم الزَّهـــرْ وزوِّج المــاء أختَ النهارْ
ثم أجلُها عذراء مِن ذاتها صيغتْ حلاها والحبابُ النثارْ
صهباء ، خمرٌ ، قرقف ، سلسلٌ مدامةٌ ، راحٌ ، سلافٌ ، عقارْ
كوجنة الساقى فلا غرْو أنْ يخلع أن تجْلى عليها العذارْ
صفراء لا أملكُ فى حبها مالا ، ولا أملكُ عنها اصطبارْ
ولا أخافُ النارَ فى شربها لأننى أشربُهــا وهى نارْ

إلى أن يقول :

ما أذهبتْ عقلى ولكن أطا رتْهُ إلى أفْق المعــالى فطارْ
فعاطنى ياصاحِ كاســاتِها وأسقنىَ واشربْ نهاراً جهارْ
وهاتِ يُمناى من صرْفها كاساً وأخرى هاتها باليسارْ

ونلاحظ فى تعبيرات الخيمى ألفاظاً وصياغات عامية ، كما نلاحظ بعض التعبيرات الدارجة؛ فأسلوبه ليس فى رصانة أسلوب ابن الفارض أو البوصيرى . ولا يهتم الخيمى بتخليص شعره مما يشوبه من شوائب العامية ، لأنه لا يريده شائعاً بين خاصة المثقفين والدارسين بقدر مايريده سائراً بين الفقراء وعامة الناس .

وبعد ؛ فهل يمكن أن نطرح السؤال الذى طرح من قبل بالنسبة لمواجد ابن الفارض ، أى هل كان يعشق الخيمى عشقاً حقيقياً ماديا ، ليستطيع التعبير عن مواجده ؟ أى تراه عرف حب المرأة ، وحب الخمرة ، وذاق لذة العشق وسكرة الشراب ؟

ولا نبت فى هذا برأى قبل أن نقرأ قوله[١] :

ألام على الخلاعة إذ شبابى ورونق جـدتى ذهبا جميعا

ومن ذهبت بجدته الليالى فلا عجب إذا أضحى خليعا

فهى تجيب عن هذا التساؤل . لكنه حين ولى الشباب ، وسلك طريق التصوف حول عواطفه ناحية الوجد الصوفى .

وقد أعجب شعراء العصر وأدباؤه بشعره وخاصة بقصيدته البائية التى تنازعها مع ابن إسرائيل . قال الصفدى : « رويتها بقراءتى على الشيخ فتح الدين ابن سيد النـاس ، عن شهاب الدين محمد بن عبد المنعم ابن الخيمى »[٢] .

وعارضه شهاب الدين محمود بقصيدة بائية قال عنها الصفدى : وهى فى غاية الحسن . وعارضه فيها العفيف التلمسانى ، وصدر الدين الوكيل ، وصلاح الدين الصفدى . وجمع ذلك كله الصفدى فى الجزء الأول من تذكرته[٣] .

وتوفى الخيمى وقد وافى على الثمانين من عمره بالقاهرة ودفن بها سنة ٦٨٥هـ .

---

(١) فوات الوفيات ٢/٤٦٨ .

(٢) شرح لامية العجم ١/١١٨ .

(٣) شرح لامية العجم ١/١١٨ .

مذهب وحدة الشهود

ابن إسرائيل : نجم الدين محمد بن إسرائيل (توفى سنة ٦٧٧ هـ)[١]

ولد بدمشق سنة ٦٠٣ هـ ، ولبس الخرقة من الشيخ شهاب الدين السهروردى ، وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات ، وصحب الشيخ الحريرى على بن الحسين ابن منصور (توفى سنة ٦٤٥ هـ)[٢] . وتأثر به فى اتجاهه الصوفى وآرائه ، وهو يأخذ بطريق وحدة الشهود فى أقواله . وقد رثا شيخه الحريرى بقوله :

خطب كما شاء الإله جليل ذهلت لديه بصائر وعقول

ومصيبة كسفت لها شمس الضحى وهوى ببدر المكرمات أفول

وخبا زناد المجد وانفصمت عُرى الـ علياء واغتال الفضائل غول

وتنكرتْ سبل المعارف واغتدتْ غُفْلاً وأقفرَ ربعها المأهولُ

ومضتْ بشاشة كلِّ شيْء وانقضتْ فالوقتَ قبلٌ والزمان عليلُ

وعلا ملاحاتِ الوجوهِ سماجةٌ فخفيفُ تلك الكائنات ثقيلُ

وكان بعض الفقهاء أمثال ابن الصلاح ، وعز الدين بن عبد السلام قد أفتوا بقتل الشيخ الحريرى لاتهامه « بالإباحة وقذف الأنبياء ، والفسق وترك الصلاة »[٣] . وذكر ابن حجر ابن إسرائيل معجباً مقرظاً فقال : « الفقير صاحب الحريرى ، ، وح المشاهد ، وريحانة المجامع . كان فقيراً ، ظريفاً نظيفاً ، مليح النظم ، رائق المعانى » .

(١) راجع ترجمته فى : شذرات الذهب ٥/٣٥٩ ، النجوم الزاهرة ٧/٢٨٣ ، فوات الوفيات ٢/٤٣٥ والسلوك ١/٦٥١ .

(٢) راجع ترجمته فى شذرات الذهب ٥/٢٣١ ، النجوم ٦/٣٦٠ ، فوات ٢/٨٢ ، البداية والنهاية ١٤/١٧٣ .

(٣) فوات الوفيات ٢/٩٠ .

وكان قد تجرد وسافر إلى البلاد على قدم الفقراء ، وقضاء الأوقات الطيبة ، وقال عنـــه ابن شاكر : « وكان ديباجة المشاهد وريحانة السماعات » ، ويبدو من هذه العبارة أنه كان يحضر حلقات الذكر والسماعات ، وأنه ربما شارك فيها بالإنشاد والغناء ، وبما ينظم من الشعر الصوفى . وذكر ابن شاكر أنه حضر وقتاً وفيه نجم الدين ابن الحكم الحموى ، فغنى المغنى من شعر ابن إسرائيل قوله :

وما أنت غير السكون ، بل أنت عينه ويفهم هذا السر من هو ذائق

فقال ابن الحكيم : كفرت ، كفرت . فقال ابن إسرائيل : لا ما كفر ، ولكن أنت ماتفهم ، ولكن تشوش الوقت »[١] .

واضطر ابن إسرائيل إلى أن يقصد الرؤساء وغيرهم من القضاة للمديح وكسب الرزق ، لكنه ضاق ذرعاً بذلك . قال ابن شاكر : « حكى الشيخ عز الدين الدربندى المؤذن بالجامع الأموى رحمه الله تعالى قال : أخبرنى نجم الدين ابن إسرائيل قال : ضقت ذرعاً فى بعض الأوقات ضيقاً شديداً فقلت فى نفسى : والله لا مدحت غير الله ، فقلت القصيدة التى أولها :

يا ناقُ مادونَ الأثيل معرّس جدِّى فصُبحك قد بدا يتنفسُ
واستصْحِبى عزماً يبلِّغْك المنى لتظلَّ تغبطُك الجوارى الكنّسُ

قال الصفدى : وكان نجم الدين ابن إسرائيل يقول : « أنا شاعر الفقراء ، وفقير الشعراء »[٢] . وقال عنه ابن كثير كان أديباً فاضلاً فى صناعة الشعر ، بارعاً فى النظم »[٣] . وكان يُنقِّحُ شعره بخلاف الخيمى ، وقد حكى عنه ابن شاكر قوله : « وكان لى عادة أن أنظم القصيدة وأنقحها فيما بعد »[٤] .

---

(١) فوات الوفيات ٢/٤٣١ .
(٢) شرح لامية العجم ١/١٢٤ .
(٣) البداية والنهاية ١٣/٢٨٤ .
(٤) فوات الوفيات ٢/٤٣٨ .

وموضوعات شعره متنوعة بين مديح الناس والمديح النبوى ، والشعر الصوفى الخالص الذى يذهب فيه مذهب وحدة الشهود على طريقة الشيخ الحريرى . قال ابن تغرى بردى : « وابن إسرائيل هذا ممن تكلموا فيه ورموه بالإلحاد ، والله أعلم بحاله »[١] . وقال ابن العماد كان فقيراً ظريفاً نظيفاً ، مليح النظم ، رائق المعانى ، لولا ماشانه بالاتحاد تصريحاً مرة ، وتلويحاً أخرى »[٢] .

ومن شعره فى المديح ما كتب به إلى النجم الكحالى :

يا سيِّد الحكماء هذى سُنَّةٌ مبثوثةٌ فى الطبِّ أنت سننتها
أوكلما كانت سيوفُ جفون من سفكتْ لواحظُه الدماء سننتَها

وله فى الغزل قوله فى مليح ناوله تفاحة :

لله تفاحةٌ وافى بهـا سكنى فسكَّنت لهباً فى القلب يستعرُ
كفأرةِ المسْك وافانى الغزالُ بها وغرَّة النَّجم حيَّانى بها القمرُ
أنَّى بها قاتلى نحوى فهل أحد قبلى تمشى إليه الغصن والثمر

ويقول :

وأسمر عسجدىّ اللون تحكى معاطفُ قدِّه سمرَ العـوالى
يديرُ على الشَّقيق عذارَ آسٍ ويبسمُ بالعقيـقِ على اللآلى

وأكثر شعره الذى يجرى فى هذه الأغراض المعتادة من مديح وغزل ووصف يجرى على سنة شعراء العصر من الميل إلى الصنعة البديعية ، وخاصة الجناس والتورية التى سادت فن شعراء القرنين السابع والثامن فى مصر والشام .

وله فى المديح النبوى قصائد كثيرة ، وله فى الزهد والوعظ ؛ مثل تلك الأبيات التى تدعو إلى التوكل ، وتؤمن بالجبر[٣] :

أيها المعتاض بالنوم السَّهرْ ذاهلاً يسبحُ فى بحر الفكرْ
سلِّمْ الأمرَ إلى مالكه واصطبرْ فالصبرُ عقباه الظفرْ

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٨٣/٧ .
(٢) شذرات الذهب ٣٥٩/٥ .
(٣) البداية والنهاية ٢٨٤/١٣ .

لا تكونن آيساً من فرج إنما الأيام تأتى بالعسر
كدر يحدث فى وقت الصفا وصفا يحدث فى وقت الكدر
وإذا ماســاء دهر مرة سر أهليه ومهما ساء سر
فارض عن ربك فى أقداره إنما أنت أسير للقــدر

ويرى ابن إسرائيل أن فى وصف جمال الخلق تعبداً للخالق ، لأنه رأى الاتحادية أصحاب مذهب وحدة الشهود ، إذ يقولون إن الأشياء مظاهر مختلفة للخالق ، فهى شاهدة عليه ، وفى جمالها الظاهرى شواهد على الجمال المطلق ، والتأمل فى ذلك الجمال والتغنى به ترديد لنعمة الله وذكر وتحدث بالآلاء . يقول :

يا من يشير إليهم المتكلم وإليهم يتوجــه المتظلم
وعليهم يحلو التأسف والأسى ويلذ لوعات الغرام المغرم
هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحياتكم مافيه إلا أنتم
وشغلتم كلى بكم وجوارحى وجوانحى أبداً تحن إليكم
وإذا نظرت فلست أنظر غيركم وإذا سمعت فمنكم أو عنكم
وإذا نطقت ففى صفات جمالكم وإذا سألت الكائنات فعنكم
وإذا سكرت فمن مدامة حبكم وبذكركم فى سكرتى أترنم
وإذا نظمت تغزلاً فى صورة فلأجل حسنكم المحبب أنظم
أنتم حقيقة كل موجود بدا ووجود هذى الكائنات توهم
أنا فى وجودكم غريب بائس وغريبكم مابالـه لا يرحم

وتبدو فى هذه القصيدة آراء ابن عربى واضحة فى وحدة الشهود ، التى تقضى بأن الوجود الآنى للأشياء ماهو إلا ظل للحقيقة الأبدية ، أو صورة فى المرآة للحق أو الخالق ، وقد تتعدد هذه الصور ، والأصل واحد موجود فى كل حين وفى كل شىء .

ويردد ابن إسرائيل مواجد الصوفية الاتحادية ، والشوق الدائم للوصل ، أو الرؤية ،ويتخذ للتعبير عن هذه الرغبة ثوب العشق المادى عارية ، ويصوغ غرامه فى إطار صياغات العذريين ، ويردد ألفاظهم ، ومطارح غرامهم ، ويتخذ هذا كله رموزاً لمقصده .

يقول :

إن أمَّ صحبى سمراً أو أراكْ فإنما مقصدُهم أن أراكْ
وإن ترنمْتُ بذكْر الحمَى فإنما عقدُ ضميرى حماكْ
وإن دعا غيرك داعٍ فما أحسبُ إلا أنه قد دعاكْ
وإن بكى صبٌّ حبيباً فما أحسبُ إلا أنه قد بكاكْ
يا جملةَ الحبِّ وتفصيلهُ أجملت إذ فرَّغتنى من سواكْ
ويا غنيًّا عن غرامى به من لى بأن يرحم فقرى غناكْ
ملأتَ كل الكون عشقاً فما أعرف قلباً خالياً من هواكْ

ومن قصائده الجيدة التى يمزج فيها الأشواق بالجذب ، أو حرق الهوى بالذهول والغيبة والسكر فى الذرى من خمر المحبة قوله :

وفى لى من أهواهُ جهراً بموْعدى فأرغمَ عذّالى عليه وحسَّدِى
وزارَ على شحْط المزار تطولاً على مغرم بالوصْل لم يتعوَّدِ
فيا حسنَ ما أبدى لعينى جمالَه ويا برْد ما أهْدى إلى قلبى الصَّدِى
ويا صدْق أحلامى ببشرى وصاله ويا نيلُ آمالى ويانجْحَ مقصدِى
نديمىَّ من سعد أريحا ركائبى فقد أمنتْ من أن تروح وتغتدِى
ولا تلْزمانى النُّساك فالحبُّ شاغلى ولا تذكُرا لى الورْد فالراحُ موْردى
ولا تقفا بى فى الرسوم التى عفتْ فقد طال حبْسى بين نُؤى وموْقد
ومرَّا على حىٍّ بمنعرج اللِّوى وقولا لغزلان الصريم ألاَ ابعدِى
ولا تُسعدانى بعدها لكما البقا فما فىّ بعد اليوم فقر لمسعد
أمن بعد ماقد بـرّد الشوقُ علَّتى وزارَ الكرى أجفان طرْف المسهَّدِ
وهامت بىَ الصَّهباء وجداً فكل من سقاها له طرف إلى رؤيتى صدِى

وأمسيت والكاسات شمس وأصبحت عروس حميا الحان تجلى على يدى
وأضحت ظباء الحى صيد خلاعتى وإن صدن من أهل النهى كل أصيد
ذرانى وعزمى والدجى وموزاره فقد أبت العلياء إلا تفردى
ولا تيأسا من روحه وتأسيا فكم معرض فى اليوم يقبل فى غد
ففى الحى صب باع مهجة نفسه لجيرة ذاك الحى نقدا بموعد
هو الحب إما منية أو منية ودون العلا حد الحسام المهند
ألم تر أنى قد وجدت تلذذى برؤياه عقبى حيرتى وتلددى
وقد عشت دهراً والزمان يهزنى وتطربنى الألحان من كل منشد
فأغدو وفى ليل الغدائر دائبا أضل ، ومن صبح المباسم أهتدى
ويسقم جسمى كل جفن وتارة يورد خدى كل خد مورد
فطوراً أرى فى الربع يبدو تدلهى وطوراً وراء الظعن يوهى تجلدى
أحن للمع النار شب ضرامها بنعمان فى ظل الأراك المعمد
وأصبو متى هبت صباحاً نسيمة تخبرنى عن منجد غير منجدى
وتخجل أجفانى السحاب بوبلها متى لاح لى برق ببرقة شهمد

ويختلف اتجاه ابن إسرائيل فى وجده هنا ، وعشقه عن الخيمى ، فالخيمى كابن الفارض من أصحاب العشق الإلهى ، يعبرون عنه فى رموز من صور العشق المعروفة ، ويستعينون بالصفات الحسية للتعبير عما يرمون إليه من معان صوفية تدور حول محبة الله والتوق للوصول إلى نوره والائتناس بجنابه . أما ابن إسرائيل فيرى فى الأشكال المادية صوراً للوجود الأزلى ، أو للخالق نفسه ، فهو يتودد إلى تلك المظاهر نفسها ، ولا يرمز بها كما يفعل ابن الفارض والخيمى من أتباع مذهب الوجد كما سميناهم . وابن إسرائيل أقرب إلى اتجاه وحدة الوجود ووحدة الشهود ، متأثر بآراء ابن عربى ، والحريرى .

ومن هنا نستطيع أن نبرر انعطاف ابن الفارض نحو الخيمى وحكمه له بالقصيدة ، مع اقتدار ابن إسرائيل فى الشعر وتفوقه فنياً على الخيمى . ولكن ابن الفارض يرمى — فيما نرى — بقوله : « حكيت ولكن فاتك الشنب » أنه

قد أجاد صنعة الشعر ولكنه لم يبلغ المراد من معانى الصوفية على رأى ابن الفارض وأصحابه .

ومثل القصيدة الدالية السابقة لابن إسرائيل نمثل بقصيدة أخرى رائية جميلة تدور بمعانيها فيما دارت فيه الدالية . يقول :

عسى الطَّيف بالزوراء منك يزورُ فقد نام عنه كاشحٌ وغيورُ
وكيف يزور الطيف صبًّا مسهداً له النجم بعد الظاعنين سميرُ
سرَوا فى ضياء من شموس خدورهم كأنَّ سراهم فى الظَّلام منيرُ
ظعائنُ تغزو الجيش وهى رديفُهُ عليهنَّ من سمر الرماح ستورُ
إذا نزلوا أرضاً تولت محولها وأضحت وفيها روضة وغدير
وإن فارقوا أرضاً غدت ورمالها من الطيب مسكٌ والترابُ عبير
أحباءنا النائينَ أدعو وبيننا سهولٌ عسيرٌ قطعها ووعورُ
ودار لكم بالبان عن أيمن الحمى يلوح عليهـــا نضرةٌ وسرورُ
قريبةُ عهدٍ بالخليط رسومها مواثلُ ماامحَّت لهنَّ سطـــورُ
كأنَّ حوافى الخيل فيها أهلَّةٌ وآثارُ أخفافِ المطىِّ بدورُ

ونلاحظ فى هذه الأبيات وسابقتها ميل الشاعر إلى الإغراب فى الاستعارات ، والرقى بها أو التسامى ، ويقلب الاستعارة أحياناً فيجعل الظعائن تغزو الجيش ، وهى خلفه ، ومن قبل قال: « أمن بعد ماقد برد الشوق غلتى » والشوق عادة لايبرد الغلة ، ولكنه يزيدها اشتعالا . ولكنه الوله المجذوب الذى يلذ الألم يجعله الشوق الحال فى القلب ، وهو حار فى عرف الشعراء ، يحول فيصبح برداً وسلاماً بالمحبة .

كذا نلاحظ أنه يستعمل معانى الشعراء السابقين فى النسيب وغيره فيعرضها عرضاً جديداً ، وإن حافظ على جوهرها . فيأخذ فى أبياته السابقة قول المتنبى :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

فيقول :

سروا فى ضياء من شموس خدورهم كأن سراهم فى الظلام منير

ونلاحظ استخدامه اسم « الزوراء » للمدينة المنورة « يثرب »، كما يستخدم من رموز النبوة ولوازم السيرة « بنى سعد » وهم قوم السيدة حليمة السعدية حاضنة النبي ومرضعته ، فقال « نديمى من سعد » فى الدالية ، وكررها فى الدالية الثانية التى يقول فيها :

لقد عادنى من عائدِ الشَّوق عائدُ ... فهل عهدُ ذات الخال بالسفح عائدُ
وهل نارُها بالأجرع الفرْد تعتلى ... لمنفردٍ شاب الدُّجى وهو شاهدُ
نديمىَّ من سعدٍ أديرا حديثَها ... فذكرى هواها والمدامة واحدُ
منعَّمة الأطراف رقَّت محاسناً ... حلالىَ فى حبها ما أكابدُ
فللبدر ما لاثت عليه خمارها ... وللشمس ماجالتْ عليه القلائدُ

ومزج الشاعر فى هذه الأبيات مزجاً غريباً بين معانى الغزل والخمر ، وتطالعنا من الأبيات بعض معانى النواسى فى خمرياته ، وبعض معانى الشريف الرضى فى غرامياته . ويحيل بيت أبى نواس الشهير فى وصف الكأس :

فللراح مازرت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانس

إلى بيت فى الغزل فيقول :

فللبدر مالاثت عليه خمارها ... وللشمس ماجالت عليه القلائد

ولابن إسرائيل قصائد صوفية الطابع ، واللفظ ، ليست كتلك التى عرضنا لها فى قرب المعانى ووضوح دلالات الألفاظ ، ومنها أبيات يقول فيها :

خلا منه طرفى وامتلا منه خاطرى ... فطرفى له شاك وقلبى شاكر
ولو أننى أنصفت لم تشك مقلتى ... بعاداً ودارات الوجود مظاهر

وقوله :

يامن تناءى وفؤادى داره ... مضناك قد أقلقهُ تذكارُهُ
صددت عنه قبل ماوصلته ... وكان قبل سكره خماره

ومنها قصيدة صوفية خالصة فى معانى الصوفية ، وأفكارهم ، تماثل تائية ابن الفارض ، يقول فى مطلعها :

وفى لى من أهواه جهراً بموعدى ... وأرغم عذَّالى عليه وحسَّدى
وزار على شحْطِ المزار مطوِّلا ... على مغرم بالوصل لم يتعوَّدِ
فيا حسنَ ما أهدى لعينى جماله ... ويابردَ ما أهدى إلى قلبىَ الصَّدِى
ويا صدقَ أحلامى ببشرى وصاله ... ويا نيلَ آمالى ويا نجحَ مقصدِى
تجلَّى وجودى إذ تجلَّى لباطنى ... بجدٍّ سعيدٍ أو بسعدٍ مجدَّدِ
لقد حقَّ لى عشقُ الوجودِ وأهله ... وقد علقتْ كفاىَ جمعاً بموْجدِى

وقال وقد تحدث عن « وحدة الشهود » :

فلما تجلى لى كلٌّ شاهدِ ... وسامرنى بالرَّمز فى كلِّ مشهدِ
وصارَ سماعى مطلقاً منه بدؤه ... وحاشى لمثلى من سماع مقيَّدِ
ففى كل مشهودٍ لقلبى شاهدٌ ... وفى كل مسموعٍ له لحنُ معبدِ

وفى المشاهد الجمالية :

أراهُ بأوصاف الجمال جميعها ... بغير اعتقادٍ بالحلولِ المبعدِ
ففى كل هيفاء المعاطف غادةٌ ... وفى كلِّ مصقولِ السوالف أغيدِ
وفى كل بدرٍ لاح فى ليل شَعره ... على كل غصنٍ مائس العطف أملدِ
وعند اعتناقى كلَّ قدٍّ مهفهفٍ ... ورشْفى رضابا كالرَّحيق المبرَّدِ
وفى الدرِّ والياقوت والطِّيب والحلى ... على كلِّ ساجى الطَّرف لدن المقلدِ
وفى حللِ الأثوابِ لاحت لناظرى ... بزبْرجها من مذهبٍ ومورَّدِ
وفى الراح والريحان والسمع والغنا ... وفى سجع ترجيع الحمام المغرِّدِ
وفى الدوحِ والأنهار والزهر والنَّدى ... وفى كلِّ بستانٍ وقصر مشيَّدِ
وفى الرَّوْضة الفيْحاء تحتَ سمائها ... يضاحلُ نور الشمس نوَّارُها النَّدِى
وفى صفو رَقْراقِ الغَدير إذا حكى ... وقد جعَّدته الرِّيحُ صفحة مبردِ

وفى اللهو والأفراحِ والغفلةِ التى تمكن أهل الفرق من كل مقصد
وعند انتشار الشرب فى كلّ مجلس بهيج بأنواع الثمار المنضّــدِ
وعند اجتماع الناس فى كل جمعةٍ وعيدٍ ، وإظهار الرياش المجدّدِ
وفى لمعانِ المشرفيّة فى الوغى وفى ميلِ أعطافِ القنا المتأوّدِ

وفى المظاهر العاوية يقول :

وفى الأعوجيات العتاق إذا انبرت تسابق وفد الريح فى كل مطرد
وفى الشمس تحكى وهى فى برج نورها لدى الأفق الشرقى مرآة عسجدِ
وفى البدر بدز الأفق ليلة تمه جلته سماء مثل صرحٍ ممرّدِ
وفى أنجم زانت دجاها كأنها نثار لآلٍ فى بساط زبرْجدِ
وفى الغيث روّى الأرض بعد همودها قبال نداهً متهمٌ بعد منجدِ
وفى البرق يبدو موهناً فى سحابه كباسم ثغر أو حسامٍ مجردِ
وفى حسن تنميق الخطاب وسرْعة الجــوابِ وفى لحظِ الأنيقِ المجوّدِ

وفى المظاهر المعنوية :

وفى رقّة الأشعار رقّتْ لسامع بدائعها من مقْصر ومقصدِ
وفى عود عيد الوصل من بعد جفوة وفى أمن أحشاء الطريد المشرّدِ
وفى رحمةِ المعشوقِ شكوى محبّه وفى رقة الألفاظِ عند التودُّدِ
وفى أرْيحيات الكريم إلى الندى وفى عاطفات العفْو من كل سيّدِ
وحالةِ بسْط العارفين وأنسهم وتحريكهم عند السّماع المقيدِ
وفى لطف آيات الكتابِ التى بها تنسّم روحَ الوعْد بعد التوعّدِ

وفى المظاهر الجلالية :

كذلك أوصافُ الجلالِ مظاهرٌ أشاهدُهُ فيهــا بغير تودُّدِ
فى سطْوة القاضى الجليلِ وسمتهِ وفى سطوةِ الملك الشديد الممرّدِ
وفى حدةِ الغضْبانِ حالةَ بطْشه وفى نخْوةِ القرْمِ المهيب المسوّدِ

وفى صولة الصَّهباء جارَ مديرُها وفى بأس أخلاق النَّديم المعربْدِ
وفى الحرِّ والبردِ اللذين تقاسمَا الزَّمـــــانَ وفى إيلام كلِّ محسَّدِ
وفى سرِّ تسليط النفوس بشرِّها علىَّ وتحسينِ التعدِّى لمعْتَدِى

وهكذا يدور ابن إسرائيل فى شعره حول فلسفة وحدة الشهود التى ثبتها الحريرى ونشرها فى عصره ، ورددها هذا الشاعر الصوفى الواجد فى شعره . وفى هذه الفلسفة ضرب من التجرد النفسى ، والتسامى الأخلاقى ، والنظر للإنسان والحياة والكون بجانبيه الخير والشر نظرة محبة وصفاء ؛ وتعايش وألفة ، لانظرة حقد وتنافر واجتناب و بغضاء . ذلك أن المحبة والألفة لمظاهر الكون والأحياء والأشياء ، تريح النفس ؛ وتعطفها على الكائنات ، فلا تحس بالغربة ، ومن ثم بالوحدة ، وسطو الآنية ، ومرارة الحين .

الحلولية « أصحاب مذهب وحدة الوجود »

١
الششترى

على بن عبد الله النميرى (ولد سنة ٦١٠ هـ ، توفى سنة ٦٦٨ هـ)

وأصل الششترى من الأندلس ككثير غيره من صوفية العصر ، فقد ولد بقرية ششتر بوادى آش وتتلمذ على ابن سبعين ، وكان أكبر منه سنًّا ، لكنه اشتهر باتباعه وعول على مالديه . قال عنه ابن تيمية : « إنه واحد من كبار الصوفية أصحاب وحدة الوجود الذين أثروا أبلغ الأثر فى إمامة هذا المذهب ونشره » . وقال المقرى فى ترجمته : « عروس الفقهاء وأمير المتجردين ، وبركة لابسى الخرقة »[١] ، وروى أنه كان على علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية ، وتقدم فى النظم والنثر على طريقة التحقيق ، وأشعاره وموشحاته ، وأزجاله غاية فى الانطباع .

وذكر من أساتيذه ابن سبعين وقال إنه خدمه وتتلمذ له وعول على ما لديه حتى صار يعبر عن نفسه فى منظوماته وغيرها بـ "عبد ابن سبعين" وروى أن ابن سبعين قال له عند أول لقائه : « إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبى مدين — أحد المشايخ فى عصره — ، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إلى » .

---

(١) راجع نفح الطيب ١/١٨٥ بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، كذلك راجع ترجمته مفصلة ، مع دراسة لاتجاهه الصوفى فى مقدمة ديوانه الذى قام بنشره وتحقيقه الدكتور على سامى النشار طبع منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٦٠ ، وكتاب « الفلسفة فى الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود ص ٥٥٨ وما بعدها .

ولما مات ابن سبعين انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء المتجردين ، فكان يتبعه فى أسفاره ما ينيف على أربعمائة فقير .

ومن أشياخه غير ابن سبعين ابن سراقة الشاطبى ، ومحمد بن إبراهيم ، أحد أصحاب السهروردى شهاب الدين ، ولقى الشاعر محمد بن إسرائيل الدمشقى وصحبه زمناً فى دمشق سنة ٦٥٠ هـ .

وصنف مجموعة من الكتب من بينها " العروة الوثقى " فى بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته . وكتاب " المقاليد الوجودية فى أسرار الصوفية " و " الرسالة القدسية فى توحيد العامة والخاصة "و " المراتب الإيمانية والإسلامية والإنسانية " و " الرسالة العلمية " .. وغيرها[١] .

وله ديوان شعر قال عنه المقرى : " له ديوان شعر مشهور "[٢] . وفيه قصيدة نونية فى العقيدة . ومذهبه الصوفى على طريقة صوفيى عصره أمثال ابن إسرائيل . يقول فى أولها :

أرى طالباً منا الزيادة لا الحسنى ... بفكر رمى سهماً فعدى به عنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا ... تغيب به عنا لدى الصعق إن عنّا

قال المقرى : « وهى من أشهر ما قال ، وهى طويلة عرفت بالمشرق والمغرب »[٣] .

وأشار لسان الدين بن الخطيب فى " الإحاطة " إلى أنها لا تخلو من شذوذ من جهة اللسان وضعف العربية . قال : ومع ذلك فهى غريبة المنزع ، أشار فيها إلى مراتب الأعلام من أصل هذه الطريقة ، وذكر فيها شيخه ابن سبعين ملقباً إياه بالغافقى . قال :

---

(١) نفح الطيب ٢ — ١٨٦ .
(٢) سبقت الإشارة إلى نشره بالإسكندرية سنة ١٩٦٠ .
(٣) تولى شرحها جماعة من العلماء منهم ابن عجيبة .

وأظهر منها الغافقى لنا جنى   وكشف عن أطواره الغيم والدجنا

وكان ينظم الشعر ويغنى به فى الأسراق على آلته « الششترية » .

وكثرت رحلاته فى العالم العربى والإسلامى فى المغرب والمشرق فزار فى المغرب مكناس وفاس وملقا وطرابلس ، وجاء إلى مصر فالتقى فى الإسكندرية بأتباع أبى الحسن الشاذلى ، وذهب إلى مكة حيث سافر ابن سبعين وجاور زمناً ، وغادرها إلى الشام فتجول فى ربوعه ، وتردد فى تجواله على بعض الأديرة ، ولقى رهبانها وشمامستها ومرتليها .

ويضم ديوانه شعراً على شكل القصيد والموشح ، والزجل . وربما كان زجله أكثر اشتهاراً وتأثيراً فى عامة الناس من قصيده ، ولهذا رأى فيه ابن تيمية خطراً عليهم .

ويعتبر مذهبه فى وحدة الوجود امتداداً لمذهب أستاذيه ابن عربى وابن سبعين . ويعتقد أنه ليس هناك سوى ولا غير بالنسبة للمحققين :

فرفضُ السِّوَى فرض علينا لأننا   بملّة محو الشرك والشكّ قد دنّا

ثم يكشف عن طريقته وهى إنكار النظرة العقلية للكون والعقيدة ، لأن نور العقل عنده هو الذى سجن الإنسان فى أوهامه ، وفى حدود طاقته القاصرة . يقول :

تقيَّدتَ بالأوهام لما تداخلتْ   عليك ونورُ العقل أورثك السجنا

أما لك حول ؟ فاستمع لوصيتى   عقال من العقل الذى منه قد تبنا

فلا تلتفت فى السير غيراً، وكل ما   سوى الله غيرٌ، فاتخذ ذكره حصْنا

كذلك يرى أن الوجود المطلق قد قيد نفسه بالأزمان ، كما حدد ذاته بالمكان أو " الأين " :

تقيَّدَ بالأزْمان للدَّهر مثلما   تكيَّف بالأجسام من ذاته الأيْنا

ومن ثم تكون الذات المطلقة فى رأيه قد تفرقت فى هذه المظاهر المادية فى الشكل لا الجوهر وللمحقق الذى يجمع ماتفرق منها فى وجدانه فيفوز بالتحقيق

بقلبه ، لا بعقله الذى يتوقف دون ذلك ، ويحيط به كما تحيط الشرنقة بدودة القز . يقول :

يفرِّقُ مجموعَ القضية ظاهراً ويجمعُ فرقاً من تداخله فُزْنا
وعدَّد شيئاً لم يكنْ غير واحدٍ بألفاظِ أسماء بها شتتَ المعْنى
فنحن كدود القز يحصرنا الذى صنعنا بدفع الحصر سجناً لنا منا

ويجرى على لسانه ما يجرى على ألســنة الصوفية من رموز كرمز " نار موسى "، و " سعد الصاحب " و " خمر الهوى " . فيقول :

فيا سعد قل للقس منْ داخل الدير أذلك نبراس أم الكأسُ بالخمـْرِ
سرينا له خلناه ناراً توقدت على علم حتى بدت غرة الفجر
أقول لصَحْبى عادت النار ، قدجرت تلوح وتخفى ، ما كذا هذه تجرى
ولو أنه نجمٌ لمــا كانَ واقفاً تحيرتُ فى هذا كما حرْت فى أمْرى
إلى أن أتيتُ الدَّير ألفيتُ فوقه زُجاجاً، ولا أدرى الذى فيه ؛ لا أدْرى
بحقِّ المسيح اصْدق لنا ما الذى حوتْ فقال لنا خمرُ الهوى فاكْتموا سرِّى

ويتحد شارب الخمر والساقى والخمر نفسها معاً فى شخص واحد يقول :

فلما تجوْهرْنا وطابتْ نفوسُنا وخفْنا من العربيد فى حالة السكْر
أحسَّ بنا الخمَّار قال لنا اشربوا وطيبوا فما فى الدَّيْر من أحد غيرى

وفى قصة موسى رمز آخر إذ يتخذ منها الشاعر موقفاً خاصًّا يفسره وفق مذهبه فيقول :

ما للحجاب مكانٌ فى وجودكم إلا بسرٌ حروف انظر إلى الجبلِ
ظهرْتمو فخفيتم عن ظهوركُم أنتم دللتمْ عليكمْ بالدليل ولِى

واتخذ من اسم ليلى العامرية فى قصة المجنون رمزاً للوجود المطلق الذى دلهه بالهوى فقال معبراً عن سعيه المشوق الدائب إليه بقلبه ليلقاه :

غيرَ ليلى لم يكنْ فى الحىِّ حىْ سلْ متى ما ارتبتَ عنها كلَّ شىْ
كل شىء سرُّها فيه سَرَى فلذا يُثْنى عليها كلُّ شىْ
قال من أشهدَ معنى حسنِها إنه منتشرٌ والكلُّ طَىْ
هى كالشمْس تلألأ نورُها فتى ما رُمته قد عاد فىْ
هى كالمرآةِ تُبْدى صوراً قابلتها وبها ما حلَّ شَىْ
هى مثلُ العينِ لا لونَ لها وبها الألوانُ تُبدى كلَّ زِى

ويوالى فى كثير من شعره شرح اتجاهه ، ويخصص جانباً كبيراً من نظمه لتعليم أتباعه السلوك . فعلى ذلك يكون اللون التعليمى أغلب عليه من الطابع الوجدانى ، الذاتى ، الذى غلب على شعر ابن الفارض والخيمى .

وكان من أثر ذلك أنه مال إلى الأشكال التعبيرية القريبة من هوى الناس وأذواقهم كالموشح ، والزجل على طريقة ابن قزمان ، مستخدماً اللغة العامية لقربها إلى أفهام العامة. ويكرر فى أشكاله العامية معانى شعره الفصيح ، يقول فى زجل له :

أنا هُوَّ محبوبى والجمال ليّـــا
قـــولى هنيـــا كنزى بين عينيَّا
لأنى هو ذاتى وروحى حقيقة
تمـــلا وتسقينى خمرة رقيقـــة
ولا تبالى بقول الخليقـــــــة
قد بدا ليا منى سر بدا عجيب
حتى رأيت أنى عن حضرتى لا تغيب

وقوله فى شكل موشح شعبى :

يا من بدا ظاهر حين استتر
واختفى باطن لما ظهر
أنا النديم أنا الساقى أنا الزجاج أنا الخمر
اسمع كلاماً ملتقط افهمنى قط ، افهمنى قط

محبوبى قــد عم الوجود
وقد ظهر فى بيض وسود
وفى نصارى وفى يهود
وفى الحروف وفى النقط افهمنى قط افهمنى قط
وفى النبات وفى الجماد
وفى البياض وفى السواد
وفى القلم وفى المداد
وليس فى هذا غلط افهمنى قط ، افهمنى قط

٢

عفيف الدين التلمسانى(١)

سليمان بن على بن عبد الله (توفى سنة ٦٩٠ هـ)

الأديب الشاعر الصوفى ، الكوفى التلمسانى الملقب بعفيف الدين ، والمكنى بأبى الربيع . قال عنه ابن كثير : « المتقن المفتن فى العلوم ، منها النحو والأدب والفقه والأصول ، وله فى ذلك مصنفات »(٢) . ولقبه المقريزى بالعابد ، وذكر أنه من الصوفية الاتحادية ، أو القائلين بوحدة الوجود . قال أثير الدين أبو حيان : « وكان متخيلاً فى أقواله وأفعاله على طريقة ابن العربى » .

وأخذ عن شيخه القونوى فى دمشق فترة ، ثم جاء معه إلى القاهرة ، والتقيا بعد معاً بابن سبعين . قال المناوى : « أثنى عليه ابن سبعين ،

(١) ترجمته فى البداية والنهاية ١٣ — ٣٢٦ ، النجوم الزاهرة ٨ — ٣٠ ، السلوك ٧٧٧ .

(٢) البداية والنهاية ٣٢٦/١٣ .

وفضله على شيخه القونوى ، فإنه لما قدم شيخه القونوى رسولاً إلى مصر اجتمع به ابن سبعين لما قدم من المغرب . وكان التلمسانى مع شيخه القونوى . قالوا لابن سبعين : كيف وجدته ؟ يعنى فى علم التوحيد ، فقال إنه من المحققين ، ولكن معه شاب أحذق منه ، وهو العفيف التلمسانى » .

وقال ابن العماد : « والعفيف هذا من عظماء الطائفة القائلين بالوحدة المطلقة »[١] وتصوف بالشام ، ثم خرج منها إلى بلاد الروم حيث واصل طريقه الصوفى ، وربما التقى بأتباع جلال الدين الرومى[٢] . وذكر ابن الجزرى فى تاريخه « أنه عمل ببلاد الروم أربعين خلوة ، يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى » ، وكل خلوة أربعون يوماً متتابعة .

واشتغل ببعض الوظائف فى الدولة . قال ابن تغرى بردى : « وخدم فى عدة جهات » ، وعمل كاتباً ، وشيخاً للصوفية ، وعندما جاء إلى مصر دخل خانتماه الصوفية المعروفة بـ " سعيد السعداء ". ذكره أبو حيان ، وقد لقيه وقتئذ فقال: « قدم علينا القاهرة ، ونزل بخانقاه سعيد السعداء عند صاحبه شيخها شمس الدين الإيلى » . وولد له ابنه شمس الدين الشاعر المعروف « بالشاب الظريف » بالقاهرة سنة ٦٦١هـ .

وكان يدين بمذهب وحدة الوجود فى التصوف ، ويدين بالوحدة المطلقة ، ومنها أنه يعتقد« ما ثَمَّ غيرٌ ولا سوًى برجه من الوجوه ، وأن العبد إنما يشهد السوى إذا كان محجوباً فإذا انكشف حجابه ، ورأى أن ماثم غيره تبين له الأمر » . وينسب إليه أنه كان يقول : « نكاح الأم والبنت

---

(١) شذرات الذهب ٤١٣/٥ .

(٢) من كبار شعراء الصوفية الفرس ، وصاحب طريقة المولوية الدراويش ، وله (كليات المثنوى) ديوان مثنوى ضخم فى التصوف يضم ٤٧٠٠٠ بيت عبارة عن مجموعة قصص ونوادر ، وأمثال متفاوتة الطول وبلا رابطة ظاهرية (مجالى الإسلام لحيدر بامات ، ترجمة عادل زعيتر ص ٣٦١) طبع القاهرة ١٩٥٦ .

والأجنبية واحد ، وإنما هؤلاء المحجبون قالوا حرام علينا ، فقلنا حرام عليكم » . قال ابن العماد : « وزعموا أنه على قدم شيخه — القونوى — فى أنه لا يحرم فرجاً » .

وحمل عليه كثير من معاصريه من علماء السنة ، وألحقوه بغيره ؛ من أمثاله : ابن عربى وابن سبعين والقونوى والحريرى . ومن أشهر مهاجميه هو وشيخه أثير الدين أبو حيان . قال المناوى : « وذكروا أنه دخل على أبى حيان فقال له : من أنت ؟ ، فقال : العفيف التلمسانى ، وجدى من قبَل الأمّ ابن سبعين . فقال — أبو حيان — : أى والله ، عريق أنت فى الإلهية ياكلب ، يا ابن الكلب » . قال المناوى : « وأكثروا من هذا الهذيان فى شأنه وشأن شيخه وشيخ شيخه ، ولم يثبت عندهم شىء من ذلك بطريق معتبر . نعم هم قائلون بأن واجب الوجود هو الوجود المطلق ، ومبنى طريقهم على ذلك »[1] .

وروى المناوى أن بعضهم قال : « هو لحم خنزير فى صحن صينى ، وأنه يدرج السم القاتل فى كلامه لمن لافطنة له بأساس قواعده . ورموه بعظائم الأقوال والأفعال » . وقال ابن العماد : « وأما شعره ففى الذروة العليا من حيث البلاغة لا من حيث الاتحاد ، واتهم بأنه نصيرى ، وهى فرقة غالية (النصيرية) . ولما سمع بهذه التهمة قال : « النصيرى بعض منى » . وقال ابن كثير : « وقد نسب هذا الرجل إلى عظائم الأقوال والاعتقاد فى الحلول والاتحاد والزندقة والكفر وشهرته تغنى عن الإطناب » .

ومع اتهامه بتلك العظائم فى العقيدة كان ذا خلق كريم ، وسماحة نفس ، قال قطب الدين اليونينى : « وكان حسن العشرة ، كريم الأخلاق ، وله حرمة ووجاهة » .

---

(١) شذرات الذهب ٥ — ٤١٣ .

ألف كثيراً من الكتب أغلبها فى علم التصوف على مذهب « وحدة الوجود » مثل « شرح مواقف النفرى » [١] ، و « شرح أسماء الله الحسنى » [٢] ، « وشرح فصوص الحكم » لابن عربى ، وله ديوان شعر معروف مشهور فى زمنه ، ويبلغ فيه الشعر مستوى كبار شعراء عصره ، ويجمع كثيراً من خصائص العصر الفنية والموضوعية . وخاصة الغزل الذى نلاحظ فيه صورة لكل غزل من جنسه ، كقوله :

يشكو إلى أردافه خصرُه ... لو تسمعُ الأمواجُ شكوى الغريقْ
ياردفهُ رقَّ على خصره ... فإنهُ حمِّل مالا يطيقْ

ويقول فى أبيات أخرى :

إن كان قتْلى فى الهوى يتعينُ ... يا قاتلى فبسيْف جفنكَ أهونُ
حسبي وحسبُكَ أن تكونَ مدامعى ... غسْلى وفى ثوب السقام ِ أكفنُ
عجبٌ لخدِّك ، وردةٌ فى بانة ... والوردُ فوق البان مالا يمكنُ
أدنته لى سنةُ الكرى فلثمته ... حتى تبدلَ بالشقيق السوسنُ
ووردتُ كوثر ثغره فحسبتُنى ... فى جنة من وجنتيه أسكنُ
ما راعنى إلا بلالُ الخال ِ فو ... قَ الخدِّ فى صُبح الجبين يؤذِّنُ

ومن غزله ما يمزج معانيه بالمعانى الصوفية المتصلة بمذهبه فى وحدة الوجود كقوله :

وقفنا على المغنى قديماً فما أغنى ... ولا دلَّتْ الألفاظُ منه على المعنى
وكم فيه أمسيْنا وبتْنا بربعه ِ ... حيارى وأصبحنْا حيارى كما بتْنا
فلم نر للغيد ِ الحسان ِ به سنا ... ولولا النَّصارى ما ثملنا ولا ملْنا
ثملنا وملْنا والدموعُ مدامُنا ... من أجل بدر التمّ فى حسنْها أسنا
نُسائل بانات الحمى عن قدودهم ... ولا سيما فى لينها البانةَ الغنَّا

---

(١) النفرى هو عبد الجبار (توفى سنة ٣٥٤هـ) ، وكتابه هو (المواقف والمخاطبات) نشر فى سلسلة جب سنة ١٩٣٥ .

(٢) شذرات الذهب ، ٥ — ٤١٣ ، والبداية والنهاية ١٣ — ٣٢٦ .

ونلثم تربَ الأرض إن قدمتْ بها ... سليمَى ولبنى ، لا سليمَى ولا لُبنى
فلا أسفاً فيه على يوسُفِ الحمى ... ويعقوبُه تبيضُّ أعينه حزْنا
وليس الشَّجى مثل الخلى لأجْل ذا ... به نحنُ نحْنا والغمامُ بنا غنَّا
ينادى مناديهمْ ويصْغى إلى الصَّدى ... فيسألنا عنهمْ بمثلِ الذى قلْنا

وشعره الصوفى أمتن بناء ، وأجود معان ، وإن كنا نلاحظ على أبيات القصيدة السابقة اضطراباً وضعفاً فى السبك ، وربما يرجع بعضه إلى أخطاء النسخ . واصطناع محسنات البديع .

ويقول فى وصف روضة على طريقة المولدين :

رياضٌ بكاها الروضُ فهى بواسمُ ... وناحتْ لغير الحزْن فيها الحمائمُ
وأودعتْ الأنواء فيهنَّ سرَّها ... فنَمَّت عليهنَّ الرياحُ النواسمُ
يبيت الندى فى أفقها وهو ناثرٌ ... ويضْحى على أجيادها وهو ناظمُ
كأن الأقاحى والشَّقيق تقابلا ... خدودٌ يجالِّسها الصِّبا ومباسمُ
كأنَّ بها للنرْجس الغضِّ أعيناً ... تنبَّه منها البعضُ والبعضُ نائمُ
كأن ظلال القضْب فوق غديرها ... إذا اضطربت تحت الرياح الأراقمُ
كأنَّ غناء الورقِ ألحانُ معبْدٍ ... إذا رقصتْ تلك القُدود النواعمُ
كأن نثار الشمْس تحتَ غصونها ... دنانيرُ فى وقت ، ووقتِ دراهمُ
كأن ثماراً فى غصون توسوستْ ... لعارضِ خفَّاقِ النَّسيمِ تمائمُ
كأن القطوفَ الدنياتِ مذاهبٌ ... ففى كلِّ غصنٍ ماس فى الدَّوْح خاتمُ

ويتجه إلى صنعة البديع وخاصة الإغراق فى الجناس والتورية كقوله :

أشتاق من ساكنى الحمى سكناً ... عليه خفق فؤادى قط ما سكنا
ولى غرام وصبر فى محبته ... هذا أقام بأحشائى وذا ظعنا
أطلعتم يا أهيلَ الحى لى قمراً ... بدا على الكون منه بهجةٌ وسنا
سبى عيون محبِّيه الكرى فلذا ... أجفانه لم تزل مملوءةً وسنا
إن قلت غصنٌ تجلى وجهه قمرًا ... أو قلتَ بدرٌ تثنى قدُّه غُصنا

نادى ضنى خصره من يشتري سقماً   منى ليضنى به فى الحبّ قلت أنا
فياغنىّ جمالٍ باتَ مفتقراً   لحسنه البدرُ مالى عن هواكَ غنى

وقال :

لا تلم صبوتى فمَن حبَّ يصبو   إنما يرحمُ المحب المحبُّ
كيف لا يوقدُ النسيمُ غرامى   وله فى ديار ليلى مهب
ما اعتذارى إذا خبتْ لىَ نارٌ   وحبيبى أنوارُه ليس تخبُو

ونقل له صلاح الدين الصفدى قوله :

أسير ولو أن الصباح مواكب   وأسرى ولو أن الظلام قتام
وأغشى بيوت الحى لا مترقباً   وأطرق ليلى والوشاة نيام
إذا لم يكن للصب إقدام صبوة   تحل تلاف النفس وهو حرام
فليس له بين المحبين رحلة   ولا بين هاتيك الخيام مقام

وتوفى عفيف الدين سنة ٦٩٠ هـ ، وقد قارب الثمانين أو جاوزها .

وتتلمذ عليه جماعة منهم محمود بن طى العجلونى (توفى سنة ٧٣٤هـ) . قال الصفدى : «كان فقير الحال ، كثير العيال ، داعية إلى مقالة العفيف التلمسانى ، يحفظ أكثر ديوانه ويناضل عن معتقده ، وأغوى جماعة من أهل صفد ، لكن من الله بإنقاذهم من ضلاله»[١] ، وكان العجلونى هذا يرتزق من شهادة القسم فى خاص السلطان ، وكان له نظم وسط .

وابن العفيف ، المعروف بالشاب الظريف شمس الدين ، شاعر معروف ، له شعر رقيق جيد ، وتوفى فى حياة والده سنة ٦٨٦ هـ[٢] .

---

(١) شرح لامية العجم ٢١٩/١ .

(٢) ترجمته ترد بعد ذلك فى شعراء القرن السابع بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

مذهب عشق الجمال

تقى الدين السروجى

عبد الله بن على بن منجد (توفى سنة ٦٩٣ هـ)

الشيخ الفقير الزاهد الشاعر ، ولد بمدينة سروج بديار مُضَر بالجزيرة الفراتية سنة ٦٢٧ هـ . قال عنـه أبو حيان «كان خيراً عفيفاً تالياً للقرآن . عنده حظ جيد من النحو واللغة والآداب ، مثقلا من الدنيا ، يغلب عليه حب الجمال ، مع العفة التامة والصيانة » .

نظم كثيراً وغنى بشعره المغنون . وكان مأمون الصحبة ، طاهر اللسان ، يتفقد أصحابه لا يكاد يظهر إلا يوم الجمعة .

قال عنه شهاب الدين محمود : « كان يكره مكاناً تكون فيه امرأة ، ويكره من الطعام ما يلمسنه بأيديهن » . وكان يتعشق جمال المرد ، مع تعفف . وله من الشعر فى ذلك قصائد كثيرة . يقول :

دُنيا المحبِّ ودينُـه أحبابـُه ... فإذا جفوْهُ تقطعتْ أسبابهُ
وإذ أتاهمْ فى المحبَّة صادقاً ... كشفَ الحجابُ له وعز جنابهُ
ومتى سقوْهُ شراب أنس منهمُ ... رقتْ معانيه بهمْ وراقَ شرابهُ
وإذا تهتَّك لا يلامُ لأنه ... سكرانُ عشْقاً لا يفيدُ عتابـُه
بعث السلامَ مع النسيم رسالةً ... فأتاهُ فى طىِّ النسيم جوابهُ
قصَد الحِمىوأتاه يُجهدفى السُّرى ... حتى بدتْ أعلامه وقبابُـهُ
ورأى لليْلى العامريَّةِ منزلاً ... بالجودِ يعرفُ والنَّدى أصحابهُ
فيه الأمانُ لمن يخافُمن الورَى ... والخيرُ قد ظفرتْ به طلاَّبهُ

وفيما وقفنا من شعر السروجي نلاحظ تعلقه بالجمال الحسى ، فى الغلمان خاصة ، وإن لم نعدم غزله فى النساء ، على ماورد فى أخباره من كراهيته لهم . وهو يرى فى الجمال الحسى صورة من جمال الحق ، فهو يتعبد له ويتزلف مباشرة دون تجرد أو رمز ، وربما كان هذا فرقاً بينه وبين غيره من عشاق الصوفية ، من أصحاب الوجد ، على ما بينا عند الخيمى وابن الفارض ، وإن جمعت بينه وابن إسرائيل بعض المعانى ، ولكنه مخالف فى مجموعه . وتراه يتأمل فى الجمال الحسى تأملا سافراً فيقول متلاعباً باللفظ :

بالجانبِ الأيمنِ من خدِّها نقطةُ مسكٍ أشتهى شمَّهـا
حسبتُـه لمـا بدا خالهـا وجدتُـه من حسنه عَمَّهـا

فيورى فى كلمتى " خالهـا " و " عمها " على طريقة المصريين فى تلاعبهم بالتورية .

ويغرم السروجي بفتيان الأويراتية بحى الحسينية لمـا اشتهروا به من حسن فيقول :

يا ساعى الشوق الذى مذ جرى جرت دموعى فهى أعوانه
خذ لى جواباً عن كتابى الذى إلى الحسينية عنـوانه
فهى كما قد قيل وادى النقا وأهلها فى الحسن غزلانه
امش قليلا وانعطف يسرة يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب باب الذى بحسنه تحسن جـيرانه
سلم وقل بحسن قول له عندى حديث طال كتمانه

وقد يلفت ناظره ويعلقه جمال عابر فيتأمله ويقبل عليه . ويروى أنه رأى زفة مليح فقال :

عاينت في بارحتى زفة قضيت فيها كل أوطارى
وشمعها مثل نجوم الدجى محيطة بالقمر السارى
ما زلت مذ عاينتها قائلا يا ليتها كانت إلى دارى

وقد عشق السروجي فيما يروون فتى وتدله في حبه ، وكان ابن أحمد مريديه ، فحدث أن مات الصبي قبل الشيخ ، فلما مات الشيخ دفنه أبوه إلى جانب ولده في قبره ، وقال : والله ما أدفنه إلا في قبر ولدى لأنه كان يهواه ، وما أفرق بينهما لما كان يعتقده فيه من دينه وعقيدته وعفافه .

وربما نظم السروجي بعض المعاني العامية ، أو استخدمها في شعره ، كقوله :

ياريِّس الحبِّ أدركني فقد رَحلت مراكبُ الحبِّ بي في بحر أشْواقِ
ولي بضاعةُ صبرٍ ضاعَ أكثرُها وقد علانا الهوَى يستغرق الباقِي

ومنه قوله :

مد لى من أحبُّ حبلَ صدودٍ حين أوْهى تجلُّدى واصطبارى
ثم قال امش لى عليه سريعاً كيف أمشي وما أنا باختيارى

ونجده يستخدم بعض معاني الإدارة والدواوين ، مثل قوله :

خدمت لذاك الوجه للثغر ناظراً لعلى أمسى والياً من ولاته
وأصل حسابي ضبط حاصل وصله وتقبيله مستخرج من جهاته

ونظم كغيره الموشحات ، وطعمها بالعامية ، والمتداول من التعبيرات الجارية على ألسن الناس مثل وحق النبي ، كقوله في قفل :

إن طال شوقى وزاد وجدى فإنني عاشـــق صبـــو ر
اسمع حديثي بقيت بعدى أنا وحق النبي غيـــور

ودخلت أشعاره وخاصة موشحاته بعض ألفاظ النحو واصطلاحاته ، لأنه كما قيل كان يشتغل بهما . قال أبو حيان : « وكان ينكر على

المفضل والمتنبي وصاحب المقامات " الحريري " ، ويستحضر حظًّا كبيراً من صحاح الجوهري » . ويقول : « وكان عنده حظ جيد من النحو واللغة والآداب »[١] يقول فى موشحة له :

أقسام هجرانه لعشق ماض ومستقبل وحال
خاطرت فى حبه بنطق إذ قلت لا بد من وصال

(١) فوات الوفيات ١/٤٦٦ .

أصحاب الطريق

البوصيرى

محمد بن سعيد بن حماد الدلاصى (٦٠٨ – ٦٩٥ هـ)

وينسب إلى صنهاجة ، فهو إن كان مغربى الأصل ، لكن آباءه استوطنوا قرية دلاص أو بوصير ويقال إن أحد والديه من بوصير والآخر من دلاص ، ولهذا ينسب مرة إلى الأولى فيقال البوصيرى وينسب إلى الثانية فيقال الدلاصى . وله نسبة ثالثة مركبة منهما معًا هى الدلاصيرى ؛ لكنه اشتهر بالبوصيرى .

ولم يكن من شعراء التصوف المبرزين فيه مذهباً أو وجداً وتغنياً ، لكنه نظم بعض المدائح النبوية التى تظهر اتجاهاً صوفيًّا على طريقة أبى الحسن الشاذلى ، فقد كان أحد تلاميذه . وصحب أبا العباس المرسى بالإسكندرية فترة وتوفى بها .

وتفقه بمصر والتحق بالخدم الديوانية قبل التحاقه بشيخيه الشاذلى والمرسى ، فقد عمل بديوان الإنشاء ، وعانى الكتابة والتصوف ، وباشر الشرقية ، مستقرًّا ببلبيس ، وله قصيدة مشهورة فى مباشرى بلبيس ، يسخر فيها منهم ، ويشهر بهم وبأخذهم الرشاوى . يقول فى مطلعها :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو رجلاً أمينا

قال المقريزى : « وكان البوصيرى وابن عطاء الله السكندرى تلميذين لأبى العباس المرسى » ، فخلع على البوصيرى " لسان الشعر " ، وعلى

ابن عطاء الله صاحب الحكم " لسان النثر "[١] .

قال ابن شاكر : « شعره فى غاية الحسن واللطافة ، عذب الألفاظ ، منسجم التركيب »[٢] .

وقال ابن العماد : « برع فى النظم . قال فيه ابن سيد الناس : « هو أحسن من الجزار والوراق »[٣] .

قال السيوطى : « ومن سبر شعره علم مزيته ، وما أحسن قوله فى افتتاح ديوانه :

كتب المشيب بأبيض فى أسود　　　بقضاء مابينى وبين الخرّد

وديوانه مطبوع مشهور » .

ويبدو على شعره طابع الرقة وخفة الروح والميل إلى الدعابة فى غير الموضوعات الدينية . وهو قريب فى غير شعره الدينى من روح شعراء المصريين فى عصره ممن عرفوا بالظرف وخفة الروح أمثال البهاء زهير وابن مطروح ، والحسين الجزار ، والسراج الوراق .

ويمكن تقسيم شعره إلى قسمين أساسيين ، الأول شعره الاجتماعى ، فى المديح والهجاء وشكوى الحال ، وما إلى ذلك من أمور الحياة والعيش ، والثانى فى المدائح النبوية . والأول بسيط فى روحه وأسلوبه قريب إلى الروح الشعبي لغة وتعبيراً يمتزج بخفة روحه وظرفه ، والثانى قوى رصين ، بدوى الصياغة يميل فيه إلى التقليد للقدماء فى تعبيراتهم وصورهم المشتقة من حياة الجزيرة الصحراوية ، وحياة البدو الرحل ، وتكثر بالضرورة أسماء بقاع الجزيرة المشهورة التى تداول ذكرها شعراء الحجاز وشعراء المدائح النبوية .

ومثال القسم الأول قصيدته فى موظفى الشرقية ومستخدميها ، ويختمها بتحريض الوزير وأمير الشرقية عليهم لردعهم . يقول :

---

(١) الخطط للمقريزى ١ / ٨ .

(٢) فوات الوفيات ٢/٣١٤ .

(٣) شذرات الذهب ٥ / ٤٣٢ .

أمولاى الوزير غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك مَعشرٌ منهم وعُدوا ... من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب ... وقد ملئوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة وخان كل ... أمانته ، وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون لنا حقوق ... بها ، ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر ... وإن سواهمُو هُمْ غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا
وما قطنيةٌ إلا شريكٌ ... لهم فى كلٍّ ما يتخطَّفُونا
أغار على قرى فاقوس منه ... بجورٍ يمنع النوم الجفونا
وصير عينها حملاً ولكن ... لمنـــزله وغلتها طحينا
وأصبح شغله تحصيل تبر ... وكانتْ راؤُهُ من قبلُ نُونا
وفى دار الوكالة أىُّ نهب ... فليتك لو نهبتَ الناهبينا
فقام بها يهودىٌّ خبيثٌ ... يسومُ المسلمينَ أذى وهونا
إذا ألقى بها موسَى عصاهُ ... تلقفت القوافل والسفينا

وبعد أن أورد ابن شاكر أبياتاً من هذه القصيدة أعقبها بقوله : « وهى طويلة للغاية ، وقد اختصرت من أبياتها كثيراً . وقال فى الموظفين قصيدة أخرى رائية يحرض كذلك عليهم أحد أمراء المماليك :

فلا تدْن منهمْ واحداً منك ساعةً ... ولو فاحَ من برديه مسكٌ وعنبرُ
وبرد فؤادى بانتقامك منهمو ... فقد كاد قلبى منهمو يتفطر
منعت بهم حظى شهوراً ولم أصل ... إلى حظهم حتى مضت لى أشهر
أما فيهم — لا بارك الله فيهم — ... أخو قلم إلاَّ يخونُ ويغدرُ

والقصيدة النونية بسيطة فى تعبيرها ، يخزنه البناء السوى فيها أحياناً ، بل كثيراً ، ولا يبدو عليه تكلف النظم والصنعة ، وكأنما أرادها سهلة

يسيرة لتجرى على كل لسان ، وقد كان له ما أراد فاشتهرت . ولا ينبغى أن ننظر إليها بمقاييس الشعر الفنى وإلا حكمنا عليها ، إنما هى على أية حال تصور جانباً من حياة مجتمع الشاعر ، وأحوال الموظفين فى عصر المماليك ، وربما انطبقت بعض أحوالهم مع بعض أحوال موظفى عصرنا هذا فى القرن العشرين فى مصر . كذلك تكشف عن مدى استغلال كتاب الأقباط ، واليهود لوظائفهم فى الحسابات والشئون المالية للسرقة والاختلاس .

ومن شعر البوصيرى ما يتحدث عن أحواله الخاصة ، كتلك القصيدة التى يعرض فيها شكواه على أحد الوزراء ويشكوه حاله وفقره وكثرة عياله . فيقول :

يا أيها المولى الوزير الذى ... أيامه طائعة أمرَهْ
ومن له منزلة فى العلا ... تكلّ عن أوصافها الفكرَهْ
إليك نشكو حالنا إننا ... حاشاك من قوم أولى عُسرهْ
فى قلة نحن ولكن لنا ... عائلة فى غاية الكثرهْ
صاموا مع الناس ولكنهم ... كانوا لمن أبصرهم عبرهْ
إن شربوا فالبئر زيرٌ لهمْ ... ما برحتْ ، والشربة الجرهْ
لهم منَ الخُبيِّز مصلوقةٌ ... فى كلِّ يومٍ تشبه النشرهْ
أقول مهما اجتمعوا حولها ... تنزّهوا فى الماء والخضرهْ
وأقبل العيد وما عندهم ... قمحٌ ولا خبزٌ ولا فطْرهْ
فارحمْهُمو إن عاينوا كعكة ... فى كفِّ طفلٍ أو رأوا تمرَهْ
تشخَص أبصارُهم نحوها ... بشهْقة تتبعها زفرَهْ
كم قائل يا أبتا منهمو ... قطعت عنا الخير فى كرَّه
ما صرت تأتينا بفلس ولا ... بدِرْهم ورق ولا نقرهْ
وأنت فى خدمة قوم فهل ... تخدمهم يا أبتى سخْره
ويوم زارت أمُّهم أختها ... والأختُ فى الغيرة كالضرّهْ
وأقبلتْ تشكو لها حالها ... وصبرها منى على العشرهْ

قالت لها كيفَ تكونُ النِّسا ... كذا مع الأزْواج يا عرَّهْ
قومى اطلبى حقَّكِ منهُ بلا ... تخلُّفٍ منكِ ولا فترهْ
وإن تأبى فخُذى ذقْنهُ ... أو انتفها شعرةً شعْرهْ
قالت لها ما هكذا عادتى ... فإنَّ زوْجى عنده ضجْرهْ
أخاف إن كلَّمته كلْمةً ... طلَّقنى . قالت لها بعْرهُ
وهوَّنتْ قدْرىَ فى نفْسها ... فجاءت الزوجةُ مُجْترَهْ
فقـــاتلتنى فتهدَّدْتهـــا ... فاستقْبلت رأسى بآجرَّهْ
وحقّ منْ حالتُه هذه ... أن ينْظر المولى لهُ أمرَهْ

ونلاحظ على هذه الأبيات تأثراً بالروح الشعبية المصرية ، فكثير من التعبيرات جارية على ألسنة الناس حتى الآن . وتمثل البوصيرى حديث النسوة وما يجرى بينهن فى مثل تلك الأحوال . ونراه من ناحية أخرى متأثراً بذلك الاتجاه الشعبى الذى عبر عنه الشمقمق وابن الرومى وغيرهما على تباعد ما بينه وبينهم ، وفى مبالغة فى تصوير الشقاء والفقر . وشارك البوصيرى فى مناسبات عصره الكبيرة بقصائد مختلفة ، منها بناء وافتتاح المارستان المنصورى والقبة المنصورية ، التى جمعت مدرسة وداراً للحديث . يقول[1] :

ومدرسة ود الخورنق أنَّهُ ... لديها حظير والسدير غدير
مدينة علم والمدارس حولها ... قرى أو نجوم بدرهن منير
تبدَّتْ فأخفى الظاهرية نورُها ... وليسَ بظُهر للنجوم ظهورُ
بناء كأن النَّحل هندس شكْله ... ولانت له كالشمع فيه صخورُ
بناها سعيدٌ فى بقاع سعيدةٍ ... بها سعدتْ قبل المدارس دورُ
ومن حيثما وجهتَ وجهكَ نحوها ... تلقتْك منها نضرةٌ وسرورُ
إذا قامَ يدعو الله فيها مؤذِّنٌ ... فما هوَ إلا للنجومِ سميرُ

(١) الخطط للمقريزى ٢ — ٤٠٨ .

وقال فى الرثاء ، ومنه رثاء الوزير الخطير الصاحب بهاء الدين محمد ابن على المعروف بتاج الدين بن حنا عند وفاته سنة ٦٦٨ هـ . وكانت له به صلة .

نم هنيئاً محمد بن على   بجميل قدمت بين يديكا
لم تزل عوننا على الدهر حتى   غلبتنا يد المنون عليكا
أنت أحسنت فى الحياة إلينا   أحسن الله فى الممات إليكا

قال المقريزى : « إن الناس تباكوا عند سماعها ، وكان لها محل كبير فيمن حضر »[1] .

ومن ظريف قوله مما يدل على ميله للدعابة، وخفة الروح عليه ظاهرة ، ويذكرنا بدعابات البهاء زهير والحسين الجزار والوراق وغيرهما ، قوله فى حمارة له ، وهو شعر يذكرنا بقول البهاء زهير فى بغلة صاحبه ، أو مسلم ابن الوليد من قبل فى برذون ، أو قول الحمدونى فى الشاة التى شهرها .

قال ابن سيد الناس كان للشيخ شرف الدين البوصيرى حمارة استعارها منه ناظر الشرقية فأعجبته فأخذها ، وسير له ثمنها مائتى درهم ، فكتب على لسانها إلى الناظر المذكور :

المملوكة حمارة البوصيرى :

يا أيها المولى الذى أثبتتْ   أخلاقُه بأنه الفاضـــلُ
ماكان ظنى أن يبيعوننى   قطُّ ولكن صاحبى جاهلُ
لو جرّسوه علىّ من سفه   لقلتُ غيظاً منه يستاهلُ
أقصى مرادى لو كنتُ فى بلدىً   أرعى به إلى جانب السّاحل
وبعد هذا فما يحلُّ لكم   لأننى من سيدى حامل

« فردها الناظر ولم يأخذ الدراهم منه » .

ويبدو أن البوصيرى أغرم بالحمير غرام البهاء زهير ببغلة صاحبه ، فجاء فيه من الشعر الساخر الفكه مثل ما جاء فى غيره من حيوان شعر السابقين ، كبرذون مسلم بن الوليد ، أو شاة الحمدونى :

---

(١) الخطط ٢ — ٢٩٩ .

قال البوصيرى فى تعزية أديب معاصر بموت حماره :

فلا تيأسنْ أيهذا الأديبُ عليه فللموت ما يولَدُ
إذا عشتَ أنت لنا بعدَه كفانا وجودُك ما نفقدُ

وله سوى هذا بعض الشعر الخفيف الدعابة كذلك الذى قاله على لسان فتاة راودها عن نفسها فأنكرت شيبه وضعفه . قال :

أهوًى والمشيبُ قد حال دونه والتَّصابى بعدَ المشيب رعونهْ
أبت النفسُ أن تطيع وقالتْ إنَّ حُبى لا يدخل القنِّينهْ
كيف أعصى الهوَى وطينةُ قلبى بالهوَى قبل آدمٍ معجونهْ
سلبته الرُّقاد بيضةُ خدْرٍ ذاتُ حسنٍ كالدرة المكنونهْ
سمتها قبلةً تسرُّ بها النفسُ فقالتْ : كذا أكونُ حزينهْ
قلت لا بد أن تشيرى إلى الدا ر فقالت : عسى أنا المجنونه
قلت سيرى فإنَّنى لك خير من أب راحم وأم حنونه
أنا نعم القرين إن كنت تبغ ين بعلاً وأنت نعم القرينه
قالت : اضرب عن وصل مثلى صفْحاً واضرب الحل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسَّنى يدُ شيخ كيف أرضى به لطشْتى مشينهْ
قلت إنى كثيرُ مالٍ ، فقالتْ هبْك أنتَ المبارزَ القارونهْ

وقد أشرنا إلى أن مثل هذا الشعر شعبى الروح لا يميل فيه إلى الرصانة ، ويشارك غيره فى هذه الروح والأساوب من شعراء المصريين فى القرنين السابع والثامن .

المدائح النبوية :

وتجرى مدائحه النبوية على نسق مختلف من شعره الاجتماعى والفكاهى شعبى الروح والأساوب . وتدل هذه المدائح وما يماثلها من شعره الجاد على استيعابه لقدر من الشعر القديم والمعرفة باللغة وأسرار النظم التقليدى . ومدائحه النبوية ثلاثة هى :

البردة ، ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وهمزيته التى مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طالعتها سماء

واللامية التى يعارض فيها كعب بن زهير ويقول فى أولها :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ماقدمت مسئول

وقد نظم البوصيرى البردة بعد أن رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام . وجعل حبه للرسول نغماً يشدو به ، فيصلى عليه ويتبتل لله تعالى ، ويبتهل ، ويستخدم تعبيرات الصوفية ومعانيهم وتأتى الصلاة على النبى فى مطلع معانيه ، وتتكرر فى البردة بصورة ملحوظة ، فيطلب الشاعر مبتهلاً إلى ربه أن يصلى ويسلم على نبيه الكريم . يقول :

مولاىَ صلِّ وسلِّمْ دائماً أبداً على حبيبك خيرِ الخلْق كلِّهم

وتعوَّد الصوفية فى حلقات أذكارهم وإنشادهم أن يكرروا هذا البيت عند إنشاد البردة ، مضافاً إليه قوله :

فمبلغُ العلم فيه أنهُ بشرٌ وأنهُ خيرُ خلْق الله كلِّهم

كل حين . ونقل البوصيرى كثيراً من معانى المديح والنسيب المتداولة فى الشعر العربى وطورّها بما يناسب مقام النبوة ، كقوله :

لا طيبَ يعدلُ ترباً ضمَّ أعظمهُ طوبى لمنتشقٍ منه وملْتثم

وقوله :

أكرم بخلْق نبىٍّ زانه خلُقٌ بالحسنِ مشتملٌ بالبشر متَّسمِ
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف والبحر فى كرم والدَّهر فى هممِ
كأنه وهو فردٌ فى جلالتهِ فى عسكر حين تلقاه وفى حشمِ

ولا يخلص البوصيرى فى مدائحه من سمات عصره فى فن الشعر ، بل تترك هذه السمات آثارها على أسلوبه وصياغته ، فيستخدم التورية ، ومصطلح العلوم التى تعلق بها الفقهاء فى أشعارهم ومنظوماتهم . يقول :

خفَضْتَ كلَّ مقامٍ بالإضافة إذ نوديتَ بالرَّفع مثلَ المفْرد العلمِ

وربما بدا هذا البيت ثقيلاً بمصطلح النحو ، والتورية ، فى أذواق عصرنا ، ولكنها كانت مستملحة عند معاصريه .

ويقول البوصيرى إنه كلما شرع فى المديح انثالت عليه معانى الشعر ، وقوى باعه وفاضت قريحته فأصبح يساجل الشعراء ، ويسلم له الشعر قياده . يقول فى الهمزية :

حق لى فيك أن أساجل قوماً سلمت منهمُ لدلوى الدلاء
إن لى غيرة وقد زاحمتنى فى المعانى بمديحك الشعراء
ولقلبى فيك الغلو وإنى للسانى فى مدحك الغلواء

والمعانى الصوفية ليست ظاهرة فى مدائحه ظهورها فى البردة ، وقد أغفلت البردة نفسها ذكر بقية المدائح ، وغطت عليها . وظهرت المعانى الصوفية ظهوراً قوياً فى الجزء الأخير من البردة حيث يتوسل بالرسول صلوات الله عليه ، فيقول :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بى إذا الكريم تجلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ومهما يكن من أمر فإن مديح البوصيرى النبوى يدور حول العقيدة الصوفية والحقيقة المحمدية وصوفيته كانت موضع جدل كثير وتساؤل ، ويبدو أنه لم يأخذ بأسباب الطريق الصوفى إلا فى أخريات حياته ، إذ التقى

بالشاذلى والمرسى بالإسكندرية . وكان نظم البردة فى تلك المرحلة وارتفع بها شأنه بين رجال الصوفية ، وذكرت له مناقب كثيرة ، منها أنه بلغ مقام الغوثية ، وهو مقام جليل فى مراتب الصوفية كما ذكرنا . ويقولون إنه كان متى مشى فى الشوارع أسرع إليه الناس يقبلون يديه حتى الصغار . وكانت تنبعث من جسده رائحة طيبة .

فهو فى صوفيته تابع للشاذلى ، ولم يكن صاحب اتجاه بعينه ، ولم نجد فى شعره ما يعبر عن أى لون ، سوى معانى الصوفية من أصحاب الطريق .

الباب السابع

الفنون والملاهى

شهد العصر المملوكى ازدهاراً فى الفنون وضروب اللهو نتيجة ما شهدته البلاد من رواج ، وما تدفق فيها من ثروة حصيلة الاتصالات الراسعة بين مصر والشام وسائر بلاد المشرق والمغرب ، ولمرور تجارة الشرق فى البلاد التى تقع تحت سيطرة المماليك فى الشام أو فى مصر عبر النيل وبطريق البحر الأحمر .

وكانت التجارة قائمة مع أوربا ودولها التجارية النشطة فى إيطاليا وجزر البحر المتوسط ، كما كانت التجارة نشطة كذلك بينها وبلاد المشرق الأقصى الواقعة تحت سلطان التتار . وورثت مصر حضارة العرب والمسلمين الزاهرة فى بغداد .

ومما ساعد على ازدهار الفنون ذلك الاختلاط الكبير بين العناصر المختلفة فى مصر والشام وإقبال الناس على الدنيا ، وخاصة الأثرياء منهم ، الذين يملكون كل شىء ، من مال وسلطان ؛ وجاه .

وصارت القاهرة عاصمة المماليك عروس الشرق باتساعها وعظمتها وجمال مبانيها وجلال قصورها ، وازدحامها بالناس من كل جنس ولون . قال القلقشندى: « ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها خصوصاً بعد خراب الفسطاط ، وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا من القصور العلية والدور الضخمة ، والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة ، والمناظر النزهة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائقة ، والخوانق الفاخرة مما لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من

الأمصار . وغالب مبانيها بالآجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، مؤزرة الحيطان ، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة ، وكلها ، أو أكثرها مبيضة الجدر بالكلس الناصع البياض ، ولأهلها القوة العظيمة فى تعلية بعض المساكن على بعض حتى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض ، فى كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها ، وأسطحها مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة وصناعة عجيبة » . وقال ابن فضل الله العمرى فى هندسة العمارة بمصر آنئذ « لا يرى مثل صناع مصر فى هذا الباب » .

قال القلقشندى : « وبظاهر القاهرة البساتين الحسان والمناظر النزهة والآدر المطلة على النيل ، والخلجان الممتدة منه ومن مده ، بها المتنزهات المستطابة ، خصوصاً زمن الربيع ، لغدرانها الممتدة من مقطعات النيل وما حولها من الزروع المختلفة ، وأزهارها المائسة التى تسر الناظر وتبهج الخاطر »[1] .

قال العمرى فى المسالك : « أخبرنى غير واحد ممن رأى المدن الكبار أنهم لم يروا مدينة اجتمع فيها من الخلق ما اجتمع فى القاهرة » . وقال فى « التعريف بالمصطلح الشريف » : « والقاهرة اليوم أم الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهى فى وقتنا دار الخلافة ، وكرسى الملك ومنبع الحكماء ، ومحط الرحال » .

وروى القلقشندى عن ابن الأثير فى عجائب المخلوقات قوله : « وأجمع المسافرون براً وبحراً أنه لم يكن أحسن منها منظراً ، ولا أكثر أناساً ، إليها يجلب ما فى سائر أقاليم الأرض من كل شىء غريب ، وزى غريب » .

« وكان من أجمل عمائر القاهرة فى دولة المماليك الأولى قصور المماليك بالقلعة ، ومن أجملها القصر الذى بناه السلطان الناصر محمد بن قلاوون ،

(١) صبح الأعشى ٣٧١/٣ .

واسمه " الأبلق " ، ويجلس به السلطان فى عامة أيامه ، ويدخل فيه أمراؤه وخواصه ، واستجد به الأشرف شعبان مقعداً بإزاء الإصطبل جاء فى نهاية الحسن والبهجة »[١] .

ومن قصور القلعة الإيوان الكبير الذى يجلس به السلطان فى أيام المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل . وللقلعة ثلاثة أبواب : بابٌ ناحية المقطم ، وهو غير مطروق كثيراً ، وباب السر ، يدخل منه السلطان وخاصة الأمراء والوزراء ، وباب رئيسى يدخل منه بقية الأمراء والناس . ويفتح هذا الباب الرئيسى فى ساحة فسيحة تؤدى إلى قاعة تسمى الدركاه ، يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، ويتصدر هذه الدركاة باب يقال له باب « القلة » يدخل منه إلى دهاليز فسيحة على يسرة الداخل منها باب يتوصل منه إلى جامع الخطبة « جامع السلطان الناصر » ، قال القلقشندى : « وهو من أعظم الجوامع وأحسنها وأبهجها منظراً وأكثرها زخرفة ، متسع الأرجاء مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام الفائق ، مبطن السقوف بالذهب ، فى وسطه قبة مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة ، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك من حديد محكمة الصنعة يحف بصحنه رواقات من جميع جهاته ، ويتوصل من هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحريم السلطانية »[٢] .

ويصف القلقشندى الإيوان الكبير الذى يجلس به السلطان وقت عمله الرسمى ، فيقول : « وهو إيوان عظيم عديم النظير ، مرتفع الأبنية ، واسع الأفنية ، عظيم العمد ، عليه شبابيك حديد عظيمة الشأن ، محكمة الصنعة ، ويتصدره سرير الملك ، وهو منبر من رخام مرتفع ، يجلس عليه السلطان فى أيام المواكب العظام لقدوم رسل الملوك ونحو ذلك »[٣] .

---

(١) صبح الأعشى ٣/٣٧٣ .
(٢) صبح الأعشى ٣/٣٧٤ .
(٣) المصدر نفسه .

ومن قصورهم الفارهة القصر الأبلق ، سكن السلطان ، وهو قصر عظيم البناء شاهق فى الهواء به إيوانات من جهتى الشمال والجنوب ، أعظمها الشمالى ويطل منها على الاصطبلات السلطانية ويمتد النظر منهما إلى سوق الخيل والقاهرة والفسطاط وحواضرها إلى مجرى النيل ، وما يلى ذلك من بلاد الجزيرة والجبل وما إليها ، ويتصدر دهليز القصر منبر من رخام كالذى فى الإيوان يجلس عليه السلطان أحياناً .

ويلى هذا القصر الأبلق ثلاثة قصور جوانية ، واحد منها مسامت لأرض القصر الكبير ، واثنان مرفوعان يصعد إليهما بدرج . فى جميعها شبابيك من حديد تشرف على ما يشرف عليه القصر الكبير ، ويدخل من القصور الجوانية إلى دور الحريم ، وأبواب الستور السلطانية .

وكانت هذه القصور السلطانية كلها فى ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر ، وداخلها مؤزّر بالرخام ، والفص المذهب المشجر بالصدف وأنواع الملونات والسقوف المبطنة بالذهب واللازورد تخرق للضوء ، فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرصى الملون كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود، وجميع أرضها مفروشة بالرخام المنقول من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله .

وعلى نسق قصور السلاطين فى هندسة العمارة وجمالها وبهائها تكون قصور الأمراء وكبار رجال الدولة وأثرياء التجار .

وكانت أدواتهم وفرشهم وملابسهم قطعاً فنية جميلة الصنع أبدع فنيو القاهرة وصناعها المهرة فى توشيتها . وقد اشتهرت القاهرة فى عصر المماليك بصناعات فنية سارت بذكرها الركبان ، وحملتها قوافل التجارة إلى أقاصى المعمورة ، كالآنية الزجاجية المصنوعة من الزجاج المعدنى الملون والمنقوش بالنقوش الجميلة القيمة ، والمزخرفة بالزخارف النباتية والحيوانية ، والخطوط الهندسية المتسقة الرشيقة . كذلك اشتهرت القاهرة بآنيتها النحاسية المكفتة بأنواع الميناء الملون .

وقد ورث المماليك التصوير على الجدران والآنية ، وعلى صفحات

الكتب ، وكانت صورهم تحوى عناصر بشرية ونباتية وحيوانية إلى جانب الخطوط الزخرفية الأرابسك .

وكانت صناعة النسيج بألوانها الزاهية لا تزال مزدهرة فى تنيس وغيرها من المدن المصرية كما كانت شهرة القباطى المصرية ذائعة فى أنحاء العالم العربى والإسلامى إلى جانب رواجها فى أسواق أوربا والمشرق الأقصى .

وامتزجت فى النقوش والأصباغ والمنسوجات المصرية الطرز العربية الإسلامية والقبطية . وعلى أية حال ، فإن الفنون التشكيلية المصرية كما ظهرت فى العمارة والآنية والمنسوجات بلغت حداً كبيراً من الإتقان والمقدرة الفنية، كما عكست ترفاً ، ورقة فى أذواق العصر عامة ، بلغ حداً رفيعاً . وربما كانت هذه الفنون التشكيلية غير كافية لتعكس صورة المزاج الفنى للعصر ، ما لم نضمها إلى مظاهر أخرى للنشاط الإنسانى كعادات الناس فى المطعم والمشرب ، واللهو أو النشاط الفنى الترفيهى الذى تبرز فيه فنون الغناء والرقص والموسيقى .

ولم يدخر المماليك وسعاً فى تجميل عاصمتهم القاهرة ، وجلب الفنيين والمهرة فى كل فن وصنعة من أنحاء العالم إليها ؛ يقول المقريزى : « استقدم المماليك المهندسين المعماريين من الأنحاء . فقدم فى عصر الناصر مهندس معمارى من أهل توريز ، بنى منارتى جامع قوصون خارج باب زويلة »[١] .

وكان موقف الدين من الفنون متسماً بالحذر الشديد وخاصة ما كان منها متصلا بتصوير الإنسان والحيوان . ويبدو أن انتشار تلك الصور فى القصور على الجدران والأسقف وعلى الأرض وعلى اللباس أقاق بعض الفقهاء ، حتى إن السبكى جعل منها قضية فقهية ، يقف العلماء فيها على خلاف بين التحريم ، أو الكراهة ، أو الإباحة . قال السبكى : « وعلى المصور ألا يصور بصورة حيوان لا على حائط ، ولا آلة من الآلات ، ولا على الأرض . وأجاز بعضهم التصوير على الأرض ونحوها ، قال : والصحيح خلافه »[٢] .

---

(١) السلوك ٢/٣٢٠ .

(٢) معيد النعم ١٩٢ .

ولم يعبأ المماليك ولا عامة الناس بموقف العلماء وأقوالهم ، بل مارسوا هواياتهم فى التصوير والاستمتاع به فى الدور والآلات ، والملابس وغيرها ، حتى بلغ ذلك الأمر مبلغه ، وراجت سوق الصناع والفنانين الذين يتقنون هذه الأشياء . قال ابن تغرى بردى وهو يتحدث عن ذلك الموضوع فى عصر الأشرف شعبان : « ومشى سوق أرباب الكمالات فى زمانه فى كل علم وفن ، ونفقت فى أيامه البضائع الكاسدة من الفنون والملح ، وقصدته أربابها من الأقطار ، وهو لا يكل من الإحسان إليهم فى شيء يريده وشيء لا يريده ، حتى كلمه بعض خواصه فى ذلك فقال : « أفعل هذا لئلا تموت الفنون فى دولتى وأيامى »[١] .

وتقدم المماليك والأمراء صفوف الشعب فى الإقبال على الفنون ، وضروب الملاهى ، ومتع الحياة ولذاتها ، من ذلك ما قيل من أن السلطان حسن كان ينصب خيمته فى بر الجيزة وقت الربيع ويعيش هناك فى أرغد عيش ، وعنده كل ليلة « مغانى عرب » ، و « خيال ظل »[٢] .

قال ابن إياس : « وكان السلطان حسن يميل إلى اللهو والطرب ، وشرب الراح ، مولعاً بحب الملاح ، لا يمل من شرب الراح وسماع الغناء ليلا ولا نهاراً »[٣] .

وكان السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون محباً كذلك للهو مقبلا على النساء والمطربين . وبنى قاعة الدهيشة بالقلعة ، وجلس السلطان فيها وبين يديه جواريه وخدمه وحرمه . واتخذت هذه القاعة مثابة للهو وسماع الغناء والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى . قال ابن تغرى بردى : « إن السلطان الصالح عندما أنجب ولداً ذكراً من المغنية السمراء " أتفاق " عمل لها فيها حفلاً بلغ الغاية »[٤] .

---

(١) النجوم الزاهرة ١١/٨٢ .

(٢) تاريخ ابن إياس ٢٠٩ .

(٣) ابن إياس ٢٠٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ١٠/٩٦ .

وكان للهزل ، والفنون الفكاهية ، نصيب فى خيال الظل ، وهو ما سنفرد له الحديث بعد ، وفى المضحكين ، الذين يتقنون التقليد وإتيان ضروب من الحركات الهزلية لتسرى عن أنفس المشاهدين . وكان بعض الرؤساء يتخذون من هذا التمثيل الهزلى أسباباً للوقيعة ببعض الناس عند السلطان .

وكان حب الموسيقى والغناء كما اتضح من فقرات سابقة غالباً على المماليك والناس، حتى إن ثلاثة ملوك إخوة تنافسوا فى حب مغنية سمراء هى « اتفاق » لم يكن جمالها وحده هو الحافز على ذلك العشق بقدر ما كان غناؤها وحلاوة صوتها . وكانت اتفاق هذه تغنى وتضرب على العود ، وروى أن الصالح إسماعيل أحد السلاطين الإخوة الثلاثة الذين تدلهوا فى حبها عبر لها عن محبته بأن اشترى لها عصبة مرصعة بالجواهر بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار مصرية .

وأفاض المؤرخون المصريون فى ذكر أخبار « اتفاق » هذه ، ومكانتها لدى السلاطين ، فقال ابن تغرى بردى : « هى حظية السلطان الصالح إسماعيل ، وشعبان ، وكانت جارية سوداء حالكة السواد ، اشترتها ضامنة المغانى بدون الأربعمائة درهم من ضامنة المغانى بمدينة بلبيس ، وعلمتها الضرب بالعود على الأستاذ عبد على العواد ، فمهرت فيه ، وكانت حسنة الصوت ، جيدة الغناء ، فقدمتها لبيت السلطان ، فاشتهرت فيه حتى شغف بها الملك الصالح إسماعيل فإنه كان يهوى الجوارى السودان ، وتزوج بها ، ثم لما تسلطن الملك الكامل شعبان أخوه باتت عنده من ليلته لما كان من نفسه منها أيام أخيه . ونالت عندهما الحظ والسعادة مما لم يعرف فى زمانها لامرأة »[1] . قال : قالوا ولم تكن جميلة ، وإنما تقدمت بالغناء .

ولما جاء إلى السلطنة ثالث الإخوة حاجى ، بادر بمصادرتها ، ثم عاد فبعث إليها ، فطلعت بجواريها مع الخدام إلى القلعة ، وتزوجها السلطان خفية .

---

(١) النجوم الزاهرة ١٠/١٥٠ .

ومن الموسيقيات فى العصر العوادة « خوبى » وكانت كما يقول ابن حجر[١] مغنية فائقة فى ضرب العود ، فاشتراها بكتمر الساقى بعشرة آلاف دينار مصرية ، ويقال إنه لم يدخل مصر لها نظير . ولما مات بكتمر فى طريق الحجاز ، فبلغها ، كسرت عودها ثم باعها الناصر لبشتاك بستة آلاف دينار ، فدخلت عليه ومعها من الأمتعة أضعاف ذلك ، فلم تحظ عنده ، ويقال إنه زوجها لبعض مماليكه ، وماتت سنة ٧٤٠ هـ[١] .

ومنهن جارية تسمى « بياض » كانت تجيد الغناء ، واشتهرت باسم « قومة » . قال ابن تغرى بردى : « وكان للناس بها اجتماعات فى مجالس أنسهم ، فلما بلغ السلطان الملك الناصر خبرها طلبها واختص بها ، وحظيت عنده فولدت له « أحمد » على فراشه ، ثم تزوجها بعد ذلك الأمير بكتمر فى حياة الناصر »[٢] .

وكان بعض السلاطين لغرامه بالسماع والغناء والموسيقى يتقن الضرب على آلاتها ، ويفهم فى الغناء كالملك المؤيد شيخ .قال ابن إياس : « وكان يقرب أرباب الفنون ، وكانت أرباب الفنون تتباهى فى أيامه بفنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته ، وكان يتقن التغنى وفن الموسيقى ، ويركز الفن وينظم الشعر . وله أشياء كثيرة من الفن دائرة بين المغنين الآن »[٣] .

وورث المماليك تلك المحبة للفنون والغناء والموسيقى من أسلافهم الفاطميين والأيوبيين . فنى العصر الأيوبى يقال إنه كانت فى مصر فى عهد الملك الكامل فى القرن السابع الهجرى مغنية اسمها « عجيبة » ، تغنى بالجنك وعلى الدف ، وقد أولع الكامل بها جداً ، وكانت تطلع إليه بجنكها كل ليلة وتنزل ثانى يوم بكرة ، وهى تتمايل سكراً على أيدى الجوارى[٤] .

---

(١) راجع ذكرها كذلك فى النجوم الزاهرة ١٠ / ١٩ .

(٢) النجوم ١٠ / ٥٠ .

(٣) تاريخ ابن إياس ٢ / ٩ .

(٤) طبقات الشافعية ٥ / ٢٧ .

وكثيراً ما كانت مجالس الغناء تعقد فى الصباح أو المساء فى قصور المماليك ، فتغنيهم الجوارى المغنيات مفردات ، أو فى جوقات ، يحملن آلات الموسيقى كالدفوف أو الجنك والطارات والأعواد . . وغيرها .

ومن الرجال اشتهر جماعة من كبار الموسيقيين المتقنين ، والمغنين المبدعين مثل ابن كر ، واسمه الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن عيسى بن حسن . قال عنه ابن تغرى بردى : « إمام أهل الموسيقى ، وله فيها تآليف حسنة ، وكان صوفياً فقيهاً ، كتابه فى الموسيقى اسمه « غاية المطلوب فى الأنغام والضروب » . وصف بأنه تصنيف بديع .

ولد الشيخ سنة ٦٨١ هـ ، وأخذ علم الموسيقى على غير واحد ، ففاق الأقران ، وصار فى فنه فرداً لا يلحق ، ونقل مذاهب القدماء وحررها ، وأخذ نفسه بألا يمر به صوت مما ذكره أبو الفرج الأصبهانى إلا ويجيء به على وجهه .

وكان يتكسب بصناعة الموسيقى ، قال ابن فضل الله : كان يتردد علىّ ويتودد ، ولقد رأيته مرة غنى فأضحك ، ثم غنى فأبكى ، ثم غنى فنوّم ، فرأيت بعينى ما كنت سمعت بأذنى عن الفارابى » .

وقال ابن الصائغ الحنفى : « مرّ " ابن كر " على قوم يغنون، فحرك بغلته حتى مشت على إيقاعهم . وهذا أعجب ما يحكى » .

وتوفى ابن كر سنة ٧٥٩ هـ أو سنة ٧٦٣هـ على اختلاف بين الروايتين [١] .

ومنهم « كتيلة » ابن قرانغان ، وهو مغن مشرقى من ماردين ، وكان يجيد الغناء على الجنك ، ولذا اشتهر بـ « الجنكى » . قال ابن حجر : « نقل أصواتاً مشهورة ، وحفظ كثيراً من نوب الصفى عبد المؤمن ، ونادم الصالح صاحب ماردين ، فسمع به الناصر قلاوون ، فاستدعاه ، فراج عليه ، فبلغ عنده مكانة عظيمة ، فكان يلازم تعليم الجوارى ، فتخرج به كثير منهن ، وانتهى إليه حسن الطرب « بالجنك » العجمى ، وكان يسأل السلطان فى العود

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٣٠/١٠ .

إلى ماردين ، فيقيم مدة ويرجع بطلب السلطان » .

وكان ينافس « كتيلة » فى زمنه « الكمال التوريزى » . قال ابن حجر : « وكانت بينه وبين المغنى كتيلة بن قرنغان منافسة فى بلاط الناصر ابن قلاوون »[١] .

ومنهم « ابن الفصيح » عبد العزيز المغنى (توفى سنة ٧١٠ هـ) . قال ابن حجر : « كان أعجوبة زمانه فى صناعة الغناء . قال فيه علاء الدين الوداعى :

لحن هذا الفصيح أحسن من　　إعراب ذاك الفصيح فى كل حال

بين هذين فى الملاحة بون　　ذاك من ثعلب وذا من غزال

ويتلاعب فى هذين البيتين بالتورية فى لفظ « الفصيح » فى اللغة لثعلب ، واسم المغنى . وله فيه كذلك :

وليلة ما لهــا نظــير　　فى الطيب لو ساعفت بطول

كم نوبة للفصيح فيها　　أطرب من نوبة الخليل[٢]

ومنهم محمد بن على بن عمر المازنى الدهان ، شمس الدين الدمشقى ، توفى سنة ٧٢١ هـ وكان فاضلا أديباً عارفاً بالغناء ، ويجيد « اللعب بالقانون » ، وعمر مكاناً يسمى الربوة بدمشق وزخرفه ، فكان يجتمع فيه عنده الظرفاء ، ويأخذ عنه أهل الملاهى والألحان .

وكان الدهان يلحن الأبيات ويغنى فيها على قانونه[٣] . قال ابن تغرى بردى : « وكان شاعراً مجيداً يعرف الأنغام بالموسيقى ، وكان يعمل الشعر ويلحنه ، ويتعاطى أحياناً أجراً على ما يلحن للمغنين فى التهانى والتعازى »[٤] .

ومنهم عمر بن خضر بن جعفر الكردى المغنى . وكان أبوه قد اتصل

---

(١) الدرر الكامنة ٣ / ٢٣٤ .

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٣٨٥ .

(٣) الدرر الكامنة ٤ / ٧٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ٩/٢٥٢ ، وفوات الوفيات ٢/٤٩٢ وشذرات الذهب ٦ / ٥٨ .

بهولاكو وسخط عليه فقتله وباع أولاده ، فاشتراه أحد الوجوه ويدعى الصاحب شرف الدين هارون الجويني ، وتعلم عنده واجتهد حتى فاق فى الغناء ، ثم قدم الشام ، واختص بنائب السلطان الناصر على الشام ، الأمير تنكز ، ولازمه بدمشق ، وقربه ، وصار يعلم جواريه الغناء . وبلغ خبره الناصر فاستدعاه ، وأعطاه خبز حلقته ، ثم رتب له راتباً ، وصنف فى الموسيقى كتاب « الكنز المطلوب فى الدوائر والضروب » أجاد فيه [١] .

ومن العوادين المشهورين عبد على العواد والمغنى ، معلم المغنية « اتفاق » التى أشرنا إليها ، وقد أكرمه السلطان الملك المظفر حاجى ، وأنعم عليه بإقطاع فى الحلقة ، زيادة على ماكان بيده ؛ وأعطاه مائتى دينار ، وأنعم عليه بكاملية حرير بفرو سمور ، وهى من رفيع الثياب وجليل الخلع ، ولا تهدى إلا لكبار القوم .

والعمّارى العواد : شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن السورى العمارى الموصلى (توفى سنة ٧٨٣ هـ) ، ونسبته إلى عمار بن ياسر الصحابى المغنى الأستاذ . قال ابن تغرى بردى : « انتهت إليه الرياسة فى ضرب العود والموسيقى ، ونالته السعادة من أجلها حتى إنه كان إذا مرض عادهُ جميع أعيان الدولة . وهو صاحب التصانيف الهائلة فى الموسيقى »[٢] .

وإلى جانب اهتمام الناس بالأغانى الحضرية ، والموسيقى الحضرية المتطورة ، والممتزجة بأصول عربية وفارسية وتركية ، نلاحظ إقبالهم كذلك على الأغانى الشعبية والبدوية . ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على أوساط الناس ، بل نجد كثيراً من الأمراء وبعض السلاطين يولون هذا الغناء اهتمامهم ، فيروى ابن إياس أنهم كانوا يستدعون بالاستماع إلى جوق المحبظين ، ومغانى العرب[٣] .

---

(١) الدرر الكامنة ٣/١٤٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ١١/٢٢٠ .

(٣) تاريخ ابن إياس ٢/٢٨١ .

وتفنن الشعراء فى صفة الجوارى المغنيات ، وغلمان المغنين ، وآلاتهم جميعاً فمزجوا بين لذة السماع وجمال الشكل .

قال الدماميني فى جارية تدق بالكف [١] :

لقد دقتْ بكفَّيها فتاةٌ صفتْ فينا خلائقُها ورقتْ
أفدِّيهـــا مغنيةً رأينـــا بها الأفراحَ حلتْ حين دقتْ

وقال ابن حجر على طريقة العصر فى التلاعب بالتورية يصف جارية تعزف على كمنجة وتغنى [٢] :

ما بالها هجرت وكم قد مرَّ لى منها الرِّضا فى سالفِ الأعصارِ
وقضيت معها ــ إذ شدتْ بكمنجةٍ ما بين سالف نغمةٍ ــ أوْطار (ى)

والتورية فى كلمة أوطار مسموعة بالكسر ، يورى فيها بين الوطر وهو الرغبة ، وجمعه أوطار ، وطار وهو الدُّف . وقال ابن دانيال ، فى جارية تضرب بالدف :

ذاتُ القوام الذى يهتزُّ غصنُ نقا لو مرَّ يوماً عليه طائرٌ صدحا
يُبدى على الدفِّ كالجمّار معصمُها أناملا ببنان تشبهُ البلحا
غناؤُها برقيق الغنج تمزجُه فما ينقِّط إلا كلٌّ من رشحا

ويظهر ابن دانيال عادة بعضهن وهن يغنين بالدف، وينوعن فى الغناء، ويلحنّه ، ويعددن فيه ويأتين بضروب التلوين المطرب الذى يشير إليه بلفظة « غنج » ، ويختار أن يورى كذلك بما كان متبعاً ، إلى اليوم فى أوساط الشعب والريف من نقط للمغنيات بعد الدور . فهذه المغنية تهتم بمن ينقطها فهى تنقطه بجميل الغناء وفنون التطريب .

وقال شاعر آخر فى وصف جارية تعزف على العود[٣] .

---

(١) مطالع البدور ١/٢٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ١/٢٥٨ .
(٣) مطالع البدور ١/٢٥٨ .

وكأنه فى حجرها ولد لها   تحنو عليه عند كل أذان
أبداً تدغدغ بطنه فإذا هفا   عركت له أذناً من الآذان

وقال القيراطى فى وصف عواد[1] :

قلت إذْ حرك عـوداً   عازفـاً بالنَّغَمـاتْ
أنتَ مفتـاحُ سرُورى   يا سعيـدَ الحركـاتْ

وقال سيف الدين المشد فى مطرب يغنى على شبابة [2] :

ومطرب قد رأينا فى أنامله   شبابة لسرور النفس أهـَّلهـا
كأنه عاشقٌ وافتْ حبيبتُه   فضمـَّها بيديْه ثمَّ قبـَّلهـا

وقال محيى الدين بن قرناص فى مليح مشبب :

مشبب ، بجفناه راح يقتلنا   وإنْ تداركنا بالنفخ أحياناً
هويت تشبيبه من قبل رؤيته   والأذن تعشق قبل العين أحياناً

وقال أيضاً :

عُلـِّقتـُه مُشـَبـِّباً مُهفهـَفاً   أخـْضَعُ فى حـُبـِّى له ُ فيَشْمـَخُ
لا غـَرْوأنْ تـَشـُبـَّمن تشبيبـِه   نارُ الهـَوى ، أما تـَراهُ ينْفـُخُ؟

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر :

وناطقة بالروح عن أمر ربها   تعبر عما عنـدنا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب ،فأطربت   فنحن سكوت والهوى يتكلم

ولم يخل شعر العصر من تسجيل بعض اللمحات الهازلة ، أو الساخرة للمغنين والمغنيات ، وكما مدح الشعراء الجمال فى الصورة والصوت ، كذلك هجوا القبح فيهما ، وهو باب فى الشعر كثُر فيه قول الشعراء وافتنُّوا ، ويتقدمهم ، ممسكاً بالراية ، بشار بن برد وابن الرومى الذى أبدع ، ونوع .

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٣٣ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٣٤ .

وفى هذا العصر نرى المصيصىّ الخياط الشاعر يقول فى أحد المغنين[1] :

وإذا تربع – لا تربع بعدها – وغدا يحرك عوده متقاعساً
فكأن جرذان المدينة كلها فى عوده يقرضن خبزاً يابساً

وقال آخر :

ومغــنٍّ يتغنّى أذْهبَ اللذّات عنّا
فسألنــاهُ سكوتاً فأبى ذاكَ وغَــنى
فشتمنــاهُ فغَــنى فاشتفى القوادُ منّــا

وكان لفظ الغناء يأخذ بعض النظوم ، أو المنظومات ذات الروح الشعبى ، كالموشحات أو الأزجال ، وغيرها مما سنراه . وكان بعض المنشدين يسمون « القرالين » جمع قوال ، يمكن أن يشبهوا الآن بالمغنين الشعبيين ، المداحين ، أو الموالين على الأرغول والربابة ، والناى والمزمار . وكان أولئك القوالون يستخدمون هذه الآلات نفسها التى يستخدمها رصفاؤهم الآن فى المحافل الشعبية ، كالموالد والمناسبات الدينية والأفراح فى القرى والنجوع البعيدة ، وكثيراً ما يتغنون على الشبابات والدفوف .

ذكر الأدفوى أن مغنياً فى عصره يدعى « المظفر » كان يغنى على الشبابة والدفوف هذا النظم :

من بعد ما صدّ حبيبى ومار جا اليوم وزار
أبصرت ، ماكان أبرك منو نهار
جانى حبيبى وبلغنى المــنى
وزال عن قلبى الشقا والعنــا
ودار كأس الأنس ما بيننــا
يا ما احسن الكاسات علينا تدار فى وسط الدار
أنا وحبيبى جهاراً نهــار

وهو نظم قريب من نظم الموشح . ..

الرقص :

وكان الرقص ينافس الغناء في مجالس اللهو والسرور ، وخاصة رقص فتيات الجواري والقينات الصغيرات الجميلات . وكن يعلمن ضروبه على أيدي معلمين حذاق في الفن ، ولكن فن الرقص مع هذا لم يقتصر على النساء ، بل إنه وردت من أخبار العصر شذرات تفيد أن بعض الرجال احترفه وبرع فيه ، ولزم بيوت كبار القوم ، والسادة الأعيان . وإن وقف رجال الدين أمام رقص الرجال موقف الإنكار ، وعدوه حراماً .

وقال الفارقي الشاعر من مقطوعة يصف إحدى الراقصات :

لله راقصة تميس كأنهـــا ظل القضيب إذا تمايل مزهرا
تزهو ، وترجع كالخيال فلا ترى حركاتها إلا كطارقة الكرى
لانت معاطفها فكيف تلفتت وتفلتت لا يستطاع بأن ترى

والشعر وإن بدا ركيك التركيب والصياغة إلا أنه يعرض صورة لحركات الراقصة السريعة التي تمُدُّ فيها صدرها وترفع رأسها حيناً ، ثم تعود فتنثني وتتراجع ، وتلف ، تارة ، وتتفلت تارة ؛ حتى وكأنك أمام ضرب من الرقص قريب من الرقص الهندي الذي نشاهده الآن ، والذي لم يبق منه عندنا سوى صورته المعروفة بالرقص البلدي ، أو رقص البطن .

وقال شاعر آخر هو ابن أبي اليسر :

هيفاء إن رقصت في مجلس رقصت قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطوتها في جفن ذي رصد لم يعرف الوصبا

فهذا الشاعر يركز تصويره هنا على رشاقة خطو الراقصة ، وخفتها ، وتمثل لنا في خفة الفراشة ووطء راقصة الباليه ، وهي صورة تدل مع سابقتها على أن الرقص كان حركة رشيقة دائبة وخطوات بالقدمين والساقين والتفاتاً متناسقاً بأجزاء الجسم ، يتحرك مع إيقاع الموسيقى .

وقال صفى الدين الحلى فى جوارى ترقصن بالشراب :

والراقصات وقد شدت مآزرها ... على الخصور كأوساط الزنابير
يخفى الردا سُقْمها عنا فيفضحُها ... عقدُ البنودِ وشدَّاتُ الزّنانيرِ
إذا انثنين بأعطاف يجاذبها ... موَّارُ دِعْصٍ من الكثبان معطور
رأيت أمواج أرداف قد التطمت ... فى لجِّ بحر بماء الحسْن مسجُور
من كل مائسة الأعطاف من مرح ... مقسومةٍ بين تأنيثٍ وتذكير
كأنَّ فى الشِّيز يمناها إذا ضربتْ ... صبحٌ تغلغل فيه قلب ديجور
ترعى الضروب بأيديها وأرجلها ... وتحفظ الأصل من نقص وتغيير
وتعرب الرقص من لحن فتلحقه ... ما يلْحق النحْو من حذفٍ وتقْديرِ

وقال فى راقص :

جــاء وفى قده اعتدالُ ... مهفهف ما له عديل
قد خففت عطفه الشمالُ ... وثقَّلت جفنه الشَّمولُ
ثم انثنى راقصاً بقد ... حف به اللطف والنحول
يجول ما بيننا بوجــه ... فيــه ماءُ الحيــا يجولُ
ورنَّح الرَّقص منْه عطْفًا ... تثْنى إلى نحوه العقولُ
فعطْفه داخــلٌ خفيفٌ ... وردْفهُ خارجٌ ثقيــلُ

وفى صورتى الصفى الحلى للراقصات ، والراقص ، نرى لمحات جديدة لهذا الفن فى ذلك العصر فقد كان من عادة الراقصات أن يشددن أوساطهن بالزنانير ، وإنهن كن يتثنين بأعطافهن ويهززن بأعجازهن ، وإنهن كن يتخذن أحياناً زى الغلمان وهيأتهم ، وربما تخلف عن ذلك العصر ما نراه أحياناً من عمد بعض الراقصات « البلديات » فى مصر إلى لبس ملابس الرجال والرقص فيها . ومن ملامح الصورة استخدام الراقصات للصنوج ، من الخشب ، سمراء ، لذا عبر عنها ، وهى فى كفها البيضاء ، كأن قطعة من الليل تغلغلت فى قلب الصبح ، وإنها تجيد الإيقاع بالأرجل وحركات الأيدى ودقات

الصنوج ، فتأتى كلها متناسقة لا نشوز فيها ولا انحراف ، مستقيمة استقامة الكلام المعرب الخالى من اللحن ، التام السليم من القصور والحذف .

وصورة رقص الرجال تتمثل فى أنه يطالع المشاهدين بقد معتدل منتصب ، ويبدأ الراقص فيميل بعطفه يمنة ويسرة فى حركات متسقة ، خفيفة رشيقة ، وقد أرخى من جفنيه ، مع التحرك حركة دائبة حول المشاهدين فى إيقاع متتابع .

خيال الظل[١] :

وقد راج هذا الفن فى عصر المماليك وكان له شأن كبير ، واستغله الناس مادة للتلهى والضحك ، وجعلوه متنفساً لإبراز العيوب وتضخيم المقابح ، أو للتنفيس عن مشكلاتهم فى الحياة وهمومهم بطريقة ساخرة ضاحكة . ومع أن هذا الفن قديم فى مصر والشرق العربى منذ الفاطميين ، وإن لم تصلنا نصوص لمشاهده وعروضه كما وصلنا من هذا العصر نصوص لبابات ابن دانيال ، أو مسرحياته التى نظمها شعراً لخيال الظل ، أو « مسرح العرائس » . ولكن أورد ابن حجة ما يدل على أنه كان معروفاً فى عصر صلاح الدين ومن قبله فى مصر . قال ابن حجة[٢] .

« إن الناصر صلاح الدين أخرج للقاضى الفاضل من القصر (الفاطمى) من يعانى الخيال أعنى خيال الظل للفرجة عليه ، فقام الفاضل عند الشروع فى عمله ، فقال له الناصر : إن كان حراماً فما نحضره ، وكان حديث العهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة ، فما أراد أن يكدر عليه فقعد إلى آخره ، فلما انقضى ذلك قال الملك الناصر : كيف رأيت ذلك ؟ قال : رأيت موعظة عظيمة ، رأيت دولاً تمضى ودولاً تأتى ، ولما طوى الستار إذا المحرك واحد » .

---

(١) راجع بحث المستشرق جورج يعقوب عن خيال الظل ، وكتاب « قصصنا الشعبى » للدكتور فؤاد حسنين ، وكتاب خيال الظل لأحمد تيمور باشا وكتاب :
Landau; Jacob M.: Studies in The Arab' Theatre and Cinema' 1958 England.

(٢) ثمرات الأوراق ص ٣٠ .

وذكر ابن الجوزى فى معنى القاضى الفاضل شعراً [١] :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة لمن كان فى درج الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى وتفنى جميعاً والمحرك بـاق

وكان يستخدم فى لعب الخيال « بابات »[٢] ، أو عرائس من الورق المقوى أو الجلد، ويقوم على تحريكها حاذقون لهذا الفن. وربما دربت الجوارى عليه . قال الوجيه المناوى فى جارية تلعب بخيال الظل[٣] :

وجارية معشوقة اللهو أقبلت بحسن كزهر الروض تحت كمام
إذا ما تغنت قلت شكوى صبابة وإن رقصت قلنا صباب مدام
أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس خلف غمام
تلعّب بالأشخاص من خلْف سترها كمـا لعبتْ أطرافها بأنام

ويعتبر محمد بن دانيال الكحال (توفى سنة ٧٤٠ هـ) حوالى ١٣١١م ، صاحب أول نصوص تصلنا لمسرح خيال الظل . فقد حصلنا على ثلاث من مسرحياته بين شعرية ، ونثرية وزجلية . وتشمل هذه النصوص ، الإشارات والتوضيحات ، والتعليمات لصاحب الخيال لتحريك شخوصه ، أو باباته ، كما تشمل أحياناً بعض الأغانى المناسبة . وهذه البابات هى :

طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم [٤] ، يبدو أنه وضعها أيام الظاهر بيبرس ، أو فى عام ٦٦٠ هـ ، أو ٦٦١ هـ على التحديد ، لأنه يبدأ طيف الخيال بحمد الله والصلاة على نبيه ، والدعاء للسلطان ثم يقدم بمقدمة تشير إلى حملة الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ على الفساد والمفسدين ،

(١) النجوم الزاهرة ١٧٦/٦ .
(٢) تاريخ ابن إياس ٣٢٧/١ .
(٣) مطالع البدور للغزولى ٢٦١/١ .
(٤) راجع كتاب « خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال »دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، وطبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م .

وتخريبه أماكن الدعارة ، والخمارات والخانات ، وآنية الخمور ، وشنقه لشاربيها ، وتعقبه للخلعاء ، مما أثار الذعر بين أصحاب اللهو ، وعشاق « الفرفشة » وطلاب اللذات أمثال الشاعر المؤلف .

طيف الخيال :

يقول فى المقدمة : « لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية ، سقى الله من سحب الإنعام عهدها ، وأعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأبواب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة ، وهزم أمر السلطان جيش الشيطان ، وتولى الخوان والى القاهرة إهراق الخمور وإحراق الحشيش وتبديد المزور ، واستتاب العلوق واللواطى ، وحجر البغاة والخواطى . وشاعت بذلك الأخبار ، ووقع الإنكار ، واختفى المسطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية ، وصلب ابن الكازرونى وفى رقبته نباذية ، فدعانى بعض أصدقائى إلى محله ، وأنزلنى بين عياله وأهله ، واعتذر إلىّ عن تقصيره فى الإكرام إذ لم يأتنى بمدام ، وقال : قد غلب على ظنى أن أبا مرة قد مات ، وعد من الرفات ، فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه . فابتدأت وقلت فى معنى هذه الواقعة :

ماتَ يا قومُ شيخُنا إبليسُ وخَلا منه ربْعــه المأنوسُ
ونعانى حدْسٌ بــه إذ تُوفى ولعمْرى ممــاتُه محدوسُ
هو لم يكن كمــا قلْتُ ميتاً لم يُغير لأمــره ناموسُ

وهى أبيات طويلة تستوعب حيزاً كبيراً من المقدمة ، يعرض فيها لأعوان إبليس الذين ضيق عليهم السلطان الخناق بتشدده فى الحد وتتبعه هو وجنده لهم أشد تتبع حتى يقول فى ختامها :

ارحلو هذه بلادُ عفاف وسعودُ الخــلاع فيها نحوسُ
ما لنا بعدَ ذلك الشيخ إلفٌ وسمــيرٌ ومؤنسٌ وأنيسُ
لا ترى فتى ضاحك السّـــــن ، وكل يبدو له تَعْبيسُ

وتبدأ بعد المقدمة البابة ، أو المسرحية « طيف الخيال » ، وهي باسم الراوية ، الذى يروى القصة أو البابة وأحداثها ، وربما استعير هذا العنصر من المقامة . أما أبطال البابة فهم : الأمير وصال ، وهو من أمراء الجند ، ومجموعة من الشخصيات الثانوية المعروفة فى المجتمع المملوكى . ويدور الموضوع حول رغبة الأمير وصال فى الزواج من امرأة ذات حسب وجمال ، فيلقى فى طريقه الخاطبة « أم شيد » التى تبحث له عما يريد ، فيتم الزواج ويفاجأ ليلة الزفاف بقبح العروس ، فيغضب ، ويتوعد أم رشيد وزوجها بالقتل ، ولكنه يقتنع فى النهاية بأن الله أوقعه فى شرك ما قدم من فعل الشر ، وينوى التوبة ، وغسل معاصيه بالحج إلى بيت الله الحرام ، وزيارة الروضة الشريفة ليتطهر من الرجس الذى لحق به .

فشخصية « وصال » تمثل الخاطئ التقليدى فى العمل الدرامى الكلاسيكى ، الذى لا بد وأن تنتهى القصة بأن يلقى جزاءه المحتوم .

ويرسم المؤلف صورة الفساد الذى عليه وصال بمجرد ظهوره ، إذ ينادى عليه الراوية فيقدم نفسه للشهود وعليه شربوش (لباس للرأس مضلع يلبس دون عمامة) فيقول إنه كالأفعى ويلوط أكثر من أبي نواس ، ويصفع أقفاء أكثر من الخباز ، ويفترس أكثر من السبع ، ويشرب أكثر من الرمل ، وأنه أظهر من كوكب ، وأدور من لولب .

فيمدحه طيف الخيال بما يشبه الذم قائلاً : « إن من يترك تلك الآثار لا يموت » .

وتدور مشاهد البابة وأحداثها بين كلام الراوية « طيف الخيال » ، وتسلسل المشاهد وتتابعها مع البطل ومن يلقاهم ويحادثهم حتى ختام البابة .

وتجرى البابة على هذا النمط من الشعر الممتزج بالنثر أو النثر الممتزج بالشعر ، والذى يتداخل فيه اللفظ الفصيح بالعامى . ونضرب مثالاً بهذا

الحوار الذى يدور بين الخاطبة (أم رشيد) وطيف الخيال – الراوية – والأمير وصال بطل البابة .

ينادى طيف الخيال : يا أم رشيد ، يا ست العبيد

فتخرج العجوز وتقول (أم رشيد) : مسيتم بالسعادة ، ولا زلتم فى نعمة وسيادة ، وفى خير والخير عادة ، يا أولادى ولا بليتم بالكبر ، وثقل الجسم والسمع والبصر . من هذا الذى طلبنى فى الليل الدامس ، والدروب مغلقة والطرف ناعس ، وأزعجنى من رقدتى ، والنجوم راكدة ، وكل صبية مع عشيقها راقدة .

فيقول لها طيف الخيال: طلبك الأمير وصال .

فتقول أم رشيد : ونعم من الأمير وصال ، الذى ربى فى النعيم وفى الدلال ، رحم الله أباه ، ورحم أمه ومن رباه .

فيقول الأمير وصال : يا خالتى أم رشيد كيف نعم الله عليك ، ولقد كنت – قسماً بالله مشتاقاً إليك ، وما طلبتك إلا لتزوجينى ، وإلى غيرك فلا تحوجينى . وأريد هذه العروس تكون درية اللون ، حسنة الكون ، ملفوفة البدن ، لا رقيقة ولا مفرطة فى السمن ، أسيلة الخد ، قائمة النهد .

بيضاء مصقولةُ الخدَّين ناعمةٌ كأنها لؤلؤٌ فى الخدْر مكنونُ
حسنٌ جرى قلمُ البارى فأبدعه خطًّا تحـــار لمرآهُ الدواوينُ
وقدهـــا ألفٌ حسنًا ومبسمها ميمٌ وحاجبُها فى شكله نونُ
وصدغها عطفه واو ومقلتها صادٌ وطرّتها من شَعْرها سينُ
راشتْ لواحظُها نبلاً فحاجبُها قوسٌ ، على أنه بالموت مقرونُ
فالخدُّ والصدغُ إذ يبدو ومبسمُها وردٌ وآسٌ وريحانٌ ونسرينُ
والغصْنُ يعهد فى البستان مغرسُه وهذه غصنٌ فيـــه بساتينُ

وتمضى بابة طيف الخيال على تلك الصورة .

عجيب وغريب :

وتحمل بابة « عجيب وغريب » اسم بطليها ، وهما اسمان وصفيان ، وربما وردا فى أكثر من شكل من أشكال الفن الشعبى أو الأدب الفولكلورى لكثير من بلاد المشرق الإسلامى ، فلا تزال على سبيل المثال رواية شعبية معروفة بهذا الاسم لخيال الظل فى إيران ، كما توجد بعض القصص الشعبية العربية تتخذ من هذين الاسمين بطلين لها ، وقد تداولتهما الأجيال جيلا بعد جيل(١) .

ولا نجد بناء واضحاً لهذه البابة كما رأينا فى بابة طيف الخيال ، بل هى فى الواقع عرض لنماذج واقعية من الحياة الشعبية فى الشارع والسوق ، قريبة من تلك الأنماط التى عرضتها المقامات الحريرية ، والتى تظهرها الأسمار والقصص الشعبية . ونرى «صورة السوق» تأخذ بمجمع البابة ومطامعها ، وهى –أى السوق– من الصور الشعبية الحية فى الحياة العربية القديمة ، وهى مصدر كبير للمعرفة ، والتكسب ، والتحايل على الرزق بضروب مختلفة من الحيل ، والنصب ، والسلب ، والمراوغة . وهى معرض وتجسيم لكثير من مظاهر نشاط المجتمع ، وعيوبه .

وتختلف شخصيات البابة اختلافاً بيناً فيما بينها ، وفى أنماطها البشرية ، وتدل على أن مؤلفها قد ابتدع بعضها ، والتقط أكثرها من حقل الحياة من حوله . ونعرف أن المؤلف كان صاحب دكان بالسوق ، وكان دكانه ملاذاً لأصناف من البشر ، كما أن صنوفاً أخرى تمر أمامه كل يوم ، وفى ساعات النهار من الصباح حتى الليل .

وعجيب وغريب شخصيتان مختلفتان فى طباعهما ، متناقضتان فى سلوكهما ، فالأول نموذج للشحاذ المتجول من أبناء ساسان ، الذى يمثل فى مقامات الهمذانى والحريرى العنصر الرئيسى فهو هناك عيسى بن هشام ، وهو هنا أبو زيد السروجى . وعجيب ليس أمياً تماماً ، لكنه فقير رحال .

---

(١) راجع كتاب « قصصنا الشعبى » للدكتور فؤاد حسنين ص ٨٢ .

وعجيب نمط فرد فى الواعظين ، فهو يحمد الله على أن خلق الخمر ، ويدعو كل الفقراء والشحاذين أن يمارسوا تجارتهم فى همة ونشاط ، ليحصلوا على المال نقداً .

وبقية الشخوص نماذج متعددة من الحياة الشعبية اليومية فى السوق ، ترى بينهم جماعة من اللاعبين والحواة ، منهم حويش الحاوى ، وشمعون المشعبذ ، وترى مدربى الحيوانات كالقردة والقطط والكلاب والسباع ، ومن أسمائهم أبو القطط ، وزعبر الكلبى ، وشبل السباع ، والراقص ، وناتو العبد الأسود ، وبالع الزجاج ، ومن إليهم . ويبلغ عدد هذه النماذج الغريبة التى حشدها فى البابة من السوق سبعة وعشرين نموذجاً .

وتبدأ البابة بمشهد السوق ، حيث يعرض كل أولئك صوراً من حرفهم وألعابهم وشعبذاتهم . وبظهور غريب ، ثم ظهور عجيب الواعظ الذى يستفتح البابة تتوالى المشاهد . يقول فى أولها : « وهذه البابة تتضمن أحوال الغربا ، المحتالين من الأدبا ، الآخذين بهذا الشانْ ، المتكلمين بلغة الشيخ ساسان » .

ويبدأ غريب خطبته الأولى التى يعرض فيها نفسه للشهود ، مفتتحاً بالشعر مثنياً بالنثر كالأمير وصال فى طيف الخيال . ويقول بعد أبيات من الشعر يخلط فيها المجون بالقول المذر : « ولما لم يبق من يستمطر وابله ، ولا من يرجى نائله ، رأينا الحيلة عليهم ولا الحاجة إليهم ، وتركنا العمل ، وملنا إلى الراحة والكسل ، وانفردنا بتدبير الحيل ، وتفرقنا فى تلك الفرق ولم يصدنا رعب ولا فرق . . إلخ » ويستمر فى الخطبة التى يعرض فيها تمرسه بضروب الحيل ويعقبها بأبيات فى الموضوع نفسه ، ويتبعه الشيخ عجيب الدين الواعظ العجيب الذى يحض على التماس العيش بشتى الحيل ، واقتناص فرص اللذة واللهو بكل سبب . فيقول : « أين الذين بنوا الهرم ، وأين عاد وإرم ، مزقتهم النوى والبين ، ومضوا إلى حيث لا أين ، فرحم الله من داوى أحزانه بحسن خلق زانه ، وصرف أتراحه بما أراحه ، وإذا كان المزاح يذهب الأتراح ، ويقوم فى التفريج مقام الراح ، فالهُوا الآن بابنة الدنان ، فالقهوة أخفى مايضمر ، وأعز

من الكبريت الأحمر ، والأنبساط يجعل بلا إفراط ، فابسطوا الأمل ، واعملوا بهذا العمل ، وأنتم معاشر الغربا ، وساير بنى ساسان من الأدبا ، أجملوا فى الطلب ، واستدروا الحلب : واغتنموا الاجتماع فإن الفرقة واقعة ، وتزودوا بالأنس قبل وقوع الواقعة ، وروحوا الخواطر واستمطروا الديم المواطر ، وخذوا من المزاح بمقدار ما يعطى الطعام من الأملاح » .

ويجرى على ذاك النمط من القول فى سوق النصائح لبنى ساسان ، ويختم خطبته بأبيات من الشعر ثم باستجداء يقول فيه : « من كفانى برد الشتاء بجبة ، أسكنه الله جنته الرحبة ، ومن طرحنى بطيلسان ، حشر مع الحور الحسان ، ومن حبانى بمرطه ، فقد استكمل الزخرفة بشرطه» .

وتمضى مشاهد البابة حتى نهايتها .

المتيم والضائع اليتيم :

والبابة الثالثة « المتيم والضائع اليتيم » وتدور قصتها حول الحب وحيل المحبين فى عصره ويتعقب فيها واحداً منهم هو المتيم ، ويعرض محاولاته لبلوغ غرضه من حبيبته . يقول فى مقدمتها : « وضمنتها طرفاً من أحوال المحبين وطرفاً من الغزل الذى هو السحر المبين ، وطرفاً من الملاعيب وطرفاً من المجون الذى ما عيب » .

وشخوص هذه البابة المتيم ، والذميم ، وبابا البيرم ، واليتيم وزيهون الحكيم ، وشخوص ثانوية أخرى ، وحيوانات المصارعة : ديكان ، وكبشان وثوران .

يقول فى مقدمتها على لسان الريس ، منشداً بافتتاح الستار :

قــل لسادات الزّمــانِ لا بَرحتم فى أمــــانِ
وبقيتم فى أمـــــانى مـــا تَبقى الهرمــــانِ

فيخرج شخص هيجه الغرام وأتلفه السقام ، وأذابه الأرق ، حين ذاب لحمه ورق ، فيبكى بانتحاب وينشد متأوهاً باكتئاب :

أهــل الغرام تجمّعــوا وتوسّــلوا وتضرّعـــوا
دقوا الأبواب الإجابة بالدُّعـــاء لتسمعــوا

موتوا تعيشوا فى الهوى وتمـــزقوا وتقطعــوا
وخذوا حــديث متيم عمن سواهُ أو دَعُوا

ويجرى حديث متيم هذا حول إعجابه ، وحبه الشاذ لغلام اسمه اليتيم ، ومحاولته بلوغ مراده منه ، فيتخذ لذلك الأسباب ، ويتخطى كل ما يقف فى طريقه من عقبات ، واليتيم مغرم بصراع الطير والحيوان ، وضروب تلك الألعاب التى عرفها العرب وبعض مجتمعات الشرق فى العصور الوسطى كنطاح الكباش ومهارشة الكلاب ، ونقار الديكة ، وصراع الثيران.

ويبدو من شعر المتيم أن اليتيم هذا فتى من الأتراك ، لأنه يقول :

بى من الأتراك أحوى أحور لحظه فيه فتور وفتون

وكان حب فتيان الأتراك كما أشرنا ظاهرة غريبة فى مجتمع العصر ، بدت لمحاتها فى الشعر بعد أن وسمت حياة الناس بسمات من الانحراف والشذوذ .

وهكذا ينتهى الأمر بين المتيم واليتيم بأن ينتصر ثور اليتيم ، ويذبح المتيم ثوره لحضور السامر ، ومن بينهم اليتيم ، ويقضى الجميع وقتاً سعيداً هانئاً . ويعرض فى الوليمة صنوفاً من شذاذ الناس كالجشع والطفيلى ، والمريض ، والوسيط الذى يتدخل لفض كل نزاع دون طلب .

وهذه البابة ، لم تصلنا كاملة على خلاف سابقتيها ، فما وصلنا منها قطعة محدودة غير تامة التسلسل . تنتهى بظهور ملاك الموت فجأة ليقبض روح المتيم ، فيفزع الناس لظهوره فجأة فى الوليمة فيولون هاربين .

وخيال الظل ببابائه الثلاث لابن دانيال فضلاً عن أنه يعطى صورة من الكتابة الفنية لهذا الفن ، فإن نصوصه تعكس ملامح المجتمع والحياة والناس ، ومشاهد وأحداثاً وعادات وأخلاقاً يعــز أن نعثر عليها أو نجدها على هذه الصورة فى مرجع أو فى مصنفات التاريخ ، ونصوص الأدب الفصيح .

الباب الثامن

أنواع الأدب الشعبي

حين نطلق لفظ الأدب الشعبي فإنما نريد به الأدب الذى يحمل خاصتين، أولاهما أن يكون بلغة عامية « ملحونة » أى بلغة عامة الشعب والناس فى أحاديثهم العامة ، وقضاء حاجاتهم اليومية . وثانيهما أنه يعرض لحياة الناس من عامة الشعب ، وخبايا وجداناتهم ، ومكنون مشاعرهم ، كما يبين عن اهتماماتهم . وربما كان هذا الضرب من الأدب من صنع مجهول أو من صنع جماعة من الناس اشتركوا فيه فى جيل واحد أو أجيال متعاقبة ، فى بلد واحد أو بلاد متفرقة ، وربما كان من صنع علم معروف مشهور من رجال الأدب والفن ، ولكن سار ، وتناقلته ألسنة الناس [1] .

ولاحظنا فى الأدب العربى عامة والمصرى خاصة اتجاهاً إلى هذا اللون من الأدب منذ القرن السادس الهجرى ، وكانت قد تعددت ألوانه ظهوراً فى المشرق والمغرب ، فى بلاد العراق وفارس ، وفى الأندلس والمغرب ، ثم ما بينهما .

وأظهر تلك الألوان فى المنظوم : القوما ، والكان وكان ، والمواليا والزجل والموشح ، وفى المنثور المقامة والقصة الشعبية ، والسيرة .

ولم يقتصر دور الأدب الشعبى على ظهور تلك الألوان الجديدة فى المنظوم والمنثور ، بل تعداه إلى الأدب الفصيح ، فأثر فيه ومال به نحوه ، وصار

---

(١) قد نخالف فى هذا التعريف بعض الباحثين ، لأنا لا نرى معنى للتفرقة بين أدب شعبي وأدب عامي ، اقتداء ببعض الآراء والمفاهيم الغربية ، وعلى أساس ما وضعوا فى الغرب من قواعد لهذا اللون الفولكلور .

أدباء الفصحى يقلدون أدباء العامية في اللفظ والأساوب وبعض التعبيرات السائرة ، بل وفى الخيالات والصور .

وممن تأثر بهذا كثير من كبار أدباء العصر أمثال البهاء زهير ، والأسعد ابن مماتى ، والبوصيرى ، والحسين الجزار ، ومحمد بن دانيال .

وعدّد الصفى الحلى[1] أنواع النظوم المعروفة فى عصره سبعة أنواع بين فصيح وشعبى ، فى المشرق والمغرب ، فقال : « ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون لا اختلاف فى عددها بين أهل البلاد ، وإنما الخلاف بين المغاربة والمشارقة فى فنين منها ، والسبعة المذكورة عند أهل المغرب ومصر والشام هى : الشعر القريض، والموشح والدوبيت والزجل ، والمواليا ، والكان وكان . والحماق وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ، ويبدلون الزجل والحماق بالحجازى والقوما ، وهما فنان اخترعهما البغاددة للغناء بهما فى سحور شهر رمضان ، خاصة فى عصر الخلفاء من بنى العباس . فأما عذرهم فى إسقاط الزجل فلأن أكثرهم لا يفرق بين الموشح، والزجل ، والمزنم ، فاخترعوا عوضه الحجازى (وهو وزن بيتين من بحر السريع بثلاث قواف) ، كما اقتطع الواسطيون المواليا (وهو بيتان من بحر البسيط) وهذا يشبه الزجل فى كونه ملحوناً ، وأنه بعد كل أربعة أقفال منه بيت . ويخالفه بكون القطعة منه لو بلغ عدد أبياتها ما بلغ لا تكون إلا على قافية واحدة . فأما عذرهم فى إسقاط الحماق ، فإنهم لم يسمعوه أبداً » .

وإذا أضفنا الفنين اللذين أوردهما الصفى الحلى لأهل العراق ، وهما الحجازى والقوما ثم الثالث او هو المزنم ، والبليق الذى عرفه المصريون و بعض الشوام ، كان عددها أحد عشر فناً منظوماً .

وفيما عدا القريض — وهو الشعر الفصيح — يصبح عدد الفنون الشعبية المنظومة عشرة كاملة بعضها معروف الأشكال والأوزان ، محددها ، وبعضها

(١) راجع الحالى والعاطل ص ٨ . بتحقيق ولهلم هوزباخ ، طبع ويسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ .

الآخر مختلط غير محدد . وذكر الحلى أن ثلاثة منها معربة أبداً لا يغتفر فيها اللحن هى القريض والموشح والدوبيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً وهى الزجل ، وكان وكان ، والقوما ، وواحد كالبرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن ، وإنما اللحن فيه أحسن وأليق ، وهو المواليا » (١) .

وإذا تأملنا قول الحلى وجدنا أنه لا يصح دائماً ، لأن الموشح نظم باللغة العامية كذلك أو دخلت عليه العامية حتى فى أولى أطواره منذ القرن الخامس الهجرى ، حين لجأ الوشاحون إلى تذييله بالخرجة ، وهى أكثر ما تكون باللغة الدارجة غير المعربة . والفصيح منها قليل نادر . كذلك الدوبيت ، ليس من فنون نظوم الفصيح ، وماهو عامى كله بل تناقلته العامية والفصحى . ولا تزال أشكال من الدوبيت فى اللهجات العامية تعيش إلى الآن فى السودان .

وكاختلاط اللغة اختلطت الأوزان والأشكال . وقد حاول بعض القدماء كالمحبى فى « خلاصة الأثر » دراسة كل نوع منها ، وبيان أوزانه وعروضه وبنائه .

الموشح :

وأول هذه النظوم وأقربها إلى « القريض » « الموشح » لأنه يستخدم الأوزان الشعرية المعروفة ، وإن تصرف فيها وأدخل بعض أشطرها على بعض أو استخدم تفعيلات مفردة منها وألف بينها . وله كذلك قوالب متوارثة مدروسة (٢) ، تتحد فى ثلاثة أصول هى : القفل والغصن (أو الأبيات) ثم الخرجة ، وهى القفل الأخير لكن بلفظ عامى ، ويراعى فيها أن تكون خارجة فى موضوعها عن تسلسل موضوع الموشح ، فتجىء كالملحة فى الختام . ومنه نوعان الأول يسمى الموشح الأقرع ، ويتكون من خمسة أقفال

---

(١) الحالى والعاطل ص ٨ .

(٢) يمكن الرجوع إلى الكتب التى تعرضت بالتفصيل للموشح مثل « دار الطراز » لابن سناء الملك طبع دمشق سنة ١٩٤٩ ، بتحقيق جودت الركابى ، و « توشيع التوشيح » للصفدى وطبع ببيروت سنة ١٩٦٦ تحقيق ألبير حبيب مطلق ، « جيش التوشيح » للسان الدين بن الخطيب طبع فى تونس سنة ١٩٦٨ بتحقيق هلال ناجى ومحمد ماضور .

وخمسة أبيات أو أغصان . وسمى كذلك لحذف القفل الأول من مطلعه ، وبدايته مباشرة بالغصن أو الأبيات .

والبسيط ، ويتكون من قفل بسيط من شطرين من وزن واحد، وغصن من أربع شطرات ،والمركب وفيه يتركب كل من القفل والغصن بزيادة عدد الفقرات أو الشطرات ، أو بإدخال أجزاء منها وتفعيلات بينها أو فى نهايتها .

ويشترط فى الأقفال أن تكون موحدة القافية والوزن فى الموشح كله من أوله إلى آخره .

وأما الأبيات أو الأغصان فهى موحدة الوزن متغيرة القوافى ، فى كل غصن قافية مختلفة . والخرجة ، هى الجزء الثالث وهى من وزن القفل وقافيته ، لكنها تكون غالباً باللغة الدارجة المعربة كما أشرنا .

إلا أن هذه الأصول لم تراع دائماً فى الموشحات التى صنعت فيها فى هذا العصر ، بل تصرف الوشاحون تصرفاً كبيراً فى عدد الأقفال والأغصان فى الموشح الواحد، كما تصرفوا فى بناء المركب ولم يراعوا حدود الموشح الأندلسى تماماً .

فنهم من زاد كثيراً فى عدد الأقفال والأبيات عن العدد المقرر وهو ستة أقفال وخمسة أبيات فى التام أو خمسة وخمسة فى الأقرع . ونجد النصير الأدفوى — على سبيل المثال ينظم موشحاً من ثمانية أقفال وسبعة أغصان[١] ، وابن مكانس فخر الدين ينظم موشحاً من واحد وخمسين قفلاً وواحد وخمسين غصناً .

وقد يخلط بعض الوشاحين بين الدوبيت والموشح فى نظم واحد مثل قول الشهاب العزازى فى موشح دوبيتى[٢] :

أقسمت عليك بالأسيل القانى أن تنظر فى حال الكئيب الفانى
أو تقصر عن إطالة الهجران يا من سلب المنام من أجفانى
ما أليق هذا الحسن بالإحسان

(١) راجع الطالع السعيدى للأدفوى .

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر ١ / ١٦٦ .

والله لقدْ ضاعفتْ عندى الكمَدا   مذْ جزتَ فى الهجر الطويل الأمدَا
أدركْ رمقى أوهبْ فؤادى جلَدا   يا من أخذَ الرُّوحَ وأبقى الجسدَا
ما أصنعُ بعدَ الرُّوح بالجثمانِ

ويمضى على هذا النسق حتى آخر الموشح ، مكوناً من سبع فقرات ، تجمع بين سبعة أغصان وسبعة أقفال . وهذا النظم من نوع الأقرع .

وكانت الموشحات تصنع ليتغنى بها ، وغالباً ما يكون الوشاح مغنياً أو عالماً بالموسيقى وعازفاً على آلة من آلاتها ، ويراعى فى بنائها أن تكون طيعة اللحن ، تقبل ما يدخله عليها الموسيقى من فنون النغم ، كذلك أظهر الوشاحون براعتهم فى التلاعب بأصوات الحروف ، وإيجاد ضروب من التناسق والتلاؤم ، أو الجناس الصوتى ، مثل موشحة النصير الأدفوى التى يقول فيها :

يا طلعة الهلال   هل لا لى   فى الحب منتظر
يا غاية الآمال   أمَا لِى   من الهوى مفر

وكقول النصير الحمّامى :

يا منتهى الآمال   أمَا لِى   فى الحب من مجير
ارثى لجسمى البالى   يا بَالِى   وارحم فتىً أسير
فقد بذلت الغالى   يا غالى   فى القدر يا أمير

* * *

وفيك قد ألقى لى   يا قالى   لهجرك الضرر
وقطعت أوصالى   يا صالى   تصليني سقر
إن جزت بين السربِ   فسر بى   عن حبهم قليل
ومل بهم وعج بى   فعجبى   قلبى بهم بخيل

* * *

وقف بهم يا صحبى   وصح بى   أبكى على القتيل
وإن يقض نحبى   فنح بى   فى السهل والوعرْ
وأنزل بهم والطفْ بى   وطُفْ بى   فى البدْو والحضرْ

وخرجت بعض موشحات العصر بأوزانها عن الأوزان المألوفة المعتادة ، وبإيقاعاتها عن الإيقاعات المعهودة فى الشعر الفصيح ، وحاولت أن تدخل إيقاعات جديدة ، ممزوجة بكثير من التراث الشعبي والأجنبي والمحلى فى كل إقليم .

وغالباً ما يكون وفود الموشح إلى مصر والشام فى أخريات القرن السادس الهجرى ، فقد نظم فيه ابن سناء الملك الشاعر المصرى ، كما قيل إن ابن البلطى المصرى صنع موشحاً بديعاً فى القاضى الفاضل على طريقة المغاربة ، وحافظ فيه على أحرف العين والضاد والذال والطاء وصرع التوشيح بورودها[١] .

وكانت موضوعات الموشح التقليدية هى الغزل ، والشراب ، والوصف ، لكن استخدمه بعضهم فى المديح والرثاء ، أى فى مواقف الزلفى والتكسب ، كما استخدم شعر القصيد . قال ابن حجر : قال حميد الضرير يرثى ابن أبى الرضى الفقيه بموشح منسجم النظم[٢]

على ابن الرضى مضى اصطبارى وسارا
وعينى قد جرت من عظم نارى بحارا
مدارس درسه حنّت إليه وحن العلم والعلما لديه
وأشياخ الحديث بكت عليه

الزجل :

ويعتبر الصورة العامية الخالصة للموشح ، فهو يتخذ شكله ومادته وبناءه من الأقفال والأغصان وإن استخدام عروض الشعر الفصيح ونظام الموشح فى التركيب والبساطة .

وفد الزجل إلى مصر والشام صحبة الموشح من الأندلس والمغرب ، وكان قد خرج هناك واشتد عوده على يد ابن قزمان ، ولكن المصريين تفننوا فيه وبرعوا . ونمثل للزجل وكونه على صورة الموشح شكلاً ووزناً لكن كلامه عامى ، بقول عبد الملك بن الأعز الإسنائى (توفى سنة ٧٠٧ هـ)[٣] . قال

(١) معجم الأدباء ٥ / ٤٦ .
(٢) الدرر الكامنة ١ / ٢٢٨ .
(٣) فوات الوفيات ٢ / ٢٤ .

ابن شاكر : «ومن شعره فى وزن من أوزان الشعر العامى :

جفونى ما تنام إلا لعلّى أن أراك
فزرنى قد برانى الشوق يا غصن الأراك
وطرفى ما رأى مثلك وقلبى قد حواك
فهو لم يزل مسكن
فسبحان الذى أسكن
وحسنك كم به أفتن
(وما قصدى سواك)
حبيبى آه ما أحلى هوانى فى هواك

* * *

فخلّ الصد والهجران ولا تسمع ملام
وصلنى يا قضيب البان ففى قلبى ضرام
وجد للهائم الولهان يا بدر التمام
وزر يا طلعة البدر
ودع يا قاتلى هجرى
وارفق قد فنى عمرى
(وعد لأيام وفاك)
واسمح لى أن أقبل يا مليح بالله فاك

* * *

إذا ما زاد وجْدى ولا ألتى معين
وصارْ دمْعى على خدّى جارى كماء العين
أفكر ألتقيك عندى يطيب قلبى الحزين
لأنك نزهة الخاطر
وشخصك فى الفؤاد حاضر
وحبى فيك بلا آخر

(وقُول لىْ قد كفاك)
فجدْ واعْدلْ وصلْ واوْصلْ   رضاىْ من رضاكْ

* * *

جبينك يشبه المصباح   بنوره قدْ هـَدى
وريقاكْ من رحيقْ الرَّاح   بهْ يروْى الصَّدى
وخدك يشْبه التفَّاحْ   مكلـَّلْ بالنـَّـدَى
سبانى لونه القانى
فخلانى كئيب عانى
تجافى النوم أجفانى
(فهل عينى تراك ؟)
فذاكَ اليوم فيه خدِّى   أعفـِّر فى ثراكْ

* * *

عـَذولى لا تقـُلْ واقْصر   ودع صبـًّا كئيب
تأمل من هويت وابصر   إلى وجه الحبيب
وكن يا صاح مستبصر   ترى شيئاً عجيب
ترى منْ حسنهُ مبْدعْ
كبدر التمِّ إذْ يطلعْ
تحارْ لمْ تدْر ما تصنعْ
(ولا تعرف هداك)
وتبقى مفـْتكرْ حيرانْ   إلا إنْ هدَاكْ ...

ونلاحظ على هذا الزجل ملاحظات :

أولا : أنه لا تجرى على صورة الموشح التقليدية فهو مكون من خمس فقرات ، وكل فقرة من غصن مركب من ثلاثة أغصان ، كل واحد منها ثلاثة أبيات مقفاة بقافية مشتركة ، ثم قفل مكون من ثلاثة أجزاء منها جزآن بقافية مشتركة ملتزمة فى طول الزجل ، والوسطى مطلقة ..

ثانياً : اللغة الغالبة هى العامية أو غير المعربة، فاللحن هو الأساس، ويأتى بالفصيح تملحاً وتوشية وسط اللفظ الملحون .

ثالثاً : هذا الشكل نادر فى الموشح ، نادر كذلك فى الزجل العادى المألوف فى العصر وقد أورد لنا الأدفوى زجلاً لهارون بن موسى بن محمد الرشيد المعروف بابن المصلى الأرمنتى المتوفى سنة ٧٣٠ ه يسير فيه على نمط الموشح بتصرف ، ويخرجه عن كونه موشحاً لغته العامية وتصرفه فى أقفاله وأغصانه . يبدأ نظمه على شكل الموشح التام ، فيقول فى القفل الأول :

بدويّة فى بيوتى ساكْنَـه صيرتْ عندى المحبّة كامْنَـه (١)
اسمها ستّ العربْ هيَّجتْ عندى الطّربْ

وبدوية اسم الفتاة التى يتغزل فيها ، وبدوية اسم بلدتها .

ويأخذ فى بقية الموشح فيجىء الغصن الأول من جزئين يعرض فيه قصته فيقول :

أنا قاعد بين جماعة نستريحْ
عبرتْ واحده لها وجهٌ مليحْ
بقوام أعدل من الغصن الرجيحْ

فى الملاحهْ زايْده
وو راها قايْدَه
لوْ تكونْ لى رايْدَه

ثم يأتى القفل :

كنتْ نعطيها ألْف دينارْ وازْنهْ وبندخل فى بيوتى مادنه
وتَـرى منى العجبْ فى تصانيفِ الأدبْ

ويستمر فى هذا الزجل اللطيف فيقول :

نفرتْ منى كما نفر الغزالْ

---

(١) فى هذا الزجل وسائر ضروب النظم الشعبى لا يعبر الرسم المعروف للكلمات عن النطق الصحيح ، ومن هنا قد يتعثر اللسان عند القراءة حسب الرسم ، ولا يوافق الإيقاع المطلوب . ولهذا وجب التنبيه .

وأسفرتْ لِى عن جبينْ يحكى الهلالْ
ورنتْ أرْمتْ بعينيها نبالْ
ثم قالتْ يا فلانْ
خدْ من أحداق أمانْ
معكْ على طول الزمانْ

فأنا والله مليحه فاتنَه ومن الحساد ما أنا آمْنه
والملوكْ وأهل الرُّتبْ يأخدو منى الحسب
قلت يا ستى أنا هونى نموت
ادفنونى عندكم جوا البيوت
والعذارى حولها يمشو سكوت
ثم قالو كلميه
يا غريبه وارحميه
دا غريب لا تهجريه

يشتهر حالكْ يصيرْ لكْ كاينه يقتلوه أهلكْ وتبقى ضامنه
دا الحديثْ فيه العطبْ ليس دا وقت الغضبْ

* * *

قالتْ امضى لا يكونْ عندكْ خبرْ
واصبرْ واعملْ على قلبكْ حجرْ
ما طريقى سالكاً من جا عبرْ
دى العذارى يعرفوكْ
ما تراهمْ يسعفوكْ
ظلمونى وأنصفوكْ
قم وعاهدنى فما أنا خاينْه وأنا الليلهْ لروحى راهنْه
مُرّ وعِى لِى الدّهبْ فترى عقلكْ ذهبْ

* * *

عاهدتنى وبقيتْ فى الانتظارْ
وأورثتنى الذل ثمّ الإنكسارْ
والدجى قدْ صار عندى كالنهارْ

عندما غاب القمرْ
وأظلم اللّيل واعتكرْ
حنّ قلبي وانكسرْ
وعريبا فى حديثى واهـْنـَه آمناً فى سرها مطّامنهْ
والفؤاد منى اضطربْ ونسيتْ ذاك الطـَّربْ

* * *

صرت نرعى النجم لى وقت الصَّباحْ
إذ بدا لى الكوكب الدُّرِّى ولاحْ
وإذا هى قد أتت ستّ الملاحْ
والعذارى فى عقابْ
مع عريبا فى خضابْ
ثم قالتْ دا الكلابْ
ينبْحوا تأتى الرِّجالالظاعـْنه بالسيوفْ والرماحْ الطاعـْنهْ
يدْركونى فى الطـَّابْ يجعلوا راسى ذنـَبْ

وتبدو فى هذا الزجل خصائص اللهجة المحلية فى إقليم إدفو بالصعيد ، ويقفنا على بعض الكلمات التى كانوا ينطقونها بطريقة تخالف نطق أهل القاهرة مثلا من العامية المتداولة فى كثير من الزجل الذى وصلنا لمشاهير الزجالين والأدباء . ويمتاز هذا الزجل بطرافة موضوعه لأنه يحكى قصة حب الزجال لفتاة بدوية ، أهلها أصحاب صولة ، ولا تزال قصص عشق البدويات تدور فى الأدب الشعبى المنظوم والمنثور ، ويشكل هذا الزجل فى أسماعنا نظماً طريفاً له موسيقاه الجديدة بالنسبة لغيره من الأزجال فى عصره ، ولكن نغمته لا تزال لها أصداء بعيدة تتردد فى أغانى الصعيد بمصر إلى الآن . ويتدرج فيه النغم ويتنوع . وقد اكتسب شهرة فى عصره بين مواطنيه بالصعيد .

وليست كل منظومات الزجل كتلك المنظومة متعددة الأوزان ، بل غالباً

ما تكون المنظومة الزجلية متحدة الوزن وإن تعددت القوافى، كقول ابن جابر البغدادى فى دراويش الصوفية :

لابد تظهر بين الناس   قلندرى محلوق الراس
تلبس عوض دا الكتّان   وحاتك صوف الخرفان
أو دلق أو تصبح عريان

* * *

تغدو تدور مع أجناس   محلقين الروس أكياس
ما يعرفوا إلا الخضرة   والنَّبْك لا شرْب الخمرة
مثقالها بألف جرّه
وعندهم منها أكياس   دانق يقاوم سبعين كاس
من قبل ما تغدو مسطول   تهتم فى أمر المأكول
وتطلع السوق بالكشكول

ومن الزجل ما يجرى على شكل الرباعى أو الدوبيت مثل قول إبراهيم المعمار فى تعقيبه على قصيدة ابن دانيال فى رثاء أهل الخلاعة . قال : « لو أنى أدركت ذلك الزمان ، لرثيت الخلاعة والمجون بهذا الزجل المصون :

منعونا ماء العنب ياسين   رب سلم لم يمنعونا التين
هات قل لى إذا مُنعْنا الراحْ   وحُرمنا من الوجوهْ الصِّباحْ
بيشْ نَبقَى نستجْلبْ الأفراحْ   والخليع كيفْ تراهْ مسكينْ

* * *

على ماء العنبْ بكى الراووقْ   والشمْع صارْ بعبرِتو مخنوقْ
والوترْ باتَ من الغروبْ للشروقْ   من أنينه تسمعْ له فى الليل حنينْ

ويمضى الزجل على هذه الصورة إلى آخره . ونلاحظ بدأه بمطلع مزدوج على قافية واحدة تتكرر فى كل مقطع أو دور، تكرر القفل فى الموشح ، لكن الزجال يكتفى هنا بشطر واحد ذى قافية ثابتة .

وشاع هذا الشكل الأخير فى الزجل أكثر من غيره ، ونظم فيه معظم زجالى العصر ، ومع ذلك فقد اعترف بعض الباحثين فى هذا الفن من القدماء بتعدد أشكال الزجل وأوزانه .

قال صفى الدين الحلى : « وقد قسمه مخترعوه إلى أربعة أقسام يفرق بينها بمضمونها المفهوم لا بالأوزان واللزوم ، فلقبوا ما تضمن الغزل والنسيب و« الخمرى » و« الزهرى » زجلا ، وما تضمن الهزل والخلاعة والأحماق « بُلَّيقا » ، وما تضمن الهجاء والثلب « قرقيا » ، وما تضمن المواعظ والحكمة مكفراً . ولقبه مشتق من تكفير الذنوب . وأطلقوا على كل ما أعرب بعض ألفاظه من هذه الفنون لقب المزنم ، واشتقاق هذا اللقب من التزنيم ، وهو المستلحق فى قوم وليس منهم » .

وقال صاحب خلاصة الأثر : « إنه خمسة أقسام ما تضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحال يختص بالزجل ، وما تضمن الهزل والخلاعة يقال له بُلَّيقْ ، وما تضمن الهجو والنكت يقال له الحماق ، وما بعض ألفاظه معرب وبعضها ملحون فاسمه مزبلج ، وما تضمن الحكم والمواعظ فاسمه المكَفِّرْ » .

ومع أن المحبى فى خلاصة الأثر يلخص كلام الحلى بصفة عامة إلا أنا نلاحظ بعض الخلاف فى الأسماء ، فيما تضمن الهجو والنكت ، إذ يسميه الحلى « قرقيا » ويسميه المحبى « الحماق » ، وما بعض ألفاظه ملحون وبعضه معرب يسميه الحلى « مزنم » ، والمحبى يسميه « مزبلج » . وتختلف تسمية هذا النوع عن تسمية سابقيه لأنها تعتمد على الإعراب وعدمه فى ألفاظ الزجل ، وليس على موضوعاته ومعانيه كالأسماء السابقة .

ويتضح أن بعض الباحثين فى تلك الضروب النظمية حاولوا تحديدها وحصرها ، لكنهم على قدر ما جمعوا من الأسماء اشتبكت أمامهم السُّبل واختلطت ، ولم يحددوا المسميات تحديداً قاطعاً من حيث الوزن والشكل والمضمون .

وليس حصر الزجل فى موضوعات الغزل والخمر والزهر ، وحكاية الحال صحيحاً إلى حد كبير فى هذا العصر ، ذلك أن الزجل فى عرفهم شمل كثيراً من الموضوعات الأخرى « التقليدية » أو الرسمية التى خاضها شعر التكسب ، كالمديح والرثاء . ومنه ما نظمه بدر الدين الزيتونى يرثى أهل مصر ممن أهلكهم الطاعون فقال :

وحدّوا من قدْ حكمْ بالموتْ ونفذْ حكمُه بما يختارْ
واحتجب عن العيون سبحانه جل من لا تدركو الأبصار
بالممات ربّ البشر لما قد حكم فى الكائنات بأجمع
اختْتفوا فى ذا الوجود وأضحوا ما لهمْ من ذا القضا مدفعْ
جا أخذ منهم ملاح كانوا شبه أقمار البدور طلّع
فاندبوا يا اهل الحمى وابكوا واجعلوا دمع العين مدْرارْ
واحزنوا على الذين ماتوا واختفوا عن أعين النظّار

ونظم خلف الغبارى فى مديح السلطان الأشرف شعبان زجلا فقال[1] :

حب قلبى شعبانْ موفّق رشيدْ وجمالو أشرقْ ومالو حدودْ
وأبوه الحسن وعمه الحسينْ وارثْ الملك من جدود لجدود
رسل لحظك حازم لقتل العدا وافيت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك شاويش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملكه وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالت خنقت فى الركوب عليك البنود
فاحكم احكم فى مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسنك جنود

ولخلف الغبارى هذا زجل فى مناسبات شتى ، فقد كان يقوم بدور الشاعر الرسمى للبلاط المملوكى فى عصره ، ينظم فى كل حدث أو مناسبة كبيرة ، يؤرخ بها لوقائع سيده السلطان . فمن ذلك ما نظمه فى وقعة

---

(١) تاريخ ابن إياس ص ٢١٣ .

العربان بالبحيرة سنة ٧٨١ هـ . يقول :

باسم رب السما ابتدى　　فارج الهم والكرب
ونعيد للذى حضر　　قصة الترك والعرب
جا الخبر يوم الأربعا　　بأن فى ليلة الأحد
جا دمنهور عرب خدوا　　سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم　　هو الذى للجميع حشد
فبرز أيتمش سريع　　بمماليك وروس نوب
وعدد مالها عدد　　ويطلبوا لهم طلب
والأمارى المعينين　　كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح　　وغدا قصدو للعدا
فى المعادى رأيت لهم　　يوم زحام فايش غدا

* * *

حضروا ما التقوا أحد　　من جميع العرب حضر
وابن عرام أتى لهم　　بعتوه يكشف الخبر
ما عرف للعرب طريق　　بعدُو جا عبدو فى الأثر
لا يتْشُمَّشْ حدثوا الصحيح　　قام سريع أيتمش ركوب
ما ترك تركى فى الوطاق　　والخيام حبل قد نصب
راحت الترك من مكان　　وأتى بدر من مكان
ونفر عن دجى الوطاق　　ولهم قال أنا فلان
ولموسى بن خضر صاح　　مات بطعنة من السنان
ورأى الترك داركوه　　فى طلوع النهار هرب

والزجل طويل قسمه الغبارى إلى أدوار ، كل دور من مقطعين ، ويقص قصة تلك الوقعة بين العربان والمماليك . وهو صورة لاتخاذ الزجل شكلا للملاحم التاريخية ، وقد سار فى هذا الطريق فورث الشعر الفصيح شيئاً فشيئاً فى مصر المملوكية ، وبعض البلاد العربية الأخرى .

البلاليق : (البليق)

ومفردها بليقة ، وهى منظومة زجلية ، لكنها اختلفت عند المصريين عن الزجل فى موضوعها إذ اقتصرت على الموضوعات الخفيفة السائرة، الفكاهية، أو الساخرة . وغالباً ما تكون أوزانها خفيفة على السمع واللسان ، ولذا كانت أكثر سيرورة بين عامة الناس من الزجل . ونظم فيها العامة فى صور مختلفة ومناسبات متعددة. ومن عصر السلطان الناصر نجد بليقة تداولها الناس، واشتهرت . قال ابن إياس : « إن العوام صنعوا كلاماً ولحنوه ، وصاروا يغنونه فى أماكن التفرجات وغيرها ، وهو هذا :

سُــلطاننا رُكَــينْ وناِئبـــو دُقَـــينْ
يجنــا المــاء منــينْ
هاتـــو لــنا الاعْرَجْ يجى المــاء يدّحْرِجْ

يشيرون بذلك إلى ما أصاب مصر بعد سلطنة الناصر الأولى من انخفاض النيل ، وما جرى من الشدة . وعزا العامة ذلك إلى ظلم المماليك والسلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى اغتصب هو ونائبه سلار السلطنة من الناصر محمد وهو غلام سنة ٧٠٦ هـ ، ونفياه إلى الكرك . ويقصدون بركين ركن الدين تصغيراً للاحتقار ، ودقين هو الأمير النائب سلار ، لأنه كان قليل شعر الذقن ، أجرد ، فهو من أصل مغولى .

ومثل هذه البليقة الشعبية التى تتميز بخفة الوزن وسرعة الجريان على ألسنة الناس قول ابن مولاهم[1] :

من قال إنى جنْدى خلَقْ فقدْ صــدقْ
عندى قبا من عهْد نوحْ على الفتُوحْ
لو صادفتُو شمس السُّطوح كان احــترقْ

قال ابن تغرى بردى : « وكان يرقص عليها بين يدى السلطان حسن »

---

(١) النجوم الزاهرة . ١/٣١٨ .

وعلى هذا الوزن نفسه نجد بليقة أخرى نظمها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط الفقيه ، مطلعها :[١]

من قال أنا فقيه بشر فقد فشر

ونلاحظ تقارب وزن هذه البلقية ، وبنائها مع البليقة السابقة . وقريب من هذا الوزن والشكل نفسه البليقة التى نظمها عبد الرحيم بن محمد البمباني الأسواني (توفى سنة ٧٠٥ هـ) ورواها الأدفوى [٢] . قال فيمن يعرف بابن المصوص ، وقد سرق منه سكيناً :

إنك قد أرى فى اللصوص يا ابن المصوص
خنجرى كان فى الطبق ومنتصر فى القول صدق
وأنت أخذته بالسبق فعل اللصوص

ومن هذا الوزن ولكن بشكل معكوس ، قول أحدهم واسمه «المشارف »[٣]:

ذا الأسمر بالعوينات السود يسحر
ذا الأهيف كم على ضعفو يتصلف
لو أنصف كنت أجنى الوردالمضعف
دا ترشف من رضابو العذب القرقف
إلى أن أسكر
إلى كم ذا تتبع صدك والهجران
وتتعدى وتعاند فيك السلطان
فما ترضى وتعاملنى بالإحسان
عسى تعذر واغنى لك بالمزهر
دا الأسمر بالعوينات السود يسحر

ومع هذا الشكل الخاص الذى غلب على كثير من بلاليق العصر ، إلا

(١) النجوم الزهرة ١٠/٣١٨ .

(٢) الطالع السعيد ٣١٢ والبمباني نسبة إلى قرية بمبان .

(٣) الطالع السعيد ٢٩١ واسم المشارف عبد الرحمن بن عمر التيمى .

أن البناء العام قريب الشبه ببناء الموشح والزجل ، فالبليقة تحتوى على المطلع أو القفل ، و الغصن ، والخرجة ، مع بعض التحوير .

ونعرض لوناً آخر من البلاليق لهذا العصر ، منها ما نظمه عبد الكريم الشهرزورى القوصى توفى سنة ٧٢٠ هـ كقوله[١] :

قد حلا العنقود وطاب   قم بنا حتى نطيبْ
آه على كاسٍ كبيرْ   وعلى ساقٍ صغيرْ
وأقولْ له حين يديرْ   خشْ على هذا الشباب
هات على رغم المشيب
لو تـرانى يافقيـه   ومعى من تشتهيه
حين نسكر ونتيـه   كنت تشربْ بالكتاب
لو تكون ابن الخطيب

وتختلف هذه البليقة فى شكلها عن الشكل الأول ، وإن لم تفارق البناء الأساسى الذى تشترك فيه مع الزجل والموشح .

ونرى بليقة مما رواه الأدفوى فى الطالع على هذا النحو[٢] :

ومقبـل آبق عازب   ساقتنى المقـادير
ازوجت صرت معـدود   من جملة المدابير

* * *

كان قبل دا التَّصافى   لبسى لكل سـاعهْ
تدروا ايش سبب حرافى   فى الدنيـا يا جماعه
حتى بقى يرى فى   أتـوابى الخـلاعـه

* * *

لو تمموا عليـه   قالوا امتثـلْ أساطير
الأولـين وازوّج   واكتب عليه مساطير

* * *

---

(١) راجع ترجمته فى الطالع السعيد للأدفوى ص٣٣٤ والدرر الكامنة ٢/٤٠٠–٤٠١ ونسبته فى الطالع السهرودى القوصى .
(٢) الطالع السعيد ٢١٨ .

وبناء هذه البليقة بناء زجل بسيط ، لكنا نلاحظ ملاحظتين، أولاهما أن صاحبها عمد إلى التضمين فى القفل الأخير ، كما عمد إلى الجناس شبه التام فى القفل نفسه بين أساطير ومساطير .

ونرى صورة أخرى للبليقة من نظم الشرف الطفّال (توفى سنة ٧٢٢ هـ) . قال[١] :

فى دى المدرسا   جماعة نسا
إذا أمسى المسا   ترى قرقعه

* * *

نسادى الزمان   عجيبة يفلان
يكونوا ثمان   يصيروا أربعة

فقد استعان ناظم هذه البليقة بنظم الدوبيت ، بالتزام ثلاث قواف مطلقة ، والرابعة مقيدة فى كل دوبيت ، ومن مجموع الدوبيت تتكون البليقة . وهو نوع قريب مما أشرنا إليه من قبل فى الموشح الدوبيتى ، وهذا دليل على اختلاط هذه الأوزان الشعبية المستحدثة ، والتى تنتمى فى أصولها الأولى إلى أقاليم مختلفة فى المشرق والمغرب .

ومن البليق ماجاء على وزن المثنوى مثل قول « ساكن البليق »[٢]:

بسى من الدين التانى   نرجع لدين الحقّانى
نرجع عن الدين الأول   عن النسا لن نتحول
إن كنت فى ذا بتقوّل   اصفع ، وقطع آذانى

ومن مجموع الشواهد السابقة نتبين أن البليقة منظومة زجلية ، شعبية فى روحها ، ولفظها ، هزلية فى موضوعها ومعانيها غالباً ، خفيفة فى بنائها ، قصيرة ، ليس لها طول الموشح ، ولا الزجل ، وكان المقصود منها أن تقوم بدور محدود ، من التعبير الخفيف الساخر ، أحياناً ، الفكه أحياناً ، عن

(١) الطالع السعيد ص ٤٥٦ .

(٢) المغرب لابن سعيد ٣٦٥/١ تحقيق شوقى ضيف وزكى محمد حسن .

مشكلة ذاتية ، للناظم ، كالشكوى والغزل ، والعتاب ، وذم الزمان ، أو مشكلة عامة كظلم السلطان ، وجور الحاكم أو الوالى ، وشقاء الناس ومعاناتهم ، وضيق أحوالهم ، أو قد يقصد إلى استخدامها فى الرقص والغناء على الإيقاع المنتظم [١].

وربما عمد بعض الناظمين إلى إعرابها وإخراجها مخرج الشعر الفصيح المعرب ، مع إدخال بعض الألفاظ العامية أو الملحونة على أسلوبها .

واتخذها بعض شعراء القريض شكلا مناسباً للهجاء أو الهزل ، والفكاهة فى مواقف اللهو ومجالس الأنس . فقد نظم فيها الشاعر الوشاح صدرالدين ابن الوكيل المعروف بابن المرحل فى هجاء ابن صصرى ، فلما سمعها هذا القاضى لم يغضب [٢] ، بل عفا عنه ومنحه جائزة . وبهذا أضاع الفرصة على ابن الوكيل وعلى البليقة لتسير وتشتهر .

وكان الأديب عبد الكريم بن على الشهرزورى (توفى حوالى سنة ٧١٠هـ) ينظم الأزجال والبلاليق فى الهزل [٣] . وذكر صلاح الصفدى أن ابن فضل الله العمرى « نظم كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق » [٤] .

وكان القاضى تقى الدين ابن دقيق العيد (ولد سنة ٦٥٧ هـ — وتوفى سنة ٧١٥ هـ) يقول البلاليق [٥] .

---

(١) الطالع السعيد ٤٥٦
(٢) الدرر الكامنة ١/٢٦٤
(٣) الطالع السعيد ٤/١٧٧
(٤) فوات الوفيات ١/ ١٤
(٥) الطالع السعيد ٤٢٤

المواليا :

وهو صورة أخرى من النظم الشعبي يجرى على وزن واحد غالباً ، أشبه بالقصيد فى الشعر الفصيح ، لكنه يلتزم أشكالاً خاصة فى القافية .

ويختلف الناس فى نشأة المواليا وتاريخه ، فقوم يرجعونه إلى العراق ، ويرتدون به إلى عصر أخريات الدولة العباسية فى القرن الخامس أو فى أخرياته وبداية السادس . ، ويبعد آخرون به فى القدم فيردونه إلى القرن الثانى فى عهد البرامكة . ويرى بعضهم أن أصل نشأته بغداد ، ويرجح آخرون أن موطنه الأول هو البصرة .

ولكنه على أية حال عراقى النشأة ، وفد إلى مصر وتأصل كالزجل والموشح . ويقول صاحب « تاريخ الموصل » إن أهل واسط هم الذين أحدثوا المواليا ، فنظموا فيها الغزل ، وتناولها العبيد والغلمان لسهولتها فصاروا يتغنون بها فى بساتين النخل ، وسقى الأراضى ، وكانوا يقولون فى آخر كل صوت « يامواليا ! » إشارة إلى أسيادهم . ثم أخذها عنهم البغداديون وأدخلوا عليها بعض الإصلاح حتى عرفت بهم دون مخترعيها »[1] .

وقال ابن خلكان : « وقد ألم بعض البغاددة فى مواليا على اصطلاحهم ، فإنهم ما يتقيدون بالإعراب فيه ، بل يأتون به كيفما اتفق ، وهو[2] :

ظفرتْ لِيلهْ بليلَى ظفرة المجنونْ
وقلت وافى لحظِّى طالعٌ ميمونْ
تبسّمتْ فأضاءْ اللؤلؤْ المكنونْ
صار الدُّجى كالضُّحى فاستيقظْ الواشونْ

والشكل الشائع للمواليا هو هذا الذى أورد نموذجاً له ابن خلكان فى المقطوعة السابقة ، ووزنه من بحور الشعر « القريض » يجرى على بحر واحد مع تنويع آخره وتغيره أحياناً فى التفعيلة .

---

(١) تاريخ الموصل ٨٢

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٤٣

وأكثر المواليا التى وصلتنا من هذا العصر من بحر البسيط ومن الرباعى[١]. وأورد صاحب «مرآة الزمان» مواليا ليس من هذا الشكل الرباعى منسوباً إلى الشاعر البغدادى وهو قريب فى صورته من الزجل ، وربما أخطأ فى جعله من المواليا هو[٢] :

مالى ومالى ومالى تغـــيرت أحوالى
لقيت مالا يكيف ولا يدور ببالى
ما مثلهم يحسدونى ولا هم أمثالى
هُمْ همّ نفسى وضيقوا فى حبسى
ومزقوا كتب درسى عمداً وهم رأسمالى

ويدور موضوع المواليا كالموشح والزجل فى الغزل غالباً ، أو شكوى الحال ؛ فمن الغزل قول عز الدين أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان[٣] :

البدر ، والسعد ، دا شبهك ودا نجمك
والقد ، واللحظ ، دا رمحك ودا سهمك
والبغض والحب ، دا قسمى ودا قسمك
والمسك والحسن ، دا خالك ودا عمك

وقد استخدم صاحب هذا الموال ضروب البديع المستخدمة فى القريض ، والكتابة الفنية فى العصر ، وخاصة الأنواع التى شاعت بين أدباء الشام ومصر كالتورية ، ويظهر فى البيت الأخير بوضوح فى لفظى « خالك » ، و « عمك » إذ ورى فى الخال معنى « خال » الحسن ، الذى يشبه عادة بنقطة المسك . وفى عمك ورى فعل الشمول أو عموم الحسن

ومنه قول أحمد بن محمد الشطرنجى (توفى فى حدود سنة ٧٤٠ هـ)[٤] :

سلطان حسنو قد أرسل للمهج أفكار

---

(١) ويرى الباحثون فى فن الموال أنه ثلاثة أنواع : الرباعى ، والأعرج ، والنعمانى (راجع محمد بن اسماعيل فى سفينة الملك ص ٣٨٥)
(٢) مرآة الزمان ٨/٤٠ .
(٣) النجوم الزاهرة ٨ / ٢٨ .
(٤) الدرر الكامنة ٦/٢٥٩ .

يجرد البيض من لحظو بلا إنكار
تلين بعدو عصايب ساير الأبكار
فطلب جيشو عذار ، ودار بالبيكار

ومنه ما ذكره الصفدى[١] :

عبَرْ علىَّ حبيبى ، قلْت : كلِّمنى
فقالْ بحبِّك لحسْنى قلتْ : تقْبلنى
فقــالْ لى بشمَاته أو تجــاوبْنى
ضحكت لو . قال: بار قلت : سبلْنى

وقد أجراه مجرى الحوار بينه وبين من يحب ، ومزجه بروح من العبث والدعابة ويأتى الجزء الأخير فى البيت الرابع وكأنه « الخرجة » فى الموشح .

ويلجأ بعض الموالين إلى هذه الطريقة فى نهاية كل دور ، أو فى نهاية الموال ، ومنه قول البهاء خضر بن سحلول يمدح يلبغا الناصرى صاحب حلب فى أثناء النزاع بينه وبين السلطان الظاهر برقوق[٢] :

يا ناصرى سهم عزِّك فى العدا مرْشوقْ
وأنتَ منصورْ، ومن حنّت إليه النُّوقْ
اصبرْ فما دامتْ الشــدَّة على مخلوقْ
غدا يجى الخوخْ وتذْهب دولة البرْقوقْ

ويقول حوبان بن مسعود (توفى سنة ٦٨٠ ه) فى موال يشكو موعداً مع حبيب وطول انتظاره[٣] :

تغيب وتبطى ، أقول: السَّا تجى ، وأقومْ
أجرى عليها وأمسيها مســا ميشــوم
تجى ومعهــا الشــوا والنقل والمشــمومْ
واسكت ومن هونى قال الناس دا مطعومْ

---

(١) شرح لامية العجم ١/١٦٣ .
(٢) الدرر الكامنة ٤/٤٤١ .
(٣) الدرر الكامنة ٢ / ٢٢٤ .

ويقول :

أفارقـــه وأقول إنى قد اتســليت
وريحت قلبى وزال الهــم واتخليت
واذكر مســاويه فى حتى إذا وليت
وإذا رجع جا نسيت الكل واتخليت

وتظهر فى المرال الأخير ظاهرة من ظواهر البديع اللفظى ، شاعت بعد ذلك فى الموال وهى الجناس الكامل فى القافية فى الشطرين الثانى والرابع .

ومنه ما جاء فى غزل المذكر ، كقول إبراهيم المعمار[١] :

هويت طباخ بالصَّــبْحه ْ أخذ ْ ميــه ْ
حــلو المـــزاج كأنه ابن تركيّــه ْ
وله أطارفْ نواعمْ بيض زبْـــديّه ْ
لهـــا معانى على الإخـــوان مخفيـــه

وقال الآخر[٢] :

لك وجه يحْكى فتاتْ السكَّر المصرى
وقــدّ يشْــبه ْ البـــانْ لى يِبْرى
وردْف ماريت مثلُه قطّ فى عصْرى
يا سوء حظىّ على ابن الثرّدة المقْرى .

وقد يستعمل الموال فى المجون ، وقد شاع هذا كثيراً فى العصر .

وينظم فى أعراض الشعر التقليدية كالمديح والرثاء ، ولكنه قليلا ما يستخدم فى هذه الأغراض . ومن هذا القليل قول شمس الدين الواسطى (توفى سنة ٧٨٠ هـ) فى الرثاء[٣] :

مامت حتى جفانى كل من فى الحى
وملنى وقــلانى كل من لُو شَىْ

---

(١) مطالع البدور ٢/٢٤
(٢) فوات ٢/٨٦ .
(٣) مطالع البدر ٢/١٤ .

وإنت ما فى العَجمْ والعرْب مثْلكْ حىْ
يا من طـوى بالمـكارم ذِكْر حاتمْ طىْ

ويغلب على لغة الموال اللفظ العامى ، غير المعرب لكن يحلو لبعض الموالين استخدام بعض ألفاظ معربة فى حشو مواويلهم تملحاً ، وربما غلب اللفظ المعرب عند بعضهم،كما فى قول البطراوى الدمشقى فى ذم الدنيا :

كيف اعتمدت على الدنيا وتجريبكْ
أراكَ فلكَ تراها كيفَ تجْرى بِكْ
مازالتَ الخــادعهْ تدْنو فتُغْرى بِكْ
حتى رمتْــكَ بإبعــادِكْ وتغريبــكْ

فنجد أن الأجزاء الأولى من شطراته معربة ، ونلاحظ الجناس الكامل فى القوافى كبعض ما أشرنا إليه من الأمثلة السابقة . ومثله فى الإعراب قول فخر الدين الموصلى :

ســاق بكفه شمس ضُحَى
قد أسكرنى من راحتيه وصحا
لو مكننى والراح فى راحتــه
فى الحان شربت كفه والقدحا[1]

واستخدم الصوفية الموال فى نظم أغانيهم . كقول عبد العزيز أبى فارس عبد الغنى بن أبى الأفراح (توفى سنة ٧٠٣ هـ) ، من تلاميذ ابن عربى[2] :

لِمْ تدّعى الذّوقْ والوجدانْ والأحوالْ
وإنتَ خالِى من الإخلاصْ فى الأعمالْ
ارجعْ لجسمكْ فسمّ البينْ لكْ قتّالْ
ترمى حجرْ مايشيلُهْ خُمسُميتْ عتّالْ

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٥٩ .

(٢) الدرر الكامنة ٢/٣٧٥ .

الدوبيت :

والدوبيت فى الأصل كلمة فارسية أطلقت على شكل من أشكال النظم الفارسى هو « الرباعية » . وانتشر الدوبيت على لسان شعراء الفرس منذ القرن الخامس ، وزاده شهرة الشاعر الفارسى عمر الخيام بنظمه رباعياته المشهورة ، وكذا استخدمه جماعة من شعراء الصوفية الفرس فى القرنين السادس والسابع . ومن فارس انتقل مغرباً إلى سائر البلاد العربية وكان أول البلاد العربية وأكثرها تأثراً به العراق ثم الشام فالسودان . وظل الدوبيت فى السودان شكلاً للتعبير فى النظم العامى إلى يومنا هذا .

والدوبيت من بحور الشعر المهملة ، وتفعيلاته « فعلن متفاعلن فعولن فاعلن » وقد لا يجرى كل ماقيل من الدوبيت على هذا البحر بل كثيراً ما يشذ بعض ناظميه ويخرجون عنه بضروب من التصرف ، لكنهم يحافظون على شكله العام .

وشكله العام ، أو بناؤه يتكون من أربع شطرات كالموال ، لكنه لا يجرى على قافية واحدة مثله ، بل المشهور فيه ثلاث متشابهات وواحدة مطلقة ، مثل قول أحدهم :

الصب بك المنعوب والمعتوب　　　والقلب بك المسلوب والمسلوب
يامن طلبت لحاظه سفك دمى　　　مهلاً ضعف الطالب والمطلوب

ويقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأول بأربع قواف كالمواليا ، والثانى أعرج بثلاثة ، والثالث مردوف بأربع واحدة فيها مطلقة هى الثالثة .

وأكثرها شيوعاً النوع الثانى « الأعرج » ، ويليه النوع الأول . ومنه قول زين الدين عبد الله بن محمد بن عبد القادر الحلبى الشافعى (توفى سنة ٧٢٤ هـ) :[1]

---

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٢٧٥ .

يا عصر شبابى المفدى أرأيت — ما أسرع ما أبعدت عنى ونأيت
قد كنت مساعدى على كيت وكيت — واليوم فلو أبصرت حالى لبكيت

ويكون الدوبيت شعراً معرباً كالمثال السابق الذى يمكن قراءته معرباً وملحوناً ، ومنه ما يمتزج اللحن فيه بالإعراب ، واللفظ العامى بالفصيح ، ومنه العامى الملحون أبداً .

ويذكر الحلى فى العاطل الحالى أنه لايجوز فى الدوبيت اللحن فيقول: « وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبداً لايغتفر فيها اللحن وهى : الشعر القريض ، والموشح والدوبيت» .[١]

ومع ذلك فقد جاء الدوبيت ملحوناً ، فيما ذكرنا من الأمثلة وفى قول على بن محمد بن جعفر القوصى (المتوفى سنة ٧٠١ هـ)[٢] :

يا عين بحـــق من تحبى نامى — نامى فهواه فى فؤادى نامى
والله ما قلت ارقدى عن ملاله — إلا لعسى تريه فى الأحلام

واستخدم الدوبيت فى أغراض الشعر كالغزل والعشق والتصوف ، فمما قيل فى الغزل قول علاء الدين الجوينى[٣] :

لله مبيتنـــا بضـــوء القمـــرْ — والحب نديمنا وصوت الوترْ
قد رق فـــرق نسيمُ سحرْ — ما أبرد ماجاء نسيمُ السَّحرْ

وقال عز الدين الإربلى (توفى سنة ٦٦٠ هـ)[٤]

لو كان لى الصبر من الأنصار — ما كان عليك هتكت الأستارْ
ماكان يأسمر لـــو بت لـــنا — فى دهرك لياه من السمُّارْ

---

(١) الحالى والعاطل ٨ .
(٢) الطالع السعيد ٣٩٣ .
(٣) مطالع البدور ١/٥٧ .
(٤) فوات الوفيات ١/ ٦٤ .

وقال :

لو ينصرني على هواه صبرى   ما كنت ألذ فيه هتك الستر
حرمت السمع ســوى ذكرهم   مالى سمر سوى حديث السمر

وقال الباجى (توفى سنة ٧١٤ هـ) :

بالبلبــل والهــزار والشحرورْ   يسبي طرباً قلبي الشجى المغرور
فانهض عجولاً وانتهب اللذة ما   جادت كرماً به يد المقدور

واستخدم الصوفية الدوبيت ، فكثر نظمهم فيه ، وربما تأثروا بصوفية الفرس . فمن نظم فيه منهم محمد بن إسرائيل . قال :(١)

قد بالغَ فى حــديثه بالمين   من قال قد رأيت مثله بالعين
مايبصر مثله سوى ذى نحول   من حيث يرى الواحد كالاثنين

ومنه قول محمد بن على بن إبراهيم الواسطى (توفى سنة ٧٧٧ هـ) ، وكان أحد الصوفية بخانقاه البيبرسية :(٢)

مازال بقلبــه لهيب النــار   حتى تركْ الجسم خيال سارى
دع عنكَ ملامه فلايعلم ما   قاساه الواسطى إلا البارى

وقال :

إن ضرمنى بجــذوة التذكار   حبي وبرى جسمي شكرتْ البارى
فالعاذل فى هواه لاعقل له   ما أبلد عاذلى وأذكى نارى

وقال ، ونلاحظ اختلافاً فى الوزن عن وزن الرباعية الشائع :

والــذى خص بخال   عمه الحسن حسَنْ
لم يذق جفنى لمــا   فرضَ الهجــرُ وسَنَ

---

(١) شرح اللامية للصفدى ص ٨٦ .
(٢) الدرر الكامنة ٤/٥٤ .

كان وكان :

ظهر هذا اللون من النظم الشعبى بالعراق ، وأحدثه البغداديون ، وسمى بهذا الاسم لأنهم كانوا ينظمون فيه الحكايات والخرافات حتّى جاء ابن الجوزى (توفى سنة ٥٩٧ هـ) وشمس الدين الكوفى فنظما فيه المواعظ والحكم [١] .

وظهر نظير لهذا النظم بمصر والشام فى عهد الفاطميين ، لكنه سمى بمصر بالزكالش . قال على بن ظافر فى البدائه [٢]: « وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التى يسميها المصريون الزكالش ، ويسميها العراقيون « الكان وكان » :

النار بين ضلوعى ونا غريق فى دموعى
كنى فتيلة قنديل أموت غريق وحريق

وأورد صاحب مرآة الزمان صفة أحد البغاددة الذين نظموا هذا النوع بـ « المزكلش » أى الذى يصنع الزكالش فقال: « ونظم فيه ببغداد أبو منصور ابن نقطة المزكلش (توفى سنة ٥٩٧ هـ) ، وكان يسحر الناس فى رمضان [٣] .

وذكر صاحب الجامع المختصر ابن نقطة هذا فقال : « المسحر ، شيخ مشهور ، مجيد فى صنعة الغناء وعمل « الكان وكان » غاية فى ذلك ، يأتى بالمعانى اللطيفة ، وكان عامياً يعمل خفاف النساء ، وتوفى سنة ٥٩٧ هـ [٤].

ولاقى هذا النظم رواجاً فى العراق والشام ، وكان محدود الانتشار فى

---

(١) تاريخ الموصل ٨٢ .
(٢) بدائع البدائه ١٣٣ .
(٣) مرآة الزمان ٨/٥٠٩ .
(٤) الجامع المختصر ٩/٦٨ .

مصر ، والشكل المعتاد له فى العراق يمثله قول البغدادى [١] :

لمـــا تزايد وجـــدى   فيكم وقل اصطبارى
وعرفتكم عـــداىْ   وقلت الحـــركات

* * *

يا حاضرين بقلبى   يا غائبين عن النظر
متى يجينى مبشر   من عندكم بقدومكم
ويفرحون أصدقائى   وأكمـــد الشمات

* * *

حتى تدق طبول الهنا   وتفتح أبواب الرجـــا
وأقـــول للعين قرى   قد رد ما قد فات

* * *

متى يقولوا قدمـــوا   أخرج بسرعة للقا
وأقول لكُمْ يا أحبابى   أطلتم الغيبـــات

* * *

وإن قضا لى ربى   أموت ولا أنظر شخصكم
وجا نذيرى إليـــكم   يقل لكم قد مات

* * *

فحدثوا الناس عنى   على رءوس المـــلا
إنى على العهد باقِى   حتى يجى الميقات

ومن اسم الكان وكان ، وما روى عنه ، نجد أنه كان شكلا من النظم مخصوصاً بالقصص القصيرة التى يقصد بها الوعظ والتبصير ، والنصح . ولكنه مع ذلك استخدم فى أغراض أخرى ، فقد استخدمه ابن جابر البغدادى فى وصف المدرسة المستنصرية ببغداد وفقهائها ، وكان قد قيل لهم : من يرضى بالخبز وحده ، وإلا عندنا غيره .

---

(١) مرآة الزمان ٣٣٩/٨ .

حاشا لستٌ المدارس	ومن بها يضربُ المثلْ
تهــون من بعــد ذاك	التعظــيم والتشــريف
مستنصــرية شــبيكى	قد كنت فى عصر الصبا
واليوم قد صرت بهرج	مزيفــة تزييــف
ما زال نخلك يرمى	حتى متى الرطب الجنى
وما بقى فى قراحــك	غير الكرب والليف
ذكرت بيتــاً ظريفاً	من كان وكان البغاددة
وكل شىء يبــدو	من الظريف ظريف
أى ست ما أكثر ذنوبك	ما أحلى فراشك من العشى
دى زحمــة البــاقلانى	وكلهــم برغيــف

واتخذه بعضهم فى الشام لتسجيل الأحداث ، مثل الشاعر عمر بن الوردى الذى سجل أحداث طاعون سنة ٧٤٩ هـ الذى اجتاح مصر والشام وأفنى قوماً عديدين وخرب البلاد .

قال[١] :

أعــوذ بالله ربى	من شر طاعون النسب
باروده المســتعلى	قد طار فى الأقطار
دولا بد هاســاتــه	ساعية على صارخ مارتى
ولا قــدأ بذخيره	فتاشــة التيــار
يدخل إلى الدار يحلف	ما أخرج إلا بأهلها
معى كتــاب القاضى	بكل من فى الدار

وساعد هذا الوزن ، مع سهولة القافية لتعاقبها كل ثلاث شطرات على نظم الحكايات والقصص والأحداث ، وقد سجل فيه التاريخ جماعة من الناظمين فى وقعة الأمير قوصون سنة ٧٤٢ هـ[٢] .

---

(١) تاريخ ابن الوردى ٢/٣٠٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٠/٤٨ .

فنون النثر الشعبي

وإلى جانب تلك الصور المنظومة من الأدب الشعبي نرى صوراً أخرى منثورة ، كالقصة والسيرة الشعبية ، والمقامة (بالعامية) . وقد حفل هذا العصر بمجموعة من السير الشعبية الكبيرة مثل « الظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى يزن ، وظهرت قصص أخرى ، وأضيفت إلى مجموعة ألف ليلة بعض القصص التى تصور جو العصر وحياة المماليك وعامة الناس[١] .

وكانت المقامة العامية التى تقلد المقامة الفصحى من فنون النثر الشعبي الشائعة واتخذت وسيلة للتعبير عن الموضوعات الخفيفة ، الفكاهية والساخرة ، واتخذت وسيلة للهزل والإضحاك[٢] .

---

(١) راجع ما كتب فى هذا الموضوع للدكتور فؤاد حسنين ، والدكتورة سهير القلماوى والدكتور عبد الحميد يونس .

(٢) ترد صورة لتلك المقامات عند الحديث عن شرف الدين ابن أسد فى الصفحات التالية ٣٣٤

أعلام الأدب الشعبي

١

شرف الدين بن أسد

واشتهر من أعلام الفنون الشعبية ، وصور الأدب الشعبي التى عرضنا لها ، كثيرون ، سنكتفى منهم بذكر ثلاثة كان لهم صيت ، وترددت أسماؤهم كثيراً ، وتناقلت كتب التاريخ والأدب أنباءهم ، وإنتاجهم ، ونعنى : شرف الدين بن أسد ، وإبراهيم المعمار ، والغبارى[1] .

أما شرف الدين بن أسد المصرى فقد وصفه ابن شاكر بقوله : « وهو شيخ ماجن متهتك ظريف خليع ، يصحب الكتاب ، ويعاشر الندماء ، ويشبب فى المجالس على القيان »[2] .

والتقى به صلاح الدين الصفدى بالقاهرة فقال عنه : « رأيته غير مرة بالقاهرة ، وأنشدنى له شعراً كثيراً من البلاليق ، والأزجال والموشحات ، وغير ذلك ، وكان عامياً مطبوعاً ، قليل اللحن يمتدح الأكابر ، ويستعطى الجوائز ، وصنف عدة مصنفات فى « شاشات الخليج » و « الزوائد » التى للمصريين ، والنوادر والأمثال ، ويخلط ذلك بأشعاره . وهى موجودة بالقاهرة عند من كان يتردد عليهم . وتوفى رحمه الله تعالى بعد ما تمرض زماناً سنة ٧٣٨ هـ » .

ومن طريف ما رواه الصفدى من « مقاماته » مقامة هزلية يقلد فيها كلام النحويين المتشدقين بطريقة ساخرة . قال الصفدى إنه وضع حكاية حكاها له وهو معه على الخليج سنة ٧٢٨ هـ ، وهى : « اجتاز بعض النحاة

(١) يرد الحديث عنه فى الجزء الثالث من الكتاب فى عصر الدولة الثانية .

(٢) فوات الوفيات ٣ / ٣٨٣ .

ببعض الأساكفة فقال له : أبيت اللعن ، واللعن يأباك ، ورحم الله أملك وأباك ، وهذه تحية العرب فى الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن عليك أفضل السلام ، والسلام ، ومثلك من يعز ويكرم . . . . » ثم يسرد عليه قراءاته فى كتب العلم واللغة والنحو ، وينتهى إلى الغرض الذى جاء من أجله إلى الإسكاف فيقول : « وقد دعتنى الضرورة إليك ، وتمثلت بين يديك لعلك تتحفنى من بعض حكمتك وحسن صنعتك بنعل يقينى الحر ويدفع عنى القر ، وأعرب لك عن اسمه حقيقاً لأتخذك رفيقاً . فيه لغات مؤتلفة ، على لسان الجمهور مختلفة ، فمن الناس من كناه بالمداس ، وفى عامة الأمم من لقبه بالقدم ، وأهل شرنوزه سموه بالسرموزة ، وإنى أخاطبك بلغات هؤلاء القوم ، ولا إثم على فى ذلك ولا لوم ، والثالثة به أولى ، وأسألك أيها المولى أن تتحفنى بسرموزة أنعم من الموزة ، وأقوى من الصوان وأطول منطقة ، ثابتة فى الأرض الزلقة ، نعلها من جلد الأفيلة الحمير لا الفطير ، أطول عمراً من الزمان ، خالية البواشى ، مطبقة الحواشى لا يتغير وشيها .

فلما أمسك النحوى عن كلامه ، وثب الإسكافى على أقدامه ، وتمشى وتبختر ، وأطرق ساعة وتفكر ، وتشدد وتشمر ، وتحرب وتنمر ، ودخل حانوته وخرج ، وقد داخله الحنق والحرج .

فقال له النحوى : جئت بما طلبته ؟

قال : لا ، بل بجواب ما قلته .

فقال : قل وأوجز ، وسجع ورجز .

فقال : « أخبرك أيها النحوى أن البشر سنجورى شطبطاب المتفوقل ، والمتيعب من جانب الشرشنكل ، والديوك تصهل كنهيق زقازيق الصوبلحانات . إلخ » ويورد كلاماً مسجوعاً لا معنى له على تلك الصورة حتى يقول : « أعيذك بالزحزاح ، وأبخرك بحصى لبان المستراح ، وأرقيك برقوات مرقاة قرقرات البطون لتتخلص من داء البرسام والجنون .

ونزل من دكانه مستغيثاً بجيرانه ، وقبض لحية النحوى بكفيه ، وخنقه

بأصبعيه ، حتى خر مغشياً عليه ، وبربر فى وجهه وزجر ونأى بجانبه واستكبر وشخر ونخر ، وتقدم وتأخر . فقال النحوى الله أكبر الله أكبر ، ويلك يا هذا الغفان . قال : من هذا الهذيان . والسلام » .

وهكذا يتخذ فى هذه المقامة الهزلية شكل المقامة الفصيحة الجدية ، ولكنها تنحو نحو أسلوب ابن دانيال فى باباته .

ونقل لنا ابن شاكر مجموعة من منظوماته وبلاليقه ، منها بليقة هزلية فى شهر رمضان وقد جاء فى الصيف فأثقل على الناس ، فيرجو رمضان أن يرحل خفيفاً ، ويعده بأن يصومه فى شهر طوبة ، حيث البرد واليوم قصير ، ولا حاجة للشرب ، ولا إرهاق للعطش .

٢

إبراهيم المعمار(١)

ويعرف بغلام النويرى قال عنه ابن شاكر إنه عامى مطبوع ، تقع له التوريات المليحة المتمكنة لا سيما فى الأزجال والبلاليق . وقال عنه ابن إياس « صاحب الأشعار اللطيفة والأبيات العامرة بالمحاسن والتورية » . وقال ابن حجر : « الشاعر المشهور ، كان عامياً إلا أنه كان ذكى الفطرة ، قوى القريحة ، لطيف الطبع ، وشعره سائر مشهور . وكان يلزم القناعة ، ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات فى الطاعون سنة ٧٤٩ هـ . بعد أن نظم فيه البيتين المشهورين .

يا من تمنى الموت قم فاغتنم   هذا أوان الموت مافاتا
قد رخص الموت على أهله   ومات من لا عمره ماتا

---

(١) ترجمته فى الدرر الكامنة ١/٤٩ ، ابن إياس ٢٥٤ ، وفوات الوفيات ١/٥٥ – ٥٦ .

وأكثر نظمه فى الخلاعة والمجون ، ويكثر فيه من التوريات على طريقة أدباء المصريين مثل قوله :

يا قلب صبراً على الفراق واو رميت ممن تحب بالبين
وأنت يادمع إن ظهرت بما يخفيه قلبى سقطت من عينى

فقد ورى فى كلمتى « سقطت من عينى » .

وروى له ابن إياس مقطعات عديدة من منظوماته الشعبية فى مناسبات شتى ، ونقل الغزولى فى « مطالع البدور » بعضها مثل قوله فى باب زويلة ، وكان يعلق عليه المجرمون ويصلبون[1] :

حاذر زويلة إن مررت ببابها وطعامها كن آيساً من خيره
فوسط القتلى يقول به انظروا من لم يمت بالسيف مات بغيره

وقال فيه :

زويلة بابك هذا سفيه يشرب ماء الخمر جهراً بفيه
ولم يزل يألف سفك الدماء وكل ما يقطعه الشرع فيه

وكان المعمار من شعراء العوام الذين يترددون على مجالس السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يرتاح له ، ويأنس به وبحديثه وفكاهته ، وكان يمزج كلامه بالملح . واعتبر شاعر السلطان ينشده فى المناسبات .

---

(١) مطالع البدور ١/١٨ .

فهرس

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧١/٣٤٧٥

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٤٠٧٨/١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

الأدب فى العصر المملوكى

يعرض موضوع الكتاب لدراسة عصر أدبى شابه كثير من الغموض ، ولم يقبل على درسه الباحثون ، مع أنه استغرق فترة من الزمن تقارب ثلاثة قرون ، كان لها أثر عميق فى الحياة العربية فى هذا الجزء الذى خضع لحكم المماليك فى مصر والشام .

وكان لانصراف الباحثين عن هذا العصر أسبابه ، منها أن مصادره مخطوطة ، أو ظل معظمها كذلك إلى عهد قريب ، ومنها أن دعوى سادت بين الناس بأن هذا العصر كان عصر اضمحلال وظلمة ، وأنه غير جدير بالاهتمام ، خاصة وأن دعاة النهضة العربية فى العصر الحديث وجّهوا الاهتمام إلى عصور القوة والازدهار . وإذا كانت هذه الدعوى تحمل فى طيها بعض الحقيقة ، فإن الانصراف عن درس الحياة الفكرية والفنية والأدبية ، بسبب ذلك الضعف لا ينبغى خاصة ، وأنها مرحلة خطيرة فى حياة الفكر العربى والحضارة العربية الإسلامية لا يمكن إهمالها . بل إن الدراسات الأخرى فى التاريخ والآثار قد اهتمت بها اهتماماً بالغاً .

ومن هنا أتجه للتأريخ للحياة الفكرية والفنية فى هذا العصر كله ، وطوال حكم دولتى المماليك ، واختص هذا الجزء « الأول » بالتأريخ للأدب فى العصر المملوكى إبان الدولة الأولى ، أو « دولة المماليك البحرية » .

ويهتم الكتاب خاصة بربط الحياة الفكرية والفنية والأدبية بالحياة ، ومظاهرها فى السياسة والاقتصاد ، والمجتمع كله بكل مظاهر نشاطه ، لاعتقادنا بأن الأدب صورة حيّة جميلة للنشاط البشرى . ويمكن من الأدب أن نستشف حياة الناس ، وأذواقهم ، وأفكارهم ، ومواجدهم .

وهكذا تجد الكتاب نهجاً جديداً فى دراسة الأدب فى هذا العصر .

٧٥ ص

